حياة داود
الراعى، المرنم، الملك
ف.ب. ماير
مكتبة المحبة
ترجمة
القمص مرقس داود



حياة داود

الراعى ، المرنم ، الملك

تأليف

ف. ب. ماير

ترجمة

القمص مرقس داود

مكتبة المحبة

طبع بشركة هارمونى للطباعة
تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)

رقم الإيداع ٢٩٠ / ١٩٨٩



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة المؤلف

إن حياة وصفات داود جذابة للغاية، ليس فقط لنفوس القديسين الذين يعبِّر عن آرائهم العميقة في مزاميره السامية، بل لكل البشر، وذلك بسبب تنوعها، واختباراتها المتباينة، ثم لأنها أقرب الشبه للحياة البشرية العادية، وأخيرا، لأنها تستعرض أمامنا صفات الكرم والشجاعة التى تستهوى عادة قلوب الجميع.

ولقد وجهت أوفر عنايتي – وأنا أحلل حياة داود في كل أدوارها – إلى تلك الفقرات التى تشير إلى الخطوات التى أوصلت ذلك الراعى إلى عرش المُلك. في هذه الخطوات تكونت حياته وصفاته، ألّف أعمق وأعذب مزاميره، اكتسب اختباراته المتنوعة التى أهلته للتعبير عن القلب البشرى.

هذه هى حياة داود، مرنم العالم الحلو، أب المسيح، مؤسس الأسرة الملكية، النبى الذى كان مسوقا بالروح القدس كما يخبرنا الرسول بطرس، رمز وسابق المسيح الذى، ولو كان ابنه، إلا أنه أيضا ربه، الشخصية الفريدة التى وُجدت حسب قلب الله، الذى «عمل كل ما هو مستقيم فى عينيَّ الرب ولم يحد عن شىء مما أوصاه به كل أيام حياته إلا فى قضية أوريا الحثى» (١ مل ١٥ : ٥).

ولا شك أن شخصية داود ستبقى على مر الدهور والأجيال موضع احترام وإعجاب ومحبة الجميع.

ف. ب. ماير





مقدمة المعرب

من أحب شخصيات الكتاب، شخصية داود النبى والملك، فهو الذى يتردد اسمه - بالإجلال والتوقير - على كل لسان، عند ترديد مزاميره الرائعة الخالدة التى تنم عن روحانية عميقة، حتى استخدمتها جميع الكنائس، فى كل أرجاء العالم، فى صلواتها أو فى تسابيحها أو فى كليهما.

وهو الذى حظى بشهادة فريدة، لم تمنح لغيره من البشر السابقين أو اللاحقين، إذ شهد الله عنه قائلا: «وجدت داود بن عيسى رجلا حسب قلبى الذى سيصنع كل مشيئتى» (أع ١٣ : ٢٢).

وهو الذى يقدم لنا مثلا ساميا فى تحمل الضيق والآلام. فإنه، إذ صهرته المحن والاضطهادات المريرة، خرج من بوتقتها مطهّر النفس نقى القلب.

بل هو الذى يقدم لنا مثلا أسمى فى كيفية معاملة الأعداء، والصفح عن المسيئين، ومقابلة الإساءة بالإحسان. ولعله سمع مقدما تعليم الرب يسوع المسيح ابن داود القائل: «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت ٥ : ٤٤).

وإنى إذ أضع هذا المؤلَّف أيضا بين يدى القدير، أتوسل إليه أن يباركه كما بارك سابقيه، لكى يكون بركة لكل من يقرأه...

٢٤ فبراير ١٩٥٨
١٧ أمشير ١٦٧٤

القس مرقس داود

الفصل الأول

من حظائر الغنم [١]

فى كـل يوم نمر بـالنهــر عند منبــعــه
ولا ندرى مــا الذى ســوف يـتـبــعــه
مـن نهـــيـــرات وفـــيـــرة
تزيـد فـيـضـانا بمـيـاههـا الغـزيرة
أيتها البداءات الصغـيرة ، أنت عظيمة وقوية
مـؤسـسـة على قلب مـخلص ونعـمـة إلهيـة
أنت المسـتقبل ، أنت تعـملين للحيـاة الأبدية
أنت تـنالـين التـــاج بـالعناية الـربانـيــة

ج. ر. لوريل

تبدأ رواية داود بمقارنة بين آماله الجديدة التى قفزت أمامه فى مستهل حياته، وبين رفض شاول الملك العنيد الذى كانت حياته تنوى بسرعة، منحدرة نحو حقل جلبوع الذى خر فيه صريعا مضرجا بدمائه.

لم يسعد الحظ أشخاصا كشاول، فقد كانت له المواهب الممتازة، وله مظهر العظمة فى هيئته، حبته الطبيعة والظروف بمميزات جليلة، وكان ممكنا له أن يسجل لنفسه اسما بين أعظم الشخصيات فى التاريخ. كان عمله المجيد الأول تخليص يابيش جلعاد، مبررا لأصدقائه بأن يضعوا فيه أعظم الآمال، ولكن سرعان ما أفل نجمه، فإن جزعه وعدم صبره وإصراره على تقديم الذبيحة قبل وصول صموئيل، والقسم الذى أقسمه بلا مبرر، وتفكيره فى قتل ياناثان، وعصيانه الشديد للوصية الصريحة الخاصة بعماليق - هذه كلها برهنت على أنه لم يكن أهلا للمركز الخطير الذى شغله كوكيل الله، وأنه لذلك يجب أن يُعزَل عن الملك.

---

[١] «واختاروا داود عبده وأخذوه من حظائر الغنم» (مز ٧٨ : ٧٠) ، «فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته عن أن يملك على إسرائيل. املأ قرنك دهنا وتعال أرسلك إلى يسى البيتلحمى لأنى قد رأيت لى فى بنيه ملكا» (١ صم ١٦ : ١).

وفى الجلجال، أُعلِن إليه الإنذار الثانى بخلعه من المُلك. فى ذلك المكان، عند دخول أرض كنعان، دحرج إسرائيل عنه عار الغرلة بناء على أمر يشوع. وكان مجرد اسم ذلك المكان إعلانا للشرط الوحيد الذى يرتضيه الله لاستخدام الإنسان كآلة فى يديه. أما شاول، فلم يحاول أن يُخضع كبرياءه، أو يكبح جماح إرادته، أو ينزع شهوات الجسد. لقد دُعى إلى المُلك بينما كان يفتش على أُتُنِ أبيه الضالة، كما دُعى داود بينما كان يحرس غنم أبيه. ولكن شاول كان فيه الشىء الكثير من الوحشية كما كان فى إسماعيل، ولم يحاول هذا أو ذاك (إسماعيل أو شاول) إخضاعها. ولأن شاول رفض كلام الرب، رفضه الرب من المُلك (١ صم ١٥ : ٢٣ و ٢٦).

ومن الجلجال، ذهب شاول إلى بيته فى جِبْعَة فى مرتفعات بنيامين، بينما ذهب صموئيل إلى الرامة (نحو الجنوب قليلا) حيث كان بيته، وحيث قضى لإسرائيل عشرين عاما، وحيث كان يقيم بين الشعب أبا وكاهنا، وحيث كان يُعرَف بين البعيد والقريب كرجل الله (١ صم ٧ : ١٧؛ ١٠ ؛ ١٢). وهنالك أيضا حزن من أجل شاول. إنه لن ينحدر شخص شرير إلى الأسافل قبل أن يُحَذَّر ودون أن يُبكَى عليه. ولكن المقاصد الإلهية لا تنتظر حتى تجف تلك الدموع التى ترثى وتبكى. كما إننا يجب أن لا نتمسك بقبور الذين ماتوا إن كان روح الرب قد فارقهم، بل لنقم ولنتبعه حيث ينقل دائرة عمله من مرتفعات بنيامين الصخرية إلى النسيم العليل فى مرتفعات بيت لحم، وحيث يرشدنا إلى بيت يسى.

وفى اختيار كل شخص للوظائف السامية فى خدمة الله والبشر، توجد ناحيتان: الناحية الإلهية والناحية البشرية:اختيار الله ومقدار تأثير ذلك الاختيار فى التاريخ ... الدعوة السماوية وترديد الأرض لصداها.

إذن ، فلنتأمل فى: (١) أصل داود فى الله (٢) جذع يسى، أى الظروف المحلية كان يمكنها أن تؤثر فى الطفل (٣) برعم الزهرة البيضاء للحياة النبيلة.

(١) أصل داود فى الله :

دعى الرب «أصل داود» مرة فى نبوة إشعياء، ومرتين فى سفر الرؤيا، «قد غلب الأسد الذى من سبط يهوذا أصل داود ليفتح السفر ويفك ختومه السبعة» (رؤ ٥ : ٥). ومرة أخرى بقوة أكثر، نسمع بين الكلمات الأخيرة التى ينطق بها المخلّص قبل أن يسدل ستار الدهور:

«أنا يسوع أصل وذرية داود كوكب الصبح المنير» (رؤ ٢٢ : ١٦).

إن الفكرة التى يحملها معنى هاتين الكلمتين هى وجود أصل (جذر) قديم ممتد إلى مسافات عميقة فى الأرض، ويُنزع منه جذع قوى وغصون مورقة خضراء. وبناء على هذا التشبيه، يمكن اعتبار حياة داود بزوغا من حياة ابن الله قبل اتخاذه طبيعة الإنسان، أو نموذجا مصغرا أو فكرة سابقة لما سيكون عليه (ابن الله) ويفعله فى ملء الزمان. إن يسوع هو ابن داود، لكنه بمعنى آخر أبوه وجده، وهكذا نعود إلى اللغز القديم أن يسوع الناصرى هو فى وقت واحد رب داود وابنه (مر ١٢ : ٣٥ - ٣٧).

فى اختيار داود، نجد خمس كلمات عظيمة، تكشف لنا الأخيرة منها كثيرا من أعماق ذلك اللغز العويص.

(١) «انتخب الرب لنفسه رجلا» (١ صم ١٣ : ١٤): لا يستطيع أحد أن يعرف اليوم ولا الساعة التى يمر فيها الله للبحث عن الأوانى المختارة واللآلىء الحسنة. وفى وقت لا يخطر ببالنا، نكون تحت الفحص والاختبار والمراقبة فى أماكننا العادية اليومية، لكى يعلم إن كنا أهلا لمأموريات أخطر. فلنكن على الدوام مستعدين، ممنطقين أحقاءنا، مصابيحنا مشتعلة، شباكنا مُصلحة ومستعدة.

(٢) «وجدت داود عبدى» (مز ٨٩ : ٢): وهنا، نستطيع أن نحس برنة النغمة وعذوبة خاصة فى الصوت كما هو الحال فى كلمة «وجد» التى كُررت مرات فى (لو ١٥)، لقد «وُجد» داود قبل أن سأل عنه صموئيل بوقت طويل. ترى ما هى اللحظة التى «وجده» الله فيها؟ أكانت فى فجر أحد الأيام، عندما أخرج ذلك الصبى قطيعه من الحظيرة قبل شروق الشمس ليخرج به إلى المراعى؟ أم كانت فى صباح أحد الأيام، عندما هجم على الدب والأسد بإيمان الأبطال وأنقذ منهما الشاة المرتجفة؟ أم كانت فى عصر أحد الأيام، عندما تحركت فى قلبه أول فكرة عن مزمور الراعى الصالح وهو جالس يحرس الغنيمات التى عُهدت إليه رعايتها؟ أم كانت فى إحدى الليالى، عندما سمع حديث السماء الصامت يحدّث بمجد الله؟ ثم، ألم تكن هناك إجابة سرية مبهجة لتلك الدعوة الإلهية، كتلك التى رددها التلاميذ عندما وجدهم عند شباكهم وقال لكل منهم: «اتبعنى»؟

(٣) «واختار داود عبده» [أو ليكون عبده] (مز ٧٨ : ٧٠): لقد اختار الشعب شاول، أما الله

فاختار داود. وكان هذا سر قوته. فقد كان واثقا من أن مقاصد الله تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فوقه وتحته. وفى الأيام التالية، عندما نبذ شاول، وعندما عيّرته ميكال بسبب إسرافه فى حركاته، كان سنده الوحيد هو هذه الفكرة: إن الله هو الذى انتدبه (٢ صم ٧ : ٢١). عندما نستطيع أن نلمس صخرة اختيار الله، ونسمعه يقول: «هذا لى إناء مختار ليحمل اسمى»، عندئذ نصبح ثابتين لا نتزعزع.

(٤) «انتخب الرب لنفسه رجلا ... وأمره أن يترأس على شعبه» (١ صم ١٣ : ١٤): ليس أن يكون الاختيار مبنيا على الكفاءات البشرية، وليس ضروريا أن يُنال بالمساعى البشرية، فإنه من الله، هو الذى يضع وهو الذى يرفع. قد يحمَى غضب شاول وتثور ثائرته ويهدد، ولكن من خلال قوته المتداعية، بزغت قوة داود كما تبزغ الشمس من بين السحب، لأن الله أراد ذلك. إذن، فأعدّ نفسك لخدمة الله؛ كن أمينا، فينتخبك للحال، لأن التعيين لا يأتى من الشرق أو الغرب بل من فوق.

(٥) «قد رأيت [أو أعددت] لى ملكا» (١ صم ١٦ : ١): وهذه تحل كل مشكلة، فالعناية الإلهية التى تعد كل شىء، تسد كل حاجة وتُسكن كل اضطراب. يجب أن لا نستسلم للأفكار المزعجة عن مستقبل الكنيسة أو مستقبل بلادنا، فالله قد أعد كل شىء لمواجهة الأحداث والخطوب. ولعل الله أعد وعيّن الشخص المطلوب بعد أن وجده فى أحد الأحياء الحقيرة، أو فى كوخ أحد الرعاة، أو فى مسكن أحد الصناع المتواضعين. إلى الآن لا يزال السهم مخبأ فى كتانته فى ظل يده،[١] ولكن فى اللحظة التى تُعلَن فيها الدعوة يُطلَق فى الهواء.

(٢) جذع يسى :

لنحوّل أبصارنا قليلا لنتأمل فى المؤثرات التى عملت فى حياة الفتى داود. كانت الأسرة تعيش على ممتلكات الآباء التى أضاف إليها بوعز ثروة طائلة من موآب. ولعلها قد بدأت تتناقص بسبب ظلم واغتصاب الحامية الفلسطينية التى يظهر أنها كانت مستقرة فى تلك المدينة الصغيرة. فإننا نقرأ عن «الغنيمات» (أى الأغنام القليلة العدد) التى كان يتكون منها قطيعه، والهدية المتواضعة جدا التى أرسلها يسى لأبنائه عندما تجندوا للرب. ويبدو أن

---

[١] إش ٤٩ : ٢ .

[٢] مز ٨٦ : ١٦ ؛ ١١٦ : ١٦ .

الظروف التى ربى فيها يسى أباءه الثمانية وابنتيه كانت قاسية لا تتحمل أسرة كبيرة العدد كهذه.

إننا لا نسمع شيئا من بين شفتى داود عن أبيه، ولكنه يتحدث عن أمه مرتين ملقبا إياها «أمة الرب».[٢] لقد استقى منها مواهبه التى جعلته شاعرا فذا، وطبيعته الحساسة، وصفاته الروحية العميقة. كان أبوه ينظر إليه نظرة صبى صغير، فجعل منه حارسا لغنمه، ولم ير بأنه يستحق أن يدعَى للوليمة الدينية. أما أمه، فكانت تنظر إليه كابنها المحبوب، ولعلها هى أول من سمع مزاميره التى سحرت عقول البشر فى كل العالم وهدّأت نفوسهم. لقد أكرم كليهما كل الإكرام. وعندما خاف أن يمسهما أى جسيم بسبب علاقتهما به أثناء عاصفة اضطهاد شاول له، نقلهما وأودعهما إلى رعاية ملك موآب أرض جدته (راعوث).

لعل الصبى كان يدين ببعض الفضل فى حياته الروحية لمدارس الأنبياء التى أسسها صموئيل بعقله الراجح للإبقاء على معرفة الناموس فى إسرائيل. ويظهر أن هذه المدارس كانت تنعم بالكثير من مواهب الروح القدس، وأنها كانت بركة عظيمة لكل إسرائيل. ولا شك فى أن أبناء هذه المدارس كانوا يحجون إلى بيت لحم، ولعلهم قد راعهم ما وجدوه فى هذا الراعى الصغير من القداسة والبراءة. ولعله قد تعلم منهم كيف يجعل أغانيه على نظم الشعر، ويقرنها بالعود والرباب، كما تعلم منهم أيضا معرفة الكلمة الإلهية وتقديرها.

على أن الطبيعة كانت مهذِّبة له ومعلمة ورفيقة. فإن بيت لحم تقع جنوبى أورشليم، وعلى بعد ستة أميال منها على الطريق الرئيسى المؤدى إلى حبرون. وهى مرتفعة عن سطح البحر بألفى قدم على المنحدر الشمالى الشرقى لسلسلة جبال طويلة الامتداد ذات واديان عميقان على كلا جانبيها. يلتقى هذان الواديان فى نقطة بعيدة فى الشرق، ثم ينحدران إلى البحر الميت. على منحدرات هذه الجبال تُزرَع أشجار التين والزيتون والكروم بوفرة. وفى الواديين يزرع القمح بكثرة حيث كانت راعوث تلتقط الحنطة، وهذا سبب تسمية المدينة باسمها الحالى «بيت لحم» أى «بيت الخبز». أما الأراضى الجرداء المحيطة ببيت لحم، والتى تكوّن الجزء الأعظم من هضبة اليهودية، فإنها لا شىء فيها من الجمال، بل هى موحشة وخشنة. هنالك كان يخرج الرعاة كثيرا بقطعانهم، وهنالك بدأ داود يتعلم الكثير عن مناظر الطبيعة وعن القيادة الرعوية، مما نرى أثره ظاهرا فى حياته وفى أشعاره فيما بعد، كما نرى آثار الصباغة ظاهرة فى يدىّ الصباغ.

كانت هذه هى المدارس التى تلقن فيها داود العلم فى صباه، وهؤلاء كانوا أساتذته. على أن روحه كانت بصفة خاصة خاضعة لروح الله الذى كان يحنو على حياته الغضة، معلما، باعثا فيه الحياة، يسمو به إلى النبل والكمال، ويفتح أمامه كتاب الطبيعة وكتاب الرؤى والإعلانات، ويملأ قلبه ثقة كاملة كثقة قطيعه فيه. ولقد حق له - من الناحية الروحية ومن الناحية الطبيعية - أن يتغنى بعد ذلك بمدة طويلة قائلا:

لم تختف عنك عظامى

حينما صنعت فى الخفاء

ورقمت فى أعماق الأرض

رأت عيناك أعضائى يوم تصوّرت

(مز ١٣٩ : ١٥ و ١٦)

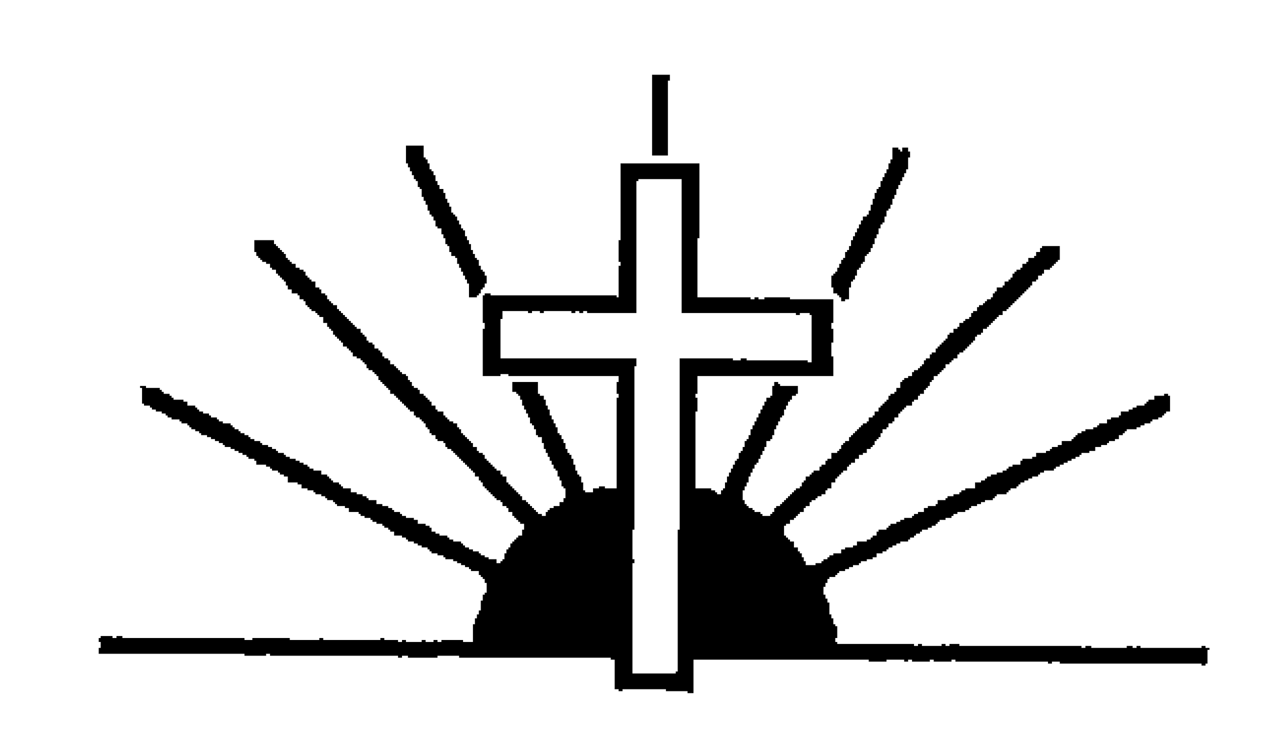
(٣) برعم الزهرة البيضاء للحياة النبيلة :

لم يتميز داود بطول القامة كأخيه أليآب الذى خلب عقل النبى الشيخ. ولكنه كان قوى العضلات، سريع الركض، خفيف القدمين كالظبى، كان يستطيع أن يقفز فوق حائط أو يهزم جيشا . كان يستطيع بسهولة أن يكسر قوسا من الصلب على ذراعه الصغيرة، وإذا ضرب بمقلاعه كان لا يخطىء المرء من أول حجر. كان جسمه أصغر من أن يمكنه من لبس درع الرجل العادى، ومع ذلك استطاع أن يفتك بالأسد والدب. وكانت علامات الصحة بادية على وجهه. كان يتميز بعينيه الزرقاويتين وجمال طلعته، بعكس رفقائه الذين كانوا أسود منه بشرة. كانت نفسه رقيقة الإحساس مما خلق فيه ملكة الشعر، ولكنها فى نفس الوقت كانت جريئة مقدامة، كما كانت له القدرة على القيادة. كان لباسه مجرد حلّة خشنة بسيطة. كان عتاده المقلاع، والعصا، والعكاز.

وإننا لنجد روحه منعكسة فى بعض مزاميره التى لابد أن تكون قد كُتبت فى ذلك الطور من حياته لخلوها من ضغط الأحزان والاضطراب ومخاصمة الألسن. بين هذه المزامير المزمور الثامن والتاسع عشر والثالث والعشرون والتاسع والعشرون. فى هذه المزامير يتعجب أشد العجب من أن يعنى الله بالإنسان ويفتقده (مز ٨). وفى نفس الوقت، نراه واثقا كل الثقة من أن الله راعٍ له (مز ٢٣). فيها نراه يتأثر تأثرا عميقا بمنظر السموات، وفى نفس الوقت نراه

مقتنعا بأن كلام الله إلهى (مز ١٩). عليها نراه مرتعبا مــن الســهوات والخطايا المستترة (مز ١٩). فيـهـا نراه ممتلئا رغبة للاشتراك فى تلك التسابيح العالمية الصاعدة من وحى الطبيعة، وفى نفس الوقت نراه واثقا من وجود بعض الأشواق داخل نفسه التى لا تزال تحن إليها لأنها فى غير مقدورها. كل هذه النواحى سنعود إليها للتأمل فيها فى مجال أوسع، لأنه لا يليق أن نتجاوزها وهى تسطع بنور لم تره الأرض ولم تشهده البحار مرة أخرى.

إيه أيها الصبى المبارك الطاهر الذى بلا لوم. أنت لا تدرى بأنك سـوف تموت وسط الأبواق المعلِنة ارتقاء ابنك سليمان العظيم إلى العرش، ولا تحلم بأن طبيعتك الصافية الناصعة البياض سوف تلوث يوما من الأيام بخطيئة شنيعة كالتى اقترفتها. ومع ذلك، فإن إلهك يحبك، وسوف تلقى علينا الكثير من الدروس كلما قلّبنا صفحات تاريخ حياتك، سواء كشاعر، أو مغنٍ على العود والرباب، أو جندى، أو طريد فى البرارى والجبال، أو ملك. وسوف نقرأها كلما قلّبنا هذه الصفحات فى النور الساطع من طلعة ابنك العظيم الذى ولد من نسل داود حسب الجسد، ولكن من الله بالقيامة من الأموات.



الفصل الثاني

«من ذلك اليوم فصاعدا» (١ صم ١٦ : ١٣) [١]

كانت للرب مهمة يريد أن يتممها
في أصغر أبناء منسى
فأتته الدعوة التى يعجز الكلام عن التعبير عنها
واستقرت إليه وصيته بما لم يخطر له على بال

ف. و. هـ. ميرز

إن حياة داود لتتميز بشكل عجيب فى أية ناحية اتجهت أنظارنا إليها. قد يفوقه إبراهيم فى الإيمان، وموسى فى قوة الشركة المركزة مع الله، وإيليا فى غيرته النارية المتقدة. ولكن، لم يكن أحد من هؤلاء متعدد المواهب كابن يسى.

قليلون هم الذين كانت لهم نواحى متباينة من الحياة مثله، فقد كان راعيا وملكا، شاعرا وجنديا، قائدا لشعبه وطريدا فى مغارات اليهودية، محبوبا من يوناثان ومضطهدا من شاول، مطارِداً للفلسطينيين يوما من الأيام ومشتركا معهم فى محاربة عدوهم يوما آخر. ولكنه فى كل هذه كان موهوبا بقوة ممتازة مع الله والإنسان، لا يمكن أن تعزى لحسن خلقه، أو جمال طلعته، أو المواهب النادرة التى تميزت بها طبيعته، أو القوة الروحية التى انفرد بها قلبه. قد يكون لكل هذه العوامل بعض التأثير فى بعث تلك القوة الممتازة، ولكننا لا نستطيع أن ندرك السر حتى نقرأ تلك الكلمات الخالدة التى تلخص لنا نتيجة ذلك اليوم التاريخى الذى يعتبر تاجا فى جبين السنوات الخفية فى مستهل حياة ذلك الشاب «وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا».

[١] «فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه فى وسط إخوته وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا».

(١) بدأ ذلك اليوم كأى يوم عادى :

لم يبشر به أى ملاك ببوقه، ولم يطل على الأرض أى وجه من السماء، والشمس أشرقت فى ذلك الصباح كعادتها على جبال موآب فبدت من بين السحب فى ألوانها الزاهية الخلابة. وعند شق الفجر باكرا جدا، كان الصبى فى طريقه لرعاية قطيعه فى المراعى الخضراء المبتلة بندى السماء. وكلما حميت حرارة الشمس، كانت تتراكم على نفسه الساهرة اليَقِظَة المسئوليات الكثيرة: كتقوية الضعيف، ومعالجة المريض، وجبر المكسور، وطلب الضال. وإن لم يجد ما يشغله من هذه المسئوليات، كانت نغمات أغانيه تجوب أجواء الفضاء، فقد كان «يحسن الضرب بالعود» (١ صم ١٦ : ١٦).

وإذ كان غارقا وسط هذه المشاغل الرعوية، إذا برسول يلهث ويأتيه فجأة، حاملا معه أخبار وصول صموئيل النبى إلى مدينته المتواضعة، وامتناع النبى عن التناول من الوليمة، التى أعدت فى وقت وجيز، إلا بعد حضور الراعى الصغير. وهذا ما جعل أباه يدعوه على الفور. ولا شك فى أن علامات الفرح والسرور كانت بادية على عينى ذلك الصبى، فإنه لم يسبق أن دُعِيَ بهذه العَجَلَة، إذ كان إلى الآن «الصبى الذى يرعى الغنم» (١ صم ١٦ : ١١). كانت كل الشئون العائلية لا تمت إليه بصلة، فقد كان أبوه وإخوته يدبرون كل أمورهم، وينعمون بمسراتهم، دون أن يحسبوا حسابا لذلك الأخ الأصغر الذى كان معينا لتخليد أسمائهم؛ وكان هو يتحمل كل ذلك بالصبر ، لأنه «لم يرتفع قلبه ولم تستعلِ عيناه. ولم يسلك فى العظائم ... بل هدأ وسكَّتَ نفسه كفطيم نحو أمه» (مز ١٣١ : ١ و ٢). ولكن، كم كان سروره عظيما أن يشعر بأن عقد العائلة لم تكتمل – فى نظر ذلك الرجل العظيم صموئيل – طالما كان هو غائبا. لهذا، فقد ترك غنمه مع الرسول، واتجه نحو البيت بأقصى سرعة.

عند وصول صموئيل إلى بيت لحم «قدّس يسى وبنيه» بغسلات وتطهيرات كثيرة ليعدّهم إلى الذبيحة التى دعاهم إليها (١ صم ١٦ : ٥). أما داود فلم يكن فى حاجة إلى شىء من هذه، لأن نفسه الطاهرة التى بلا لوم كانت مستقيمة أمام الله، وملتحفة بثوب القداسة الكاملة؛ لم تكن فيه أدناس تحتاج إلى التطهير.

فلنعش حياة الاستعداد الكامل، لكى نكون مستعدين لكل ما تأتينا به الساعة التالية. لتكن الروح فى شركة متصلة بالله. ليكن الثوب نقيا غير مدنس، لتكن الأحقاء ممنطقة، ولتكن المصابيح معدة. إن أمانتنا فى تأدية أعمالنا العادية فى حياتنا اليومية هى خير استعداد لأية دعوة عليا تفاجئنا.

(٢) كان هذا اليوم خلاصة تدريب سابق :

يجب أن لا نتوهم أن روح الله عمل في قلب داود في هذا اليوم فقط ولأول مرة. إن كنا نظن هذا، فنحن نجهل كل الجهل تدريب الله الخاص في هذه المناسبة، لأن الكتاب المقدس يميز دائما بين نعمة الروح القدس المجددة ونعمته التي تفرز للخدمة. فداود قد يكون موضع عناية الله منذ أيامه الأولى لإحيائه وتجديده. ولكن، لعله لم يختبر قبل هذا اليوم - موضوع بحثنا - عمل روح القدوس ومسحته الخاصة الممثلة في زيت المسحة والتي لا غنى عنها لنجاح أي عمل روحي.

لقد وُلد الرب يسوع المسيح من الروح القدس، ولكننا لا نقرأ عن مسحته للخدمة إلا في سن الثلاثين، عند خروجه من ماء المعمودية، وهو على عتبة خدمته العامة. وهذه المسحة هي التي يشير إليها في كلماته الافتتاحية في عظته الأولى «روح الرب عليّ لأنه مسحني» (لو ٤ : ١٨). لقد تجدد التلاميذ يقينا قبل الخمسين، ولكنهم كان يجب أن يبقوا داخل الأبواب المغلقة حتى ينالوا قوة من الأعالي لتجديد الآخرين. كثيرا ما نلتقي بأشخاص لا شك في أنهم أولاد الله، ولكنهم ليست لديهم قوة خاصة للشهادة للآخرين، ولا حرية للكلام، ولا قدرة للتملك على قلوب وضمائر الآخرين. إنهم يحتاجون إلى قوة خاصة، كما يحتاج السلك إلى الكهرباء، أو البارود إلى الشرارة. وبتعبير آخر، إن روح الله «فيهم» ولكنه ليس «عليهم». لقد رأينا بعضا من هؤلاء يتنبهون ويستيقظون ويطلبون تلك المسحة، ورأيناهم بغتة قد ابتدأوا يتكلمون بألسنة جديدة دون أن يستطيع أحد من البشر مقاومة الحجج التي يقدمونها عن الخطية والبر والدينونة العتيدة.

هذه المسحة المقدسة اللازمة للخدمة، لا يمكن أن ننالها ما لم يكن هنالك عمل سابق للنعمة في القلب. يجب أن تكون هنالك طاعة، تواضع، أمانة للواجب، تطهير من الخطية المعروفة، صلة كاملة بالله. يجب أن تنزل نار على ذبيحة المحرقة (الحياة المكرسة لله)؛ ولأن كل هذه الخطوات قد تمت من قبل في حياة داود بعمل الروح القدس، لذلك كان أهلا لهذه المسحة الخاصة.

أيها القارىء العزيز: ربما يكون الله الآن يُعدك لاختيار كهذا وأنت مختفٍ في حياتك المنزوية، بعيدا عن أية مسئولية من المسئوليات الخطيرة. فاحرص على إطاعة أقل دعوة من الله، سواء تطلّبت منك أن تؤدي أي عمل، أو تتحمل آلام، لكي تكون مستعدا لتلك اللحظة الذهبية التي تحني فيها رأسك لتلك المسحة فجأة.

(٣) وهذه المسحة تمت على يد صموئيل :

لقد أدى النبى خدمات جليلة وكثيرة لبلاده، ولكن عنايته الفائقة بهذا الشاب قد فاقتها كلها أهمية. هو الذى أنشأ مدارس الأنبياء، وإليه يُعزَى الفضل فى التأثير على حياة شاول فى بداءتها. إذن، فقد كان أبناء بيت يسى البواسل معروفين لديه تماما - على الأرجح - عندما تلقى الأمر الإلهى لمسح أحدهم عوضا عن شاول.

وإذ أخذ عجلا معه، دخل شارع بيت لحم الوحيد الطويل، ودعا شيوخ المدينة إلى الذبيحة، لكى لا يثير الشك أو الغيرة فى نفس الملك السيء الطبع الذى لم يكن ليتردد عن قطع رأسه لو أنه عرف الغاية الحقيقية من زيارته.

وعندما وصل داود إلى المدينة، وقع نظره على منظر غريب. فقد وجد أباه وإخوته السبعة، ولعلهم كانوا ينتظرونه فى بيتهم الأثرى على أهبة الاستعداد للذهاب جميعا إلى الوليمة العامة التى دُعِىَ إليها وجوه المدينة. وأحس بأن أليآب وسائر إخوته كانوا بكل جهد قد كبحوا جماح أنفسهم عن أن يمدوا إليه يد الإيذاء، أو يرشقوه بسهام كلماتهم النارية. إنهم لم يكونوا يترددون عن التعبير عن حنقهم عليه واحتقارهم إياه فى أى وقت آخر. أما الآن، فقد أحسوا قداسة الجو تمنعهم عن هذا.

وحالما دخل، وقد توردت وجنتاه بسبب الإعياء، وكانت علامات الملكية تشع من وجهه، وعلامات الذكاء من عينيه، وعلامات الهيبة من هيئته، قال الرب لصموئيل: «قم امسحه لأن هذا هو» (١ صم ١٦ : ١٢). فأخذ صموئيل قرن الدهن الذى أحضره معه من نوب، وسكب ما فيه على رأس الشاب الذى كان إذ ذاك فى حالة ذهول.

ويظهر أن الواقفين لم يدركوا ما كان يرمز إليه هذا العمل، وإلا لكان يسى قد عامله بأكثر وقار واحترام ليلة اشتباكه فى الحرب مع جليات، ولكان أليآب قد خاطبه بأكثر احتشام. ولكن الأرجح أن داود أدرك الأمر. ويخبرنا يوسيفوس أن النبى همس فى أذنه وأخبره معنى العملية التى أجراها. هل اقترب فم النبى من أذن الشاب وهمس فيها قائلا: «إنك ستكون ملكا»؟ إن كان هذا صحيحا، فيا لهذه الكلمات من تأثير عظيم على نفس الشاب فى الأيام التالية، ويا له من تأثير عميق فى تكوين شخصيته، وفى إعداده للغاية العظمى التى تنتظره.

كان انسكاب الزيت العلامة المنظورة على أن الروح القدس حل بقوة على ذلك الراعى

الشاب. أما فى حالة المسيح، فلم يكن هنالك زيت، بل كان هنالك، عوضا عنه، ظهور حمامة استقرت برقة فى وكرها. وفى حالة التلاميذ يوم الخمسين، لم يكن هنالك زيت، بل ألسنة من نار استقرت على كل رأس منحنية. وعلى مر الأيام، صارت هذه العلامات المنظورة تؤدّى بعض الأحيان بشكل آلى، وهذا يبعدها عن وضعها الأصلى. يجب أن نؤمن أننا عندما نتمم شروط التواضع والإيمان، ننال ملء الروح القدس (غل ٣ : ١٤).

بعد ذلك اليوم التاريخى الخالد، رجع داود إلى خرافه. ولكنه لابد أن يكون قد فكر مرارا على مر الأيام، متى تحين الساعة التى يتم فيها الأمر، متى تحين الفرصة التى يُظهر فيها قوته الجديدة ويستخدمها فى خدمة إلهه. كان لابد أن يتعلم أننا أحيانا نتقوى بكل قوة لتمكننا من الصبر والاحتمال كمقدمة للأعمال العظيمة، إننا يجب أن نصارع الأسد والدب على جبال بيت لحم أولا حتى نستعد لمقابلة جليات فى وادى البُطْم.

(٤) وكان يوما للرفض :

لقد عبر سبعة من أبناء يسى. كم من حكماء كثيرين حسب الجسد لم يُدعوا، كثيرين أقوياء، كثيرين شرفاء. ولكن الله اختار حينئذ - كما دواما - الضعفاء والأدنياء والمزدرَى.[١] «سبعة»، وهو عدد الكمال، فأولاد يسى السبعة يمثلون الكمالات الجسدية. وهذه يجب أن تُبعَد لئلا تفتخر فى حضرة الله. إن المدرس قاسٍ فى تعليمه، ولكنه محتم. إن كنت لا تستطيع احتماله، فاعلم بأنك قد تصبح رئيسا ليهوذا كأليآب، ولكنك لن تستطيع أن تكون محبوب الله (أى ٢٧ : ١٨).

هذه المسحة التى أجريت لداود فى الخفاء (وهى أولى المسحات الثلاث التى مُسح بها،[٢] ترمز إلى فرز المسيح فى المقاصد الأزلية. لقد أُفرِزَ كملك الدهور، ولو كان مرذولا من الناس، محتقرا من إخوته، ولا صورة له ولا جمال. إلى ذلك الوقت، كان يبدو أن هنالك حواجز كثيرة تحول دون إتمام الإعلان الذى وعد به الآب، ولكن لابد أن تجثو له كل ركبة ، ويعترف كل إنسان بأنه رب. وفى نفس الوقت هو ينتظر، ينتظر حتى تحين ساعة النصرة العامة، ينتظر حتى تُرَى التيجان الكثيرة التى للملكوت المعيَّن موضوعة على تلك الرأس التى كُللت بإكليل الشوك.

---

[١] ١ كو ١ : ٢٧ و٢٨ .

[٢] انظر الفصل التاسع عشر.

الفصل الثالث

استدعاؤه للقصر الملكى (١ صم ١٦ : ١٨ و ١٩) [١]

خــدم أمــام الملك طاعــة وخــضــوع
وتمم كل خــدمــة بروح النبل والخــشــوع
التى تعظّم شــأن أحــقــر الأعــمــال

تنيسون

يظن البعض أن هذا الاستدعاء الذى نحن بصدده، تم بعد موضوع تأملنا فى الفصل السابق، وبعد حادثة قتل جليات، اعتقادا منهم بأن هذه المناسبة (قتل جليات) كانت هى أول مرة يمثُل فيها داود أمام شاول. ولعل السبب فى هذا الزعم يرجع إلى عدم اعتراف شاول بأن ذلك البطل الذى مثُل أمامه وفى يده رأس قائد الفلسطينيين هو نفس موسيقيّه السابق.

ولكننا لو أخذنا بهذا الرأى لواجهتنا هذه المشكلة، وهى:

كيف تجاسرت حاشية شاول أن تقدم لسيدها رجلا قد أثار سخطه وغضبه وغيرته من قبل (ص ١٨ : ٩)، أو لماذا استدعى الأمر كل هذا اللف والدوران فى الكلام لوصف شخصية ذلك المغنى الشاب (ص ١٦ : ١٨). يقينا إنه كان يكفى أن يُذكر ما فعله فى وادى البطم لتقديمه للملك. إذن، فنحن نستنتج أن هذا الاستدعاء يجب أن يأخذ مكانه فى نفس الوضع الذى يشغله منذ سُطر هذا الإصحاح، أى أنه تم قبل حادثة قتل جليات.

لقد رجع داود إلى غنمه بعد مسحه. وعندما استدعاه شاول، بناء على مشورة حاشيته، ليطرد عنه روح الكآبة والحزن، كانت هذه الكلمات التى وصفه بها فى رسالته إلى

---

[١] «فأجاب واحد من الغلمان وقال هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البيتلحمى يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه. فأرسل شاول رسلا إلى يسى يقول أرسل إلىّ داود ابنك الذى مع الغنم».

يسى أبيه «أرسل إليّ داود ابنك الذى مع الغنم». وإن رجوعه إلى غنمه لرعايتها، وإتمام واجباته اليومية العادية بكل أمانة، وانتظار الله حتى يتمم ما أخبره به صموئيل - كل هذا يدل على بساطة أخلاق ذلك الشاب ونقاء صفاته. هكذا فعل المسيح عندما ترك الهيكل إذ كان صبيا (وهو يلتهب غيرة، ويريد أن يكون فيما لأبيه)، لكى يكون خاضعا لوالديه، ويقضى السنوات الطوال فى عمله المتواضع فى حانوت النجار.

لقد أعطانا أحد معاصريه صورة مختصرة لأخلاقه كما كانت تبدو فى تلك الفترة للعين المجردة. فإن واحدا من غلمان شاول قال عنه: «هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البيتلحمى يحسن الضرب، وهو جبار بأس، ورجل حرب، وفصيح، ورجل جميل، والرب معه». هذه الصفات الخمس تمكننا من تكوين صورة دقيقة لذلك البطل الشاب الذى كانت شهرته أكثر ذيوعا فى سائر أنحاء البلاد.

(١) ضارب العود :

كانت له مَلَكَة الشعر، رقيق الإحساس نحو الطبيعة، سريع التأثر بمنظر الجبل والوادى، وبمؤثرات الفجر والمساء. وفوق ذلك، فقد كانت له قوة التعبير عن إحساساته، سواء بالكلام أو بالغناء. ولا زالت مزاميره تذكّرنا إلى اليوم، وستظل كذلك ما بقى إنسان على وجه البسيطة، بالمراعى الخضراء التى كان يرعى فيها غنمه، والينبوع الصغير المجاور لبيت لحم الذى كانت تشرب من مياهه الصافية، والطرق السهلة التى كان يختارها ليقودها فيها، والأماكن الصخرية التى كانت تتعرض فيها لخطر الدب والأسد.

كتب أحد عظماء الشعراء منذ عصر قريب عن داود، وتخيله يردد - وهو يعزف على قيثارته - نداءاته لغنمه، أغنية كروم الخريف، نشيد حفلة الزفاف المبهج، لحن الجنازة المقبض، تسبيحات اللاويين أثناء تأدية الفرائض والطقوس الدينية، موسيقى شبان بيت لحم لدى عودتهم من صد إحدى غارات الأعداء. ونحن يجوز لنا أن نضيف إلى هذه، قدرته المدهشة على تصوير سكون الفجر الرهيب حيث لا يُسمَع صوت، لا قول ولا كلام، وذلك قبيل شروق الشمس البديع، وتصوير سكون الليل البهيج. وإلى هذه أيضا، يجوز لنا أن نضيف وصفه البديع للرعود التى عمت فلسطين بأصواتها المزعجة من البحر المتوسط فوق أرز لبنان إلى برية قادش السحيقة فى قلب الصحراء، حتى ينتهى الرعد المزعج جدا بالأمطار الغزيرة والطوفان بصفاء الجو البديع الذى فيه «الربّ يبارك شعبه بالسلام» (مز ٢٩ : ١١).

لم تكن المزامير معروفة قبل داود. إن جمالها الغنائى ورقتها العذبة. وأوزانها الشعرية وتهليلاتها (هلّيلويا) الوافرة، ومراثيها المحزنة، وتعبيرها – الذى لا يبارى – عن حالة النفس بين الأفراح والأتراح، ومزجها بين الطبيعة والتقوى، وإشاراتها إلى حياة البشر وحياة العالم كما يراها الله – كل هذه العوامل التى نجدها فى المزامير، والتى جعلتها محبوبة لنفوس القديسين فى كل العصور، ترجع إلى اتصال نفس مغنى إسرائيل الحلو بالسماء، وانسكاب موهبة الشعر على هذه النفس الطاهرة. فلا غرابة إذن إن قال عنه أحد شبان شاول إنه «يحسن الضرب». إن المزامير التى وضعها فى تلك الأيام الأولى من حياته والخالية من كل آثار الاضطهاد والظلم والشعور بالخطية التى نفذت إلى نفسه فيما بعد – هذه المزامير قد قصد بها أن تُنشد فى كل أرجاء العالم، لتعمل فى نفوس البشر بنفس التأثير الذى فى نفس الملك الذى قيل عنه إنه عندما كان داود يأخذ العود ويضرب بيده، كان شاول يرتاح ويطيب (ع ٢٣).

(٢) البطل الشاب :

لقد كانت هنالك فرص متعددة لتمرين بسالته وشجاعته، فالحدود الفلسطينية لم تكن بعيدة عن مدينته. ولعل تلك الحادثة التى حدثت فى الأيام المتعاقبة قد تكررت مرارا، وهى مخاطرة رجاله الثلاثة بحياتهم، وحمل الماء من بئر بيت لحم التى عند الباب إليه. وكم من منازعات قامت بين رجال بيت لحم والأعداء المتاخمين، الذين طالما حاولوا اغتصاب الكروم والقمح حال نضج المحصول. كل هذه العوامل أدت إلى أن يكون داود «جبار بأس ورجل حرب». ولعل الظروف اضطرته أحيانا أن يقف وحيدا أمام جماعة من لصوص الغنم وقد اعتزمت أن تنقض على الحظيرة.

وهذا يخبرنا كيف إنه كان يجب عليه أن يكون متيقظا، حذرا من الوحوش التى كانت ترتاد جبال اليهودية – الأسد بأنيابه الكاسرة، والدب بهجماته القاتلة. لم تستطع تلك الوحوش المفترسة أن تدخل الرعب إلى نفسه؛ فقد ضرب الأسد والدب وأنقذ الحملان الوديعة من فمها، وأمسكهما من ذقنهما وقتلهما. لقد كان فى استطاعته أن يحنى بذراعيه الصغيرتين قوسا من نحاس،[١] ويستعمل سيف جليات بكل سهولة، كما كان فى استطاعته أن يقتل وحشا مفترسا بعكازه، ويضرب بمقلاعه فيصيب المرمى من أول حجر. حقا، إنه كان صورة مصغرة من شمشون، وكان يفتخر بقوته البدنية.

---

[١] مز ١٨ : ٣٤ .

ولكنه كان آخر من يفكر فى أن ينسب أعماله العظيمة لقوته البدنية، فقد تعلم بالإيمان أن يتكل على قوة الله. ألم يكن هو عبده، الذى اختاره لمأمورية عظمى، ودعاه ليشهر حربا طاحنة مع الغلف؟ قد يكون طفلا، ولكن الله من فمه بعث قوة لتسكيت عدو ومنتقم (مز ٨ : ٢). قد يكون رضيعا، ولكن الله سلطه على صنعة يديه. اصغ إلى اعتزازه بقوة الله:

بك اقتحمت جيشا
وبإلهى تسوّرت أسوارا
الإله الذى يمنطقنى بالقوة
الذى يجعل رجلىّ كالإيّل
الذى يعلم يدىّ القتال
تصرع تحتى القائمين علىّ

(مز ١٨ : ٢٩ - ٣٩)

بالإيمان قهر ممالك، سد أفواه أسود، نجا من حد السيف، صار شديدا فى الحرب، هزم جيوش غرباء.

(٣) فصيح فى الكلام :

فى دراستنا القادمة، سوف تتبيّن لنا فطنة داود وذكاؤه. كان غاية فى الذكاء إذا أعطى مشورة أو رسم خطة، كما كان سريعا فى التنفيذ. كانت له معرفة بالأوقات، بالقلوب البشرية، بالسياسة الرشيدة. وكان يعرف تماما كيف يعمل ومتى يعمل. كان صريحا مع أصدقائه، كريما مع أعدائه، ثابتا فى صداقته، هادئا فى وقت الخطر، صابرا وقت التعب والمشقة، باسلا مقداما. توفرت لديه كل العوامل التى تجعل منه قائدا شعبيا. كانت له الخبرة الكافية بإدارة شئون المملكة، وبإدارة الدفة فى ساحة الوغَى. عرف كيف يقابل كل الطوارىء والخطوب كلما جدّت. وهذا بلا ريب يُعزَى لراحة نفسه فى الله. أما أخطاؤه الشنيعة التى ارتكبها فقد تُعزَى لاستسلامه للعاطفة والشهوة، لإهماله عادة الاقتراب من الله يوميا واستشارته قبل أية خطوة هامة. وفى أحد مزاميره الأولى، نجد تصويرا بديعا لحالته النفسية:

إليك ألتجىء لأن الله ملجأى
يا قوتى لك أرنم لأن الله ملجأى

(مز ٥٩ : ٩ و ١٧)

عندما يعيش البشر هذه الحياة، لا يعسر عليهم أن يكونوا فصيحين فى الكلام، حصيفين فى المشورة.

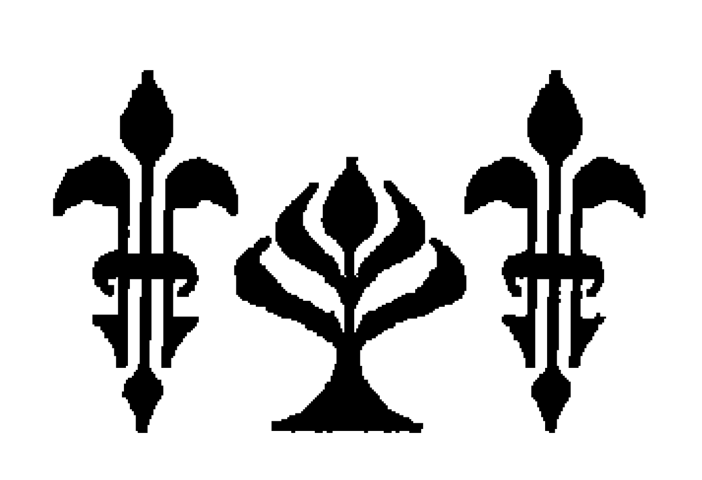
(٤) شخصيته الجذابة :

كان هو داود المحبوب. أينما تحرك انبعثت أشعته الجذابة. فشاول خضع له وذاب قلبه أمامه، ورجال البلاط الملكى أحبوه، وميكال ابنة شاول أحبته، ونفس يوناثان ارتبطت بنفسه، ونساء إسرائيل نسين ولاءهن لشاول عندما رنمن للبطل الشاب الذى وجدنه حسن الصورة، ورجال الجيش - المشهورون بالخشونة والفظاظة - ارتضوا أن يخاطروا بحياتهم إجابة لرغبته ليستقوا له من بئر بيت لحم. هكذا كان كل أيام حياته، يبسط نفوذه القوى بين البشر رجالا ونساء. فأبيجايل الجليلة اغتبطت بأن تغسل أقدام عبيده. وأخيش قال عنه إنه ملاك الرب، وإتاى الجنى تعلق به فى منفاه. وشعبه تسلل إلى المدينة إذ رأوه يبكى أبشالوم. وإذا ما تكلم استمال قلوب رجال يهوذا كرجل واحد لشعورهم بالخيانة وإبطائهم فى الترحيب به وإرجاعه (٢ صم ١٩ : ١١ - ١٥).

وإذ كان محبوبا من الله والناس، يفيض قلبه محبة، فقد استطاعت تربة نفسه أن تقدم ثمار المحبة وافرة لإشباع العالم، ولكنه أيضا كان يستطيع تحمل أقسى ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله من الآلام.

(٥) وكان الرب معه :

لم يتردد عن أن يدعو نفسه «عبدك»، ويعترف بأنه عرضة للسهوات والخطايا المستترة، التى طلب من الله أن يبرئه منها قبل كل شيء. إنه نظر إلى الله باعتباره صخرته، فاديه،راعيه، مضيفه فى بيت الحياة، معزّيه فى كل الكروب. فى التعب والإعياء وجد المراعى الخضراء، فى العطش وجد مياه الراحة، فى الارتباك والحيرة وجد الهُدَى والإرشاد، وفى الخطر وجد الملجأ الحصين. كل ذلك وجدته نفسه فى إلهه. وهو أدرك أن كلمة الله كاملة، ولو لم يعرف منها إلا القليل، وأدرك أنها مستقيمة ونقية. وإذ كان يرددها بنفسه تحت سقف الطبيعة العظيمة، رَدّت نفسه، فرّحت قلبه، أنارت عينيه، وبدت لديه أحلى من العسل وقطر الشهاد. جعل الرب أمامه فى كل حين لأنه عن يمينه، فلم يتزعزع. لذلك، سُرَّ قلبه.



الفصل الرابع

وبضدها تتميز الأشياء (١ صم ١٧ : ١١) [١]

لقـــــد طرحت بتلك المفـــــاتيح
التى كـــان ممكنا أن تـفـــتح أمــــامى
أبواب النهــــــار الذهبــــيـــــة
وأمــسكت بمفــاتيح الظلمــة الحــالكة
إننى أســـتمع إلى الحـــاصـدين يتـــغنون
هلمــــــوا إلى حـــــصـــــاد الله
لعلى أخـــتــــار الذهاب مـــعــــهم
ولكننى اخـــــتـــــرت الوقـــــوف
عـلى أبــواب ظــلام الـلـيــل الدامــس

ج. أويل

سبق أن بيّنا بأن كاتب هذا السفر قصد أن يوضح الفارق العظيم بين شاول وداود. لقد رسمت صورة شاول بألوان قاتمة، لكى يتبيّن بأجلى وضوح جمال الملك المعيّن من قبَلِ الله.

بدأ ملك إسرائيل خطوته الأولى فى الابتعاد عن الله، عندما سمح لنفسه بالابتعاد والتهور، وقدّم الذبيحة فى مخماس قبل وصول صموئيل. وكانت الخطوة التالية – فى نفس الاتجاه – عندما انفجر بركان غضبه على يوناثان ابنه بسبب تعديه تعليماته الخاصة بالامتناع عن تناول الطعام. أما الخطوة الأخيرة، فتمت حين عصى أمر الله الصريح على لسان نبيّه وعفا عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر وباقى الغنائم.[٢] لأنه رفض كلام الرب، سلمه الله إلى قلبه الشرير. ومن تلك اللحظة، بدأ نجمه يأفل، وصار ينحدر بسرعة نحو منحدرات جلبوع المظلمة. ذلك لأن الله يسحب من القلب العاصى المتمرد قوته الحافظة. وإن كان روح الله القدّوس لا يعود يبقى فى القلب، فإنه يصبح فى الحال فريسة للأرواح النجسة ومسكنا لها.

---

[١] «ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى ارتاعوا وخافوا جدا».

[٢] أجاج: ملك عماليق الذى أمسكه شاول حيا، راجع ١ صم ١٥ :٥ – ٩ (مكتبة المحبة).

وهذا يذكّرنا بالكلمات المرعبة التى يصف بها إشعياء خراب أدوم (إش ٣٤ : ١٤ و ١٥).

تلك كانت حالة قلب شاول. وكما إنه لم يستحسن أن يبقى الله فى معرفته، فقد أسلمه الله إلى ذهن مرفوض ليفعل ما لا يليق (رو ١ : ١٨).

ولنتأمل الآن فى بعض النواحى فى أفول نجم شاول المحزن، لكى تتضح لنا جليا بعض الصفات البارزة فى حياة ذلك الراعى الشاب.

(١) روح الله فارقه :

لقد تخيله أحد المفسرين وسط سكون خيمة سوداء، مرت أيام لم يسمع فيها أى صوت من هذه الخيمة، تسودها ظلمة قاتمة، وفى داخلها جلس شاول مستندا إلى العمود المتوسط دون حركة أو كلمة، وبلا شهية للطعام، يرتعش لحظة لأول نغمة موسيقية، ثم يعود فاقد الحس والإدراك.

لعل مفارقة روح الرب له تشير إلى ذلك الاستعداد الخاص الذى حل عليه من قبل بقوة لإعداده للمُلك. لقد كان يتمم وظيفته الملكية دون تغيّر فى حياته وفى قلبه (١ صم ١٠ ؛ ١١ : ٦). وبسبب عناده وعصيانه، خسر هذا الامتياز الملكى. لقد انطفأ النور من قلبه وصار رجلا عاديا.

لا يمكن أن يوجد شيء فى هذا العالم، أو العالم الآتى، أشد رعبا من انسحاب الله عنا، فإنه يسبب هلاك النفس والجسد. لأن وجود الله معنا، هو القوة الوحيدة لغلب الشر وعمل الخير. ارفع الشمس من وسط النظام الشمسى، تجد كل كوكب قد خرج عن فلكه وسار على غير هدى واصطدم بغيره وتحطم وتناثر نحو الهاوية. هكذا عندما يبتعد الله عنا، تتمرد كل قوة فى النفس. يا لها من مرارة عندما يدرك أى امرىء مقدار المصيبة التى حلّت به، ويصرخ مع شاول: «قد ضاق بى الأمر جدا، لأن الرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام» (١ صم ٢٨ : ٥).

إنه لأمر خطير جدا أن نسائل أنفسنا عما إذا كنا نقاوم روح الرب. لأننا إذا ما قاومناه، استحالت حياة السلام والفرح إلى جحيم مقيم. فاحذر كذلك من أن تعصى أوامر الله. اعرف اليوم ما هو لسلامك، لئلا يختفى عن عينيك إلى الأبد، ولئلا تهاجمك تيارات جارفة من الغيرة والحسد والخزعبلات والحنق والغضب.

على أن الحال مع داود كانت على العكس من هذا تماما، فقد كان الرب معه. وقد استطاعت عينا إيمانه الصافيتان المستنيرتان أن تريا الله الحى بجانبه، وأن تدركا بأنه أقوى من جليات الجبار الذى كان يفتخر كل يوم متعظما على صفوف إسرائيل. ألم يخلّصه الله من مخالب الأسد والدب؟ ألم يقف بجانبه حقا وفعلا حينما جلس على العرش وفى ساحات الوغى؟ لقد هطل ندى البركات الإلهية على رأس ذلك الشاب ، ونور حضرته ملأ قلبه وشع من عينيه. إنه لم يعتقد بأن روح الله كان مجرد موهبة للإعداد للخدمة، بل كان يراه حلول الله الدائم فى النفس والقلب.

(٢) وبغتته روح ردىء من قِبَلِ الرب :

قد تبدو الفكرة هنا أن الله تحيط به الأرواح، بعضها صالح وبعضها ردىء. وأنه إذا ما تكلم، أسرع الكل لتنفيذ أمره، خصوصا وإننا نرى فى (١ مل ٢٢ : ١٩ - ٢٣) أن ميخا يتحدث بنفس اللهجة وبنفس المعنى فى ساعة محنة آخاب. لكن هذه الفكرة لسيت مستساغة. والأفضل أن نقول بأن الله يسمح للأرواح الشريرة بأن تنقض على النفوس التى رفضته كما ينقض النسر على الفريسة التى فارقتها الحياة. ويجوز لنا أن نعبّر عن هذا المعنى بتعبير آخر، ونقول إن الله يقصد دائما أن يستخدم كل خليقته أحسن استخدام، ولكننا نحن الذين نمتص السم من الدسم، ونحوّل النور ظلاما، ونبدّل الزهور التى تتساقط من بين يديه إلى نار ملتهبة تحرق الجسم.

لا تشك قط فى صلاح الله، ولا تشك فى أنه يرسل الأرواح الصالحة لكى تصد البشر عن إتمام مقاصدهم وترشدهم إلى نور الحياة. ولكننا عندما نتمرد على الله، يظهر كأنه قد بدأ يكون عدوا لنا ويحاربنا . والحقيقة إننا إذ سبق لنا أن سرنا فى تيار النعمة الإلهية، فنحن الآن نقاوم هذا التيار بصعوبة، وإذا ما تمادينا فى مقاومته، عرضنا أنفسنا للخطر.

مع الأعوج يظهر الله نفسه ملتوٍ (٢ صم ٢٢ : ٢٧)، ومع المتمرد فإن ملائكته، الأرواح الصالحة، تعمل على إيقاظ الضمير، وروح العرفان بالجميل، وذكريات الماضى، والاقتناع بتأدية الواجب. وهذه العوامل كلها، التى قُصد بها أن تسمو بالإنسان وأن تعمل على خلاصه، تقاومه وتمنع تقدمه كعدو لدود. كل هذه العوامل تصارعنا، أو بالحرى نحن نصارعها فى

ظلام الليل البهيم الذى لا نميز فيه الصديق من العدو. هكذا، عندما صمم يهوذا نهائيا على تسليم المسيح، كانت نفس كلمات المسيح مقسّية قلبه وختمت على هلاكه.

أما داود، فكان روح الله على الدوام يعينه ويعضده. كان يعيش ويسير فى شركة كاملة مع غير المنظور. وكلما هبطت على نفسه مؤثرات السماء البهيجة، بعثت فيها المحبة والإيمان كنغمات الموسيقى التى تبعثها من قيثارة الريح كل نغمة تهب عليها.

(٣) اضطراب نفسية شاول وشذوذه :

يبدو أن هدوء نفسية شاول لدى سماعه نغمات الموسيقى، كان مظهرا لوجود خصومة بينه وبين الله، فقد صار عديم التناسق مع دائرة الكون التى مركزها الله. من المستحيل تعريف الموسيقى ووصفها، فقد كانت نغماتها العذبة تقف حائلا دون الخطية من أن تمس شاول، وهى صدى الأبدية، هى رذاذ من أمواج النور والمجد تتناثر على عالمنا، هى نغمة اللانهائى. إذن، فالموسيقى هى التعبير الطبيعى عن الحياة الكاملة والسلام الكامل فى السماء. وهنالك – فى السماء – يضرب المغنون على أعوادهم، هنالك يرنم المفديون والممجَّدون ترنيمات جديدة، هنالك يعبِّر القديسون عن تناسقهم الكامل مع طبيعة الله ونظام الكون بنغمات موسيقية شجية متناسقة. ومع الإحساس الدقيق المكتمل، الذى لا يمكن الحصول عليه إلا فى حالة الامتزاج مع إرادة الله وقصده وحياته، تتكشف لديه كل الأشياء التى تسبِّح قائلة: «هلِّيلويا»، ويضطر أن يردد صدى نغمات التسبيح إذ تنتقل إليه عدوى ذلك الجو الطاهر المقدس.

كان شاول لا يدرك شيئا من كل هذا، فقد كانت هنالك خصومة قائمة بينه وبين الله، ولذا كان هناك شذوذ (أو تنافر أو نشاذ أو عدم تناسق) فى قلبه وفى حياته. وحالما كانت نغمات الموسيقى تقع على أذنيه، تذكِّره بنفسيته السابقة الفاضلة، وتضع تعويذة على عناصر الشذوذ فى نفسه، محوِّلة إياها إلى هدوء واستقرار. وكلما سكتت تلك النغمات، عادت الحالة إلى ما كانت عليه. نعم، هذه هى الحال على الدوام. فإنك إن كنت لم تحصل على الفداء، إن كنت لم تصطلح مع الله بالمسيح يسوع، فإنك فى حالة عداوة، بالأعمال الشريرة والطبع الداخلى. ولذلك لا يمكن أن يكون هنالك توافق بينك وبين الكون المحيط بك. إن الفنون الجميلة، والموسيقى، ومشاغل الحياة اليومية، ونواحى النشاط فى الحياة الاجتماعية، والممارسات الدينية، هذه كلها قد تفعل ما كانت تفعله قيثارة داود لشاول لإيجاد حالة هدوء وقتى وتوافق مع الجو المحيط بك، ولكن هذه الحالة وقتية ، فحيثما بطل المؤثر عادت حالة الشذوذ كما كانت.

أما داود – من الناحية الأخرى – فقد كانت القيثارة علامة النفس المستقرة فى الله، إذ كانت كل الأشياء له، وكل شيء تحدّث إلى نفسه عن النغمات التى تهواها، الكائنة فى العالم غير المنظور الأبدى. ولأن روحه كانت متناسقة كل التناسق مع طبيعة الله ومع الكون المحيط به، لذلك أمكن أن تشع المؤثرات التى تهدّيء وتسكّن الآخرين. وهذا قد يفسر تأثير الموسيقى فى كل العصور على أمراض النفس. فأليشع استدعى ضاربا للعود ليهدّيء نفسه المنزعجة. ويخبرنا سنيكا أن فيثاغورس كان من عاداته أن يسكّن اضطراب نفسه بقيثارة. وفيليب الخامس، ملك أسپانيا، كانت تخف عنه أحزانه المبرّحة لدى سماعه المغنّى الشهير فرينللى. لهذا، فقد حق لأتباع شاول أن يطلبوا منه، فى إحدى نوبات شدّته، السماح لهم بالبحث عن رجل يحسن الضرب على العود.

وذلك التأثير الذى كان لداود على شاول، هو مثل للتأثير المماثل الذى نستطيع أن نفعله فى النفوس المنزعجة والمتعَبة التى تحيط بنا. لنقبل القاعدة التى وضعها الله من جهة ناموس المصالحة. لنقف تحت الصليب الذى هو مركز المصالحة ومركز البرء من شذوذ الخطية إلى أن نصبح فى حالة تناسق مع هذا الصليب، ولنخرج لحث الآخرين على المجيء لذلك المركز أيضا، حتى يصطلحوا مع الله، ويتعلموا سر ذلك السلام الذى تحدّث عنه يسوع ليلة موته ويوم قيامته من الأموات.

(٤) عدم إيمان شاول :

من المستحيل أن يوجد الإيمان إذا كانت هناك خصومة بين الإنسان والله. لأن الإيمان هو زهرة صحة النفس. لذلك امتلأ شاول رعبا وخوفا عندما سمع تعبيرات جليات. أين كانت حينذاك تلك الشجاعة التى نالت تقدير وإعجاب الشعب من قبل، والتى سبق أن خلّصت يابيش جلعاد، والتى بددت شمل أعداء إسرائيل أينما توجه؟ تلاشت كما تتلاشى نضارة الفاكهة من الخارج إذا تعفنت من الداخل. لقد حق له أن يكون قائدا لشعبه فى ظروف أحسن. أما الآن، فقد ملأ الخوف قلبه، وخارت عزيمته، وقبع فى عقر داره.

أما داود، فقد كان على العكس من ذلك على خط مستقيم. فإنه لم يتطرق إلى قلبه أثر من مثل ذلك الخوف، لأن نفسه امتلأت بالله. كان الرب نوره وخلاصه، فممن يخاف؟ كان حصن حياته، فممن يرتعب؟ كان مختبئا فى ستر خيمته، فى ظل القدير. تلك اليد التى ضربت الحجر بالمقلاع لم ترتعش ولم تهتز، والقلب لم يرتجف. كان قوى الإيمان لأن قلبه الغض كان نقيا، صالحا، مستقيما، وفى شركة دائمة مع الله.

الفصل الخامس

إيمان مختار الله (١ صم ١٧ : ٣٧ - ٤٤)

من ذا الذى يستطيع أن يصف القوة التى يُمنحُها
أولاً الله، حتى ولو كان إيمانهم غير مكتمل؟

وردذ ورث

في (وادى البُطْمِ) يجد السائح اليوم آثارا لكميات وافرة من زيت التربنتين، ولعل هذا هو السبب فى تسميته الحالية (وادى التربنتين)٠ يبدأ هذا الوادى من نقطة تجاور مدينة حبرون القديمة، ويتجه إلى الشمال الغربى نحو البحر، ويبلغ إتساعه نحو ميل واحد، وتوجد فى وسطه قناة عميقة عرضها نحو عشرين قدما وعمقها نحو اثنى عشر قدما؛ وفى القناة يتدفق الكثير من مياه السيول فى الشتاء٠

وإذ بدأ الفلسطينيون يستردون قوتهم، بعد كسرتهم أمام شاول ويوناثان ابنه فى مخماس، صعدوا فوق مرتفعات وادى البطم وحطوا رحالهم فى منحدراته الغربية بين سوكوه وافس دميم أى (حدود الدم)، ولعل هذه التسمية المنحوسة ترجع إلى أن ذلك المكان كان أكثر من مرة مشهدا لغارات عنيفة على الحدود٠

أما جيوش شاول، فقد حطوا رحالهم على المنحدر الآخر للوادى، ومن خلفهم جبال اليهودية متصلة حتى أورشليم٠ كان هذا الوادى مزمعا أن يشهد معركة تقدم لنا - بكل جلاء ووضوح - المبادىء التى يجب أن تكون نصب أعين أولاد الله فى حربهم، ليس فقط مع اللحم والدم، بل أيضا مع الرؤساء وقوات الظلمة٠ هنا، نجد وصفا وجيزا لثلاث شخصيات فى ذلك اليوم التاريخى المشهود٠

الشخص الأول - بطل الفلسطينيين :

كان طويلا، طوله تسعة ونصف القدم، كان مسلحا بأسلحة قوية جدا، لأن أسلحته إذا وقعت فى أيدى إسرائيل حسبوها غنيمة ثمينة وتقبلوها بتلهف، حتى إن الكتاب يعنى بوصفها بدقة٠ بل إنهم وزنوها ووجدوها خمسة آلاف شاقل نحاس، أى ما يوازى قنطارين٠ فكان

يحمى نفسه بدرع سميك، وكان ممسكا بيده رمحا حادا، وعلى جنبه سيف وتُرْس. كان يميل إلى التفاخر، فقد تحدث عن الوليمة التى فكر فى أن يقدمها لطيور السماء ووحوش البرية، وعيّر صفوف الله الحى.

الشخص الثانى - شاول :

كان من خيرة الشباب، طيب القلب، لم يوجد فى إسرائيل أصلح منه. كان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق. كان هو أيضا له طقم من الأسلحة: خوذة من نحاس، ودرع. وفى أيامه السالفة، عندما كان يضرب بالبوق، كانت ترن أصداؤه فى كل الأرض، مشعرة كل القلوب بالنصر الذى لابد أن يتحقق. وحتى فى تلك الساعة، انسابت من بين شفتيه كلمات تنم عن آثار إيمانه السابق ومحبته الأولى، إذ أكد لذلك الراعى الصبى أن الرب سيكون معه يقينا، ولكنه لم يجسر أن يقف هو بنفسه أمام شخصية جبارة كجليات، يرى أن بينهما هوة سحيقة وفرقا شاسعا فى القوة والمقدرة. وقد كان يثبط عزيمة داود بشكوكه وعدم إيمانه «لا تستطيع أن تذهب إلى ذلك الفلسطينى لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه».

الشخص الثالث - داود :

كان شابا يافعا، أشقر مع حلاوة العينين، جميل الطلعة. لم يتقلد سيفا فى يده، بل كان يحمل عصا الرعوية، ولم يلبس درعا إلا درع البر وخوذة الخلاص. ولم يحمل سلاحا، بل مقلاعا فى يده وخمسة حجارة ملساء اختارها من قاع الوادى ووضعها فى كِنْف الرعاة الذى كان يحمله، أى فى الجراب. ولكنه كان ممتلئا قوة روحية خفية لا يستطيع أن يراها الناظر بعينى جسده، والتى قد يصعب عليه هو شخصيا وصفها . كان متحققا من يقينية وجود الله الحى. لم يكن إسرائيل شعبه مجرد عبيد لشاول كما ذكر جليات، بل كانوا جيش الله الحى. عندما كان يتحدث عن الجيوش (بصيغة الجمع)، لعله كان يفكر فى رؤيا يعقوب عن جيوش الملائكة فى رؤيا محنايم، أو فى رؤيا يشوع عندما أعلن ملاك العهد نفسه كرئيس جند الرب الذى كان ينتظر - دون أن يراه أحد - وتحت إمرته جيوش مستعدة تشترك مع جيش قائد إسرائيل الذى كان مزمعا أن يعبر به نهر الأردن. كان هذا الغلام (داود) يرى هو أيضا الجو مكتظا بالخيول والمركبات النارية. بجنود الملائكة التى قال عنها فيما بعد إنها مقتدرة، قوية، تصغى إلى صوت الله، وتسرع لعمل مسرته فى كل مكان. وهو على الأقل لم يشك فى أن الرب سوف يظهر اسمه المجد ويسلّم إليه ذلك الفلسطينى الأغلف.

ولندرس الآن مصدر ذلك الإيمان العظيم وطبيعته:

إنه نشأ فى الخفاء وترعرع فى العزلة والاختلاء :

عندما كان يتأمل فى السموات والأرض يوما فيوما، كانت تبدو أمامه كخيمة فسيحة الأرجاء يسكن فيها الله. كانت الطبيعة فى نظره مسكنا لروح الله الذى كان يقينا لقلبه الغض، كما كانت أعمال يديه يقينية لعينيه كشاعر يكتب الشعر ويعشق الطبيعة. كان يرى الله يقينا بعين الإيمان، كما كان يرى يسى أو إخوته أو شاول أو جليات يقينا بعين الجسد. ولقد تركزت نفسه فى تلك الحقيقة، وهى رفقة الله الدائمة له، حتى إنها كانت ماثلة دواما أمام عينيه، ولذلك لم يتزعزع فى ساحة الوغى، ولم ترهبه تهديدات شاول له.

هذا بلا شك هو سر الإيمان. لا توجد هناك طرق أخرى، طريق أقصر «تخريمة» لحياة الإيمان الذى هو الشرط الجوهرى الأساسى لحياة القداسة وحياة النصرة. يجب أن تكون لنا فرص للتأملات الهادئة، والعزلة الانفرادية، والشركة مع العزة الإلهية. من ألزم الأمور للنفس - كلزوم الطعام للجسد - أن تكون لها جبال الشركة، وأودية التأملات الهادئة تحت ظل إحدى الصخور، وقضاء الليالى تحت النجوم، عندما يحجب الظلام العالم المادى، ويُسكن ضوضاء الحياة، ويكشف الحجاب عن العالم اللانهائى الأبدى. وبذلك فقط، تستطيع النفس أن تتحقق من تمتعها بالرفقة الإلهية التى تمكّنها من أن تردد على الدوام قول المرنم: «قريب أنت يا رب» (مز ١١٩ : ١٥١).

وتدرب فى الصراع منفردا :

كان ممكنا أن يحتفظ داود لنفسه - بكل أدب واحتشام واتضاع - بحادثة الدب والأسد، دون أن يسمح بالتحدث بها، لولا أنها خرجت من بين شفتيه رغبة منه فى أن يعطى المجد لله. ولعله قد شهد معارك مماثلة كثيرة. لذلك كان إيمانه يزداد شدة بالتمرين، كما كانت عضلات جسمه الغض تزداد بالتمرين. بهذه الطريقة، كان الله يعده لهذه الموقعة الأعظم.

إن الحالة التى نكون عليها منفردين، هى بنفسها التى تبدو حينما نكون وسط الجماعة. لا تتوهم لحظة بأن المناسبات العظيمة سوف تخلق فيك بطولة لم تعرف لها أثرا فى ساعات الاختلاء. فإن الأزمة إنما تعلن صفات النفس الحقيقية وحالتها كما هى. لأن علة هروب التلاميذ ساعة القبض على المسيح، هى أنهم عبثوا بالساعة التى كان يجب أن يقضوها فى السهر، وقضوها فى النوم. ويؤكد لنا جميع القديسين بلا استثناء أن ساعات الوحدة والعزلة

هى أشد الأوقات تعرضا للتجربة. فى هذه الأوقات، يجب أن ننتصر إن أردنا أن نكون منتصرين عندما تكون أعين الجموع الحاسدة مثبتة نحونا.

وقد جاز اختبار الحياة اليومية بنجاح :

يظن البعض أن حدود الكمال فى الحياة الروحية لا يمكن الوصول إليها طالما كان المرء مغمورا بمشاغل الحياة العادية، وهموم الحياة العائلية، ولسان حالهم يقول: «أبعدونا عن هذه، لا تكلفونا بأى عمل سوى تدريب أنفسنا على الأعمال النبيلة؛ حررونا من كل القيود والارتباطات العائلية تجدونا مستعدين للجهاد من أجل أولئك المساكين الذى قد غمرتهم مشاغل الحياة اليومية.»

لم يكن هذا هو الحال مع داود. فإن يسى، عندما كان متلهفا ليسمع شيئا عن أخبار أبنائه الثلاثة الذين تبعوا شاول فى الحرب، أمر داود بأن يحمل لهم زادا ولرئيس الألف تقدمة، فلم يكن منه إلا أن أطاعه على الفور «فبكَّر داود صباحا. وحمل وذهب كما أمره يسى»؛ وقبل أن يغادر الغنم، حرص على أن يكلف غيره بحراستها «وترك الغنم مع حارس». فلنحرص كل الحرص على أن لا نهمل أى واجب من واجباتنا. وإذا دعينا لساحة الحرب، فلنبحث أولا عمن نوكل إليه رعاية الغنم. والأمين فى الكثير، لابد أن يكون أمينا على القليل.[١] إننا فى واجباتنا العائلية، على مكاتبنا الدراسية أو التجارية أو المصلحية، فى مدرسة الأحد، نتدرب فعلا على الخدمة، سواء داخل الوطن أو خارجه. وعلينا أن لا نترك مكان التدريب حتى نتعلم كل الدروس التى قصد الله أن يعلمنا إياها، وحتى نسمع دعوته.

وقد تحمل التوبيخ وإساءة الظنون بتواضع :

وإذ وصل المحلة، وجد الصفوف متأهبة للقتال، فركض إلى المقدمة. وحالما عثر على إخوته وحياهم، باغته صوت التعيير من جليات من عبر الوادى، ورأى ما كسر قلبه، إذ شاهد رجال إسرائيل يهربون وقد امتلأت قلوبهم خوفا ورعبا. وعندما أبدى تعجبه، علم من الواقفين أن شاول نفسه لا يقل عنهم خوفا، وأنه قد عيَّن أجرا وافرا لمن يقتل جليات. وهكذا انتقل من صف إلى صف، متسائلا ويجمع أدلة جديدة تؤيد عقيدته السابقة. وفى كل هذا كان يزداد دهشة ويتساءل متعجبا كيف «يسقط قلب أحد بسببه» .

أما أليآب فإنه، إذ سمع كلمات أخيه الأصغر، لم يطق صبرا. فكيف يتجاسر داود أن يدعى على رجال إسرائيل بأن تصرفهم لا يتفق مع مركزهم ولا مع ديانتهم؟ وماذا يعنى

---

[١] راجع : لو ١٦ : ١ - ١٠ (مكتبة المحبة) .

بأسئلته الدقيقة عن تفاصيل الجائزة الملكية؟ هل يمنى نفسه بالحصول عليها؟ ألم يكن من السخافة أن يتحدث هذه الأحاديث؟ طبيعى إنه كان مجرد كلام، ولكنه كان غريبا جدا أن يسمع منه إنه هو أيضا جندى مؤهل للحرب. لهذا، رأى أليآب إنه لابد أن يقول كلمة يعيده بها إلى مركزه الجدير به، ويتلاشى بها تأثير حديثه، ويعرّف بها الواقفين حقيقة أمره؛ فقال له بسخرية: «لماذا نزلت، وعلى من تركت تلك الغنيمات القليلة فى البرية؟» يا للسموم التى تتوارى خلف تلك الكلمات القليلة كسم الأفعى. أما داود فضبط نفسه وأجاب بكل لطف: «إن ما حدا بى للحضور إلى هنا هو رغبة فى معرفة أخباركم.» وهنا، نستطيع أن ندرك سر نصرته على جليات. فلو إنه قد خرج عن طبعه وثار غضبه بسبب هذه الإهانة البسيطة، لفقد توازنه، وقطع حلقة اتصاله مع الله، وأسدل ستارا على إحساسه برفقة الله. ولكنه إذ قابل الشر بالخير، وحفظ اتزانه ورزانته، فإنه لم يظهر بذلك جمال سلاحه اللامع فقط، ولكنه أيضا قوّى رابطته بحمل سلاح الله.

إن تحمل الإهانات والتعييرات والحسد بالصبر والوداعة، وعدم الانغلاب من الشر بل غلبه بالخير، وتحمل الإساءة، وتدريب النفس على الصبر، وحفظ الفم بكمامة فيما الشرير مقابلنا، وكبح جماح الغضب عندما نقابَل بأية عاصفة من التحقير والإهانة – هذه كلها ممكنة للذين قد وُجد الروح القدس (روح الوداعة كالحمامة) مُقاما فى صدورهم، الذين قد امتلأت قلوبهم بسلام الله، وهؤلاء هم الذين يدخلون الحرب كأبطال. فى ذلك اليوم، حدث تجلى عجيب، وبدا مثل رائع فى وادى البطم، يتضمن أن أكثر الناس دعة ولطفا وقت الإهانة وإثارة الغضب، هم أشدهم بأسا فى الحرب، وأن الوداعة هى يقينا صفة من صفات القوة والاقتدار.

وقد قاوم تعليل الجسد :

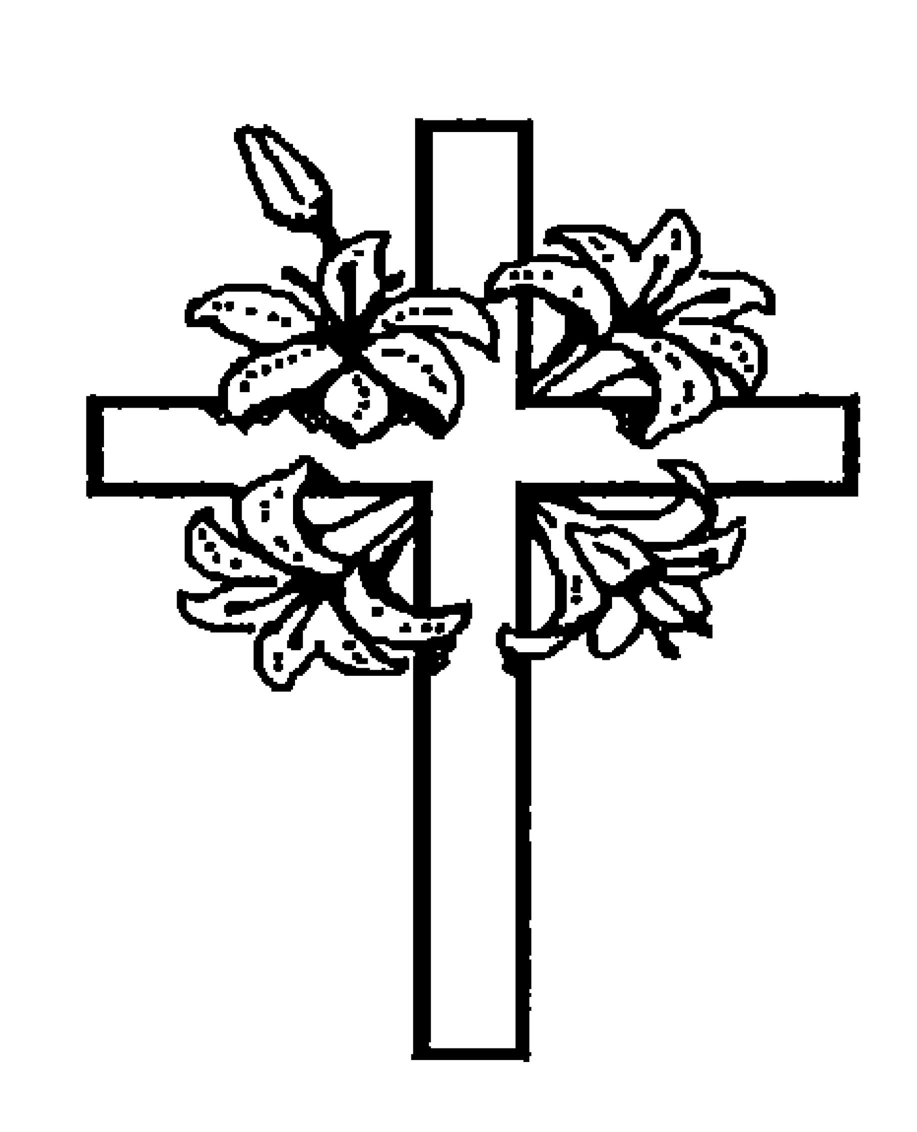
كان شاول شديد الرغبة فى أن يحمل داود سلاحه، ولو لم يتجاسر هو نفسه أن يحمله. لقد رضخ أمام ثبات داود، ولكنه نصحه أن يستخدم الوسيلة التى قدمها إليه: «لا تتعجل، لا تكن غبيا، لا تتوقع أن تحصل على معجزة، اتكل على الله واذهب، ولكن كن حكيما، يجب علينا اتخاذ الاحتياطات العادية.»

يا له من موقف حرج وساعة خطيرة. لو أن داود رجع إلى الوراء وعمل بهذه المقترحات، لخسر الرفقة الإلهية التى كانت تتوقف على إيمانه الكامل. إن استخدام الوسائل البشرية ليس خطية، ولكنها يجب أن لا تكون محل العناية الأولى. يجب أن تكون كما يأمر بها الله. إنها لتجربة خطرة أن نستخدم هذه الوسائل كباعث من الجسد، وننتظر بركة الله لها،

بدلا من أن ننتظر أمامه ونعرف ماذا كان يفعله هو وكيف يفعله. كم من مرة كانت المشورة التى تقدمها لنا الحكمة البشرية سببا فى إضعاف نشاط الروح، وتعطيل الأعمال العظيمة.

ولكن يدا خفية انتشلت داود من براثن التجربة. لقد أطاع كلام شاول إلى حد تجربة السلاح. وبعد ذلك التفت إلى شاول وقال: «لا أقدر أن أمشى بهذه.» ونزعها عنه. ولم يعد بعد متسلحا بسلاح شاول مع سلاح الله، بل بسلاح الله فقط، واستطاع دون تردد أن يوجه إلى جليات هذه الكلمات : «ليس بسيف ولا برمح يخلّص الرب.»

لقد جاز إيمانه أشد الامتحان وتزكّى. لقد جاز النار المحماة سبعة أضعاف، لأنه أثمن من الفضة والذهب، ولكن نيران التجربة أظهرت بأنه إيمان سماوى. والآن، ليفعل جليات كما يشاء، وليأت بآخر ما عنده، فلابد أن يعرف إنه يوجد إله فى إسرائيل.



الفصل السادس

باسم رب الجنود (١ صم ١٧ : ٤٥)

لقـــد رأيت اليـــوم الســـعـــيـــد
الذى فـيــه أعـــانتى الإله المجـيـــد
بكلمـــة واحـــدة أن أردد بكل تأكـــيـــد
« مـــعـــونتى فى إلهـى الوحـــيـــد »
فـانتـصـرت نفـسى على ألف عـدو لدود
دون أن أخـــشـى أى تهـديد أو وعـــيــد

كوبر

بينما كان الجيشان ينتظران على منحدرى الوادى، استلفت أنظار الجميع فجأة صبى صغير فى يده عصا، برز من صفوف إسرائيل، ونزل على منحدر الجبل. ولوقت وجيز، توارى داود عن الأنظار، إذ انحنى إلى أسفل واختار خمسة حجارة ملساء من قاع الوادى ووضعها فى كنْفِ الرعاة الذى يحمله. ولشد ما كانت دهشة الفلسطينيين، وخصوصا مبارزهم الجبار، عندما رأوه يصعد على الجانب الآخر من الوادى ويتقدم نحو جليات.

كان جليات جالسا على ما يظهر. وعندما تحقق أن الشاب قد تجاسر على مبارزته، نهض وتقدم لملاقاته، ولعنه، وهدده بسفك دمائه على سفح الجبل وتقديم جثته طعاما لوحوش البرية وطيور السماء. «فقال داود للفلسطينى أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس. وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيّرتهم».

(١) تعويذة النصرة :

«باسم رب الجنود». إذا ما قلّبنا الكتاب المقدس، وجدنا أنه عندما يطلق أى اسم على أى مسمى، فإنه لا يُقصد به أن يكون مجرد تسمية، إنما يقصد به أن يكون إعلانا عن بعض الأخلاق والصفات. إنه يبرز، بل يكتنز بعض الصفات الأدبية أو المميزات الأخلاقية التى تميز صاحبها عن سائر البشر، أو التى تكوّن مواهبه الممتازة وقوته الفائقة. فالأسماء التى أطلقها آدم على الحيوانات إذ قُدّمت إليه، كانت مبنية على الصفات والمميزات التى استرعت أنظاره.

والأسماء التى أطلقها آدم الثانى على الرسل، إما أنها تعبّر عن بعض الصفات الكامنة فيهم، والتى قصد أن يحركها ويزيدها حيوية وانتعاشا، أو أنها كشفت عن بعض الأغراض العظمى التى اختارهم من أجلها وأعدهم لها.

كذلك عندما نتأمل فى أسماء الله التى استعملها الأنبياء والقديسون وأبطال الكتاب المقدس، نجد أنها تمثل الصفات الإلهية التى وجدوها فيه. فى تاريخ الكنيسة الأولى، كان «الاسم» ملخصا لما أعلنه يسوع عن طبيعة وقلب الله، «من أجل اسمه خرجوا وهم لا يأخذون شيئا من الأمم» (٣ يو ٧). لم يكن هنالك ما يدعو لتعيين الاسم «لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص»، ليس اسم آخر يمكن مقارنته بهذا الاسم، ليس اسم آخر يمكن أن يُدرَج فى نفس الصفحة. عندما تظهر الشمس تتوارى الكواكب. هذا الاسم هو فوق كل اسم، وله تجثو كل ركبة، وبه يعترف كل لسان، لأنه يتضمن كل ما يمكن أن تحتاجه النفس أو الجنس البشرى بأسره، كل ما يمكن أن يخطر على بالها، كل ما تتوق إلى الحصول عليه.

إن الصفة الخاصة التى استخلصها داود من مجموعة الصفات المُمَثَّلة فى اسم الله، تجدها فى هاتين الكلمتين «رب الجنود». وهذه التسمية لا تعنى فقط أن الله هو قائد جنود إسرائيل المصطفة للقتال، فهذه الفكرة نجدها مرتسمة فى الكلمات التالية «إله صفوف إسرائيل». ولكن، لعله كان يجول بخاطر داود هذا الفكر، وهو أنه كان يرى الملائكة والعوالم، جنود السماء وعناصر المادة، الرياح والأمواج، الحياة والموت. التى يرى هذه كلها كأنها جيش عظيم جدا منظم، يطيع أوامر قائده يهوه رب الجنود. والواقع أن فكرته هذه هى بعينها فكرة قائد المائة الوثنى الذى ذكرته الأناجيل والذى قال عن نفسه إنه إنسان تحت سلطان، له عبيد يقول لهذا اذهب أو تعال، ويقول لآخر افعل هذا أو ذاك.

فإن مجىء داود «باسم رب الجنود» ليس معناه إنه أنما عرف الله بكل هذه الصفات، ولكنه يعنى اندماجه بالإيمان فى كل ما تتضمنه هذه التسمية المباركة. فالرجل الغريب فى بلد غريبة، إن كان سائحا عاديا، يختلف موقفه وتختلف لهجة كلامه عما إذا خلاص سفيرا أو ممثلا لبلاده تمثيلا رسميا. فهو فى الحالة الأولى، يتكلم باسمه وينال من التقدير والاحترام والولاء كما تستحق شخصيته. وفى الحالة الثانية، يكون واثقا من أن شخصيته قد اندمجت فى كل ما تتضمنه بلاده التى يمثلها، فإذا تحدث المرء باسم بلاده، معناه أنها هى التى تتحدث عن لسانه، وأن عظمة بلاده تزيد كلامه قوة وأوامره عظمة، وإن كل ما تمتلكه بلاده من قوة

مستعدة أن تنتقم من أية إساءة أو إهانة توجه إليه.

هكذا عندما يأمرنا المسيح أن نطلب كل ما نريده باسمه، فإنه لا يعنى مجرد استعمال الاسم كتعويذة، أو بطريقة آلية، بل يعنى إننا يجب أن نكون واحدا فيه، فى مصالحه، وفى مقاصده، وفى أغراضه، كأنه هو نفسه يقترب إلى الآب بالطلبات التى تحملها.

إن أمامنا دروسا كثيرة يجب أن نتعلمها عن هذا الاندماج فى الله، قبل أن نستطيع ترديد قول داود: «أنا آتى إليك باسم رب الجنود». فهذا لا يمكن لأحد ترديده إلا إذا أتم بكل دقة شروطا معينة، أدركها كل الإدراك ذلك الشاب الذى كان متعلما من الله. ولكن مما يستحق اهتمامنا، أننا يجب أن نخلى قلوبنا من كل مشاغل الحياة، أن نتجنب كل ما يقضى على اتحادنا بالطبيعة الإلهية واندماجنا فى مصلحة ملكوت الله، أن نمتزج فى الله امتزاجا كليا لكى يكون اسمه برجنا الحصين، ملجأنا، سر نصرتنا. آه، ليت كل واحد من أولاد الله يستطيع أن يقترب من كل فاعل شر عنيد، كل محالفة مع الشر، كل مقاومات قوات الظلمة، كل قبيلة متوحشة، كل إقليم انتشرت فيه رذيلة السُكر، كل شعب غير مخلص خاطىء، بهذه الكلمات: «أنا آتى إليك باسم رب الجنود».

(٢) الشروط التى يجب مراعاتها لاستخدام الاسم :

(١) عندما تكون البواعث نقية :

لا يوجد أدنى ريب فى الباعث الذى دفع داود لهذا الصراع. صحيح إنه قال لرجال إسرائيل: «ماذا يفعل للرجل الذى يقتل الفلسطينى؟» ولكن لم يخطر ببال أحد أنه تصرف هذا التصرف متطلعا إلى المكافأة الملكية. فقد كانت غايته الوحيدة أن يزيل العار عن إسرائيل، وأن يجعل كل الأرض تعرف إنه يوجد إله فى إسرائيل.

وهنا، يجب أن نكون فى غاية الحذر. من السهل جدا أن نخلط بين باعثين بعيدين عن بعضهما بعد القطبين، وندعى بأننا نجاهد ونصارع من أجل مجد الله، بينما نكون فى الواقع مصارعين من أجل دعوانا الخاصة، أو من أجل آرائنا الخاصة. إنه لمجهود شاق على الدوام للغيورين أن يغمضوا أعينهم عن أنانيتهم فى البواعث والغايات التى تدفعهم، فالأغلبية الساحقة يؤكدون بكل ما أوتوا من قوة إنهم لا تدفعهم إلا الغيرة الخالصة لحق الله، بينما تكون هنالك غايات خاصة قِبلَة أنظارهم. والسقوط فى هذه الخطية، ولو بدون انتباه، يؤدى إلى الحرمان من حق استعمال

اسمه المقدس. قد نظل نلهج به ونستغيث به، ولكن بدون جدوى، بل على العكس، قد نجد أن نفس الشياطين التى حاولنا مطاردتها قد هزأت بنا وهجمت علينا ،طاردتنا.
فما أشد حاجتنا إلى فتح قلوبنا لتأثير الروح القدس وإرشاده لكى يطهرها ويملأها بالغيرة الكاملة لمجد الله، حتى يصدق علَينا القول كما صدق على المسيح «غيرة بيتك أكلتنى» .

(٢) عندما نكون راغبين فى أن يحتل الله مكانه اللائق :

كرر داود القول أن القضية فى قضية إله. كان ممكنا له أن يجمع غنائم الحرب، أما غلب جليات وكسر جيش الفلسطينيين فلم يكونا فى طاقته على الإطلاق. «الحرب للرب ... هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى ... يخلّص الرب وهو يدفعكم ليدنا».
لقد كانت وجهة نظر داود هى وجهة نظر جميع الرجال الذين فعلوا عظائم من أجل البر. فموسى قال: «إله آبائكم ظهر لى قائلا إنى قد افتقدتكم وما صُنع بكم فى مصر فقلت أُصعدكم من مذلة مصر» (خر ٣ : ١٦ و ١٧)، وصموئيل قال: «أعدوا قلوبكم للرب فينقذكم من يد الفلسطينيين» (١ صم ٧ : ٣)، وبولس قال: «إنى لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتى» (رو ١٥ : ١٨).
يجب أن ندرك أن المسيح هو المحارب الأول، العامل الأول، المدبر الأول، الخادم الأعظم فى كنيسته بالروح القدس. وكل شيء يتم حسنا يكون هو المتمم له. ونحن لم نُدع للعمل عنه، بل لكى ندعه يعمل بنا، لأن منه وبه وله كل الأشياء. والحرب ليست لنا، بل للرب. فيجب أن تكون حكمته هى المرشدة لنا، وقوته هى المقوية لنا، وذراعه الرفيعة هى التى تمنحنا النصرة.

(٣) عندما لا نستشير لحما ودما :

لا شك فى أنه كان عسيرا جدا على داود الشاب أنْ يُغلّب آراءه على آراء شاول الملك، خصوصا وقد كان الملك غيورا على مصلحته، مشفقا على حياته. ولعله خاطبه قائلا: «يا ابنى نج نفسك. كن حكيما. تحصن بالاحتياطات العادية. لا تعرض شبابك للخطر.» ويا لها من لحظة حرجة. إن مقابلة التحقير والبغض والإساءة بالاستخفاف والمقاومة، أيسر من رفض معونة أو مشورة قُدّمت بمنتهى حسن النية. لا شك فى أنه كان خيرا لداود أن لا يصغى لذلك الصوت الساحر الفتان،[١] وأن لا يتأثر بالعطف الملكى. لم يكن فى استطاعته خدمة سيدين بينهما عداوة مستحكمة؛ فقد كان فى

رضوخه لشاول إقصاء له عن الحضرة الإلهية.
كم مرة يهمس الشيطان فى آذاننا بتلك الكلمات الناعمة اللينة التى همس بها بطرس فى أذن معلمه عندما بدأ يتحدث عن الصلب «حاشا لك يا رب، لا يكون لك هذا .» لقد كثرت الأحاديث عن شرعية الوسائل البشرية، حتى لم يبق مجال للقدير كى يعمل.
إن الوسائل البشرية لائقة فى مكانها اللائق، بشرط ألا يكون لها المكان الأول. على أن طبيعة تلك الوسائل ووقتها يجب أن يحددها ذلك الذى يرفض أن يلبس عبده خوذة من نحاس أو درعا، لكى لا يفتخر أمامه كل ذى جسد، بل يسمح باستخدام المقلاع والحجارة الملساء وسيف جليات.

(٣) مركز أولئك الذين يستعملون اسم الله :

(١) إنهم يرتضون أن يقفوا منفردين :

لم يطلب ذلك الشاب أن يرافقه أى إنسان فى الحرب. لم يكن هناك مجال لأى امرىء يركض إليه أو يعود من عنده ليضمن له بديلا. كان على أتم الاستعداد لتحمل وطأة الحرب وشدتها، دون عطف هذا أو معونة ذاك، إذ كان واثقا كل الثقة أن رب الجنود معه وأن إله يعقوب ملجأه.

(٢) ويكونون ثابتين :

إنه كان خاليا من كل آثار الخوف والانزعاج التى طالما تفشت فى عضدنا فعطلتنا عن تأدية واجبنا فى المأموريات الخطيرة. ففى حالة الخوف، ينبض القلب بسرعة، وتكون حركتنا متقلبة وغير ثابتة. أما هو، فقد نزل فى منحدر الجبل بهدوء وتؤدة، وانتخب الحجارة التى تناسب غرضه. فى هذا الهدوء وتلك الثقة وجد قوته.[٢] كان عقله فى سلام كامل لأنه مركز فى الله.[١] لم يتعجل فى مسيره ولم يهرب، لأن الرب كان سائرا أمامه، وقدوس إسرائيل كان أجرا له.

---

[١] يشير الكاتب إلى صوت إلهة فى سيسيليا كان غناؤها الرخيم يستهوى البحارة، فيمكثون هناك إلى أن يموتوا جوعا. (حسبما ورد فى الأساطير الخرافية القديمة) .

[٢] بالهدوء والطمأنينة (أو «الثقة» حسب الترجمة الإنجليزية وترجمة اليسوعيين) تكون قوتكم» (إش ٣٠ : ١٥).

(٣) وغير خائفين :

عندما حانت ساعة القتال، لم يتردد لحظة، بل ركض نحو جيش الفلسطينيين ليلتقى ببطلهم. لم يوجد أثر للخوف فى ذلك القلب الصغير، ولم يخش العواقب. لم يوجد أى ارتعاش فى ذلك الصوت الذى رد على التعيير. لم يوجد أى اهتزاز فى اليد التى أمسكت المقلاع، ولم تعوزه الدقة فى إصابة المرمى عندما ألقى بالحجر على الجزء الوحيد المكشوف من جسم الفلسطينى.

(٤) وأعظم من منتصرين : [٢]

فى لحظة انغرس الحجر فى جبهة جليات، وفى لحظة أخرى سقط على الأرض مغشيا عليه، وللحال أسرع داود إلى جليات دون أن يضيع برهة واحدة، فقبل أن يفيق رفقاؤه من ذهولهم، فُصلت رأسه عن جسمه بضربة واحدة من نفس السيف الذى كان يحمله جليات. وعندما رأى الفلسطينيون أن بطلهم قد مات، ولوا هاربين. ولابد للمنتصر من أخذ غنائم النصر؛ فقد أخذ داود رأس الفلسطينى علامة للظفر «ووضع أدواته فى خيمته».

فليحى كل واحد منا وحيدا مع الله، لأن أضعف إنسان يعرف الله يستطيع أن يتمم أجلّ الأعمال. كل قُوَى الله تنتظر إيماننا . وكما أن الطفل بمجرد زر صغير يستطيع أن يحرك أعظم البواخر لتمخر عباب البحر، كذلك يستطع أى فتى صغير تعلم الاتكال على الله أن يحرك قوى الله لتعمل فى البشر أو فى أى شىء فى ساحة حرب هذا العالم. هذه هى الغلبة التى تغلب العالم، والجسد، والشيطان – إيماننا .

---

[١] «ذو الرأى المُمَكَّن تحفظه سالما سالما لأنه عليك متوكل» (إش ٢٦ : ٣) أو «ذو العقل المركز فيك تحفظه فى سلام كامل» حسب الترجمة الإنجليزية .

[٢] إش ٥٢ : ١٢ .

[٣] رو ٨ : ٣٧ «ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا (أو «أعظم من منتصرين» حسب الترجمة الإنجليزية) بالذى أحبنا».

الفصل السابع

يوناثان (١ صم ١٨ : ١)

إن النفوس التى تتبادل الأفراح والأتراح
أثناء ارتحالها فى برية هذا العالم
تستمد بعضها من بعض كل يوم
قوة جديدة ونورا جديدا
بسبب تضامنها فى المسير معا
ولا تبالى بما تصادفه من متاعب الارتحال
ولا بطول الطريق
وتقابل مقاوميها بقوة تضامنها
وبشركتها معا فى روح واحد
وغرض واحد ومصلحة واحدة
وتشد أزر بعضها بعضا فى رحلتها الإلهية

كوبر

فى قبة السماء توجد بعض الكواكب التى تسمى بالكواكب المزدوجة، لعل كلا منها شمس، تتبعه عدة عوالم تدور حول محور واحد، ولكن أشعتها تختلط ببعضها فتتبيّن لنا كأنها شعاعة واحدة من النور. هكذا تجد النفوس المزدوجة مركز دائرتها كل فى الأخرى. وليس أسمى فى ادخار المحبة البشرية من أن نجد نفسين قد ارتبطتا معا برابطة المحبة الطاهرة النقية التى كثيرا ما نجدها أعجب وأعمق من محبة النساء. مثل هذه المحبة نجدها فى الأساطير القديمة بين قلبى دامون وبيثياس.[١] كما نجدها فى الأدب الحديث بين نفسى هَلام وتنيسون.[٢] ولكنك لن تجدها أقوى وأبهج من تلك المحبة التى تجد ذكرياتها بين صفحات الكتاب المقدس والتى ارتبط بها قلبا يوناثان وداود.

---

[١] Damon & Pythias.

[٢] Hallam & Tennyson.

الراجح جدا أن داود كان قد تأثر كل التأثر بأخلاق يوناثان الذى لابد كان يكبره سنا.
ويظهر أن هذه المحبة ظهرت فى قلب يوناثان لأول نظرة. «وكان لما فرغ [داود] من كلامه مع شاول أن نفس يوناثان تعلقت بنفس داود وأحبه يوناثان كنفسه». وعلى أى حال، فهو لم يعترف بها فى اللحظة الأولى. ولكن لعله فى المساء، بينما كان ذلك الراعى الشاب جالسا وسط جماعة من الجند، يتحدث معهم عن حوادث ذلك اليوم التاريخى، أقبل رسول من البلاط الملكى واستدعاه لمقابلة يوناثان فى خيمته. ولشد ما كانت دهشته عندما قوبل - حال دخوله - بتحية حارة منبعثة من محبة أخوية لن يتطرق إليها الوهن فى مستقبل الأيام.

لقد خسر أليآب فى الصباح، ولكنه فى المساء فاز بمحبة صديق ألصق من الأخ. ولعل الشاب قد تراجع إلى الوراء إذ حسب نفسه غير جدير بصداقة أمير ملكى وهو فى هذه الحال من الفقر. ولكن كل هذه الاعتبارات تلاشت أمام محبة يوناثان المكتسحة إذ «خلع الجبة التى عليه وأعطاها ليوناثان مع ثيابه وسيفه وقوسه ومِنطَقته» حينئذ «قطع يوناثان وداود عهدا لأنه أحبه كنفسه».

(١) لاحظ صفات هذا الصديق الذى اختاره الله لصدق أخلاق حبيبه. وعندئذ كن مستعدا لأن تسلم لعنايته اختيار أخلص أصدقائك. هو يعرف ما يحتاجه طبعك، وأين تجد الصديق الذى يقويك فى حالة الضعف، وينمى فيك المواهب الكامنة غير المعروفة.

(١) لقد كانت فيه كل صفات الرجولة. فى الصداقة الحقة، يجب أن يكون هنالك توافق فى الأمزجة والمصالح. إن الشرط الأساسى للصديقين هو أن يكونا متفقين. ورباط الرجولة هو الذى ربط هاتين النفسين من البداءة. فقد توفرت فى يوناثان كل صفات الرجولة، كان ماهرا فى الضرب بالقوس كما كان صديقه ماهرا فى الضرب بالمقلاع. كان فى استطاعته أن يبتسم أمام ثورة الغضب، أن يتحمل كل شىء دون أن يضعف أمام ثورة غضب أبيه. كان مستعدا أن يدافع عن أصدقائه مهما كلفه ذلك. كان فى استطاعته أن يلهب قلب حامل سلاحه الأوحد وينفث فيه من روحه الوثابة المقدامة ويقنعه بالهجوم على جيش كامل، كان فى مقدوره أن يصد تيار الهجوم على بلاده، أن ينال تقدير وإعجاب ومحبة كل الشعب الذى وقف بينه وبين أبيه وحال دون موته. وعندما سقط [يوناثان] فى جلبوع، لم تكن روح المداهنة هى التى دفعت صديقه أن يقول عنه فى مرثاته المؤثرة :

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك

كيف سقط الجبابرة ؟

(٢) ورغم ذلك، فقد كان غاية فى الرقة والإحساس. من عادة الكثيرين أن يبالغوا فى تقدير الصفات التى يتميز بها الرجال، كالقوة والشجاعة والصبر والاحتمال، للتحقير من شأن الصفات الرقيقة التى تتميز بها النساء. ولكن يجب أن ندرك أن كل رجل حقيقى يجب أن تتوفر فيه بعض صفات الإحساس الرقيق النسائى، الأمر الذى كان متوفرا فى ابن الإنسان المثالى الرب يسوع المسيح. فيه ليس ذكر ولا أنثى، لأنه يستطيع أن يجعل تعادلا بين الاثنين. كذلك يجب أن يكون فينا القوة واللطف، الشجاعة والعطف، البلّوطة والكَرمة، الصخرة والطحلب الذى يكسوها برداء ناعم.

(٣) وتوفرت فيه قوة المحبة الوديعة. لقد أحب داود كنفسه، كان مستعدا أن يتنازل عن حقه فى عرش أبيه بكل سرور على أن يكون ثانيا لصديقه، كانت محبته من الصنف الذى يفصح عن نفسه بالقبلات والدموع، حتى استحقت أن يردد صداها من أحبته نفسه ويقول:

قد تضايقت عليك يا أخى يوناثان

كنت حلوا لى جدا

محبتك لى عجيبة

أعجب من محبة النساء

إننا نحكم على الشخص من أصدقائه ومما يثيره فيهم من إعجاب. فأى رجل أحبه داود لابد أن يكون قد توفرت فيه الكثير من الصفات البارزة فى داود نفسه. يتحدث الكثيرون بكل إعجاب عن ارتباط النقيضين، خصوصا إن كان الواحد غنيا والآخر فقيرا، ولكن أعمق محبة هى التى تربط بين نفسين اتحدت طبيعتاهما. لذلك فإننا عندما نتأمل فى المحبة التى ارتبط بها قلبا هذين الصديقين برباط أبدى لا تنفصم عراه، لابد لنا من أن نقرر بأن يوناثان قد توفرت فيه الكثير من الصفات البارزة فى داود – الحساسية، موهبة الشعر، التأثر الرقيق، بطولة الشجاعة، قوة جذب النفس لكل ما هو طاهر، وكل ما هو جميل، وكل ما هو جليل.

(٤) وتوفرت فيه روح التقوى بصفة ممتازة· فنحن إذ نقرأ عنه لأول مرة، عندما كان يرافقه حامل سلاحه، متقدما وحده لمهاجمة جيش الفلسطينيين، ومتحصنا وراء بعض الصخور، نجده يتحدث كشخص خبير بطرق الله، واثقا إنه «ليس للرب مانع أن يخلص بالكثير أو بالقليل»، وعندما تحققت النصرة التى حددها هو، وثق من أنها علامة على النصرة التى سيجريها الرب على يديه (١ صم ١٤)·

وإذ كان واقفا بجانب أبيه على منحدر الجبل، يتطلع إلى الغلام نازلا لقتل جليات وإحراز نصرة عظيمة لإسرائيل، كان يرى يد الله تصنع «خلاصا عظيما لجميع إسرائيل»، وارتفعت نفسه بالشكر والدعاء إلى الله (١ صم ١٩ : ٥)·

وعندما كاد الصديقان أن يفترقا، والأمل ضعيف فى أن يتلاقيا مرة أخرى ويستمتعا بالحديث العذب مع بعضهما، نرى يوناثان يعزى نفسه بأن كل الأمور مرتبة من العناية الإلهية، وبأن الرب سيكون بينهما «الرب يكون بينى وبينك وبين نسلى ونسلك إلى الأبد»؛ «بينى وبينك» ليس باعتبار أنه يتحدهما ويربطهما معا كما تربطنا المحيطات بالأراضى البعيدة عنا بعدا شاسعا فتنقل إلينا بضاعتها· لذلك فمهما ابتعد عنا أحباؤنا، فنحن قريبون منهم فى الله الذى نقف جميعا فى حضرته، وهكذا تختلط التيارات معا فى المحيطات·

وعندما التقى الصديقان سرا فى المقابلة الأخيرة فى الغاب، «قام يوناثان وذهب إلى داود إلى الغاب وشدد يده بالله» (١ صم ٢٣ : ١٦)· ليس من السهل التعبير بلغة البشر عن كل ما تتضمنه هذه الكلمات من معانٍ، ولعل قلوبنا تستطيع أن تدرك معناها، وتحس بتيار التشجيع المقدس الذى انسكب من تلك النفس النبيلة فى قلب الصديق· ولا شك فى أن من يشدد الآخرين يكون هو نفسه قويا شديدا، وأن من يمنح تعزيات الله لأخيه يكون هو نفسه من الله والله له· ونحن نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن ضيقة نفس يوناثان التى كانت تتجاذبها محبته البنوية لأبيه ومحبته الأخوية لصديقه، قد اضطرته أن يلجأ لينبوع التعزية والمعونة الإلهى، الذى هو العزاء الوحيد للبشر عندما يُصهرون فى مثل هذه التجارب المحرقة·

(٢) تأمل فى الصراع الذى لاقاه يوناثان فى حياته :

لقد كان مخلصا لأبيه، فكان مرافقا له على الدوام، ومختلطا به فى أخلاقه الفظة، وشذوذه

الذى يقرب من الجنون، وتعرضه للأرواح الشريرة. ومع ذلك فقد كان له إحساسه الحاد للموسيقى، والنزوح لأعمال البطولة، والميل للذود عن وطنه، وإحساساته الكريمة. لقد كان الأب والابن متلازمين فى الحياة، كما كانا متلازمين فى الممات.

عندما ارتقى أبوه العرش فى أول الأمر، كان الرب معه، وكان يوناثان يعرف ذلك (١ صم ٢٠ : ١٣). ولا شك فى أنه كان يغتبط كل الاغتباط لشعوره بأن رغبات الأب هى نفس رغبات الله، ولذلك فقد كان يدين بالولاء لكليهما. ولكن، سرعان ما تلبد الجو بالغيوم القاتمة، فقد فارق الرب شاول، وللحال فارقته القوة التى يستطيع بها ضبط المملكة، وغزا الفلسطينيون بلاده، وعجز عن الدفاع عنها، وصار شعبه يتبعه مرتجفا مذعورا، وأعلنه صموئيل أن مملكته سوف لا تدوم. ثم جاء ذلك اليوم المنحوس، الذى فيه تطفل شاول على مائدة الوظيفة الكهنوتية وقدّم الذبيحة، وللحال، رنت فى أذنيه تلك الكلمات المنذرة بالشر: «انتخب الرب لنفسه رجلا حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه». من تلك اللحظة، بدأ نجم شاول يأفل، ولكن يوناثان تعلق به، كأنه كان يرجو أنه بطاعته وولائه هو شخصيا لله، يستطيع أن يوقف التأثير السىء لسقوط أبيه، وأن تبقى المملكة فى يد العائلة الملكية.

لم يكن ذلك بالأمر العسير فى البداية، فقد كان قلبه كله لأبيه ولم يوجد وقتئذ من يشاركه فيه، ولذلك لم يكن عسيرا عليه أن يخاطر بحياته فى قتال غير متكافئ مع الفلسطينيين. ولا شك فى أن قلبه كان يرقص فرحا بسبب الآمال العظيمة التى عمر بها إذ كان فى عجلون وسط الغابات التى كان يتقاطر منها العسل. لكن كل آماله انهارت، لأنه عوضا عن انتعاش الحياة فى بلاده التى كان يمنى نفسه بها، وجد أن أباه قد انحدر إلى هاوية سحيقة أبعدته عن الله. لقد كان سقوط شاول فى موضوع تحريم العمالقة، والروح الذى كان يباغته ويزعج نفسه، وتخلّى صموئيل عنه - هذه كلها أحدثت شبه شلل أدبى فى نفس يوناثان القوية الوثابة. ماذا كان فى استطاعته ليرد القضاء الذى تحتم على أبيه، ويصد التيار الجارف، وكيف يستطيع أن يطرد العدو وقد دخل الأبواب؟ يقينا أن شعوره بالعجز عن أن يغير هذه الأمور الثابتة، هو الذى أقعده عن ملاقاة جليات. لابد إنه طالما خطر على باله - فى كثير من المرات التى سمع فيها تعيير ذلك الجبار - أن يخرج إليه ويقتله أو يموت. ولكن نفسه كانت تعتريها سحابة من اليأس والقنوط، ماذا يستطيع أن يفعله إن كان مصير البلاد التى أحبها قد تقرر من قبل؟

وعندما استيقظ أمام محبته لداود محبة صادقة، وجد نفسه أمام مشكلة جديدة، ليست

بشكل ظاهر، لأن شاول، ولو كان ينظر إلى داود نظرة الغيرة والحسد، إلا أنه لم يعلن له العداء علنا. فداود كان يدخل القصر الملكى ويخرج، كان يشغل مركزا رئيسيا، وكان الجميع يتقربون منه ليستمعوا إلى أحاديثه العذبة. ولكن عندما انفجر بركان العداوة الذى كان يتقد زمنا طويلا فى قلب شاول، بدأت ضيقة نفس يوناثان الحقيقية؛ فقد كان الواجب يحتم عليه الولاء لأبيه كابن وكأحد رعاياه. ولو كان يعلم أن أبته قد أفل نجمه، ولو كان متيقنا أن فى ولائه لأبيه هلاكا لنفسه، ومن الناحية الأخرى كان كل قلبه منعطفا نحو داود.

وقد دفعته محبته لداود أن يحاول التوفيق بينه وبين أبيه. ولم ينثن عن عزمه إلا بعد أن تكرر فشله فى المهمة، وأدرك أن كل محاولة ذاهبة أدراج الرياح. وبعد ذلك، لعله دارت فى مخيلته هذه الأفكار: لماذا لا تنقذ نفسك من هذه السفينة التى قد تحتم غرقها، طالما يوجد وقت لذلك؟ لماذا لا تنضم إلى ذاك الذى اختاره الله؟ إن مستقبل المملكة لابد سيؤول إليه، فاتحد به ولو كان فى ذلك إغضاب لأبيك.

كانت التجربة قوية وظاهرها حسنا، ولكنها خرت صريعة تحت قدميه. فإنه رأى أن التزامات الواجب والبنوية والولاء للملك مسيح الله، أقوى من رُبُط المحبة البشرية. وفى لحظة موهوبة، أعطى ظهره لنداء قلبه، واختار أن يقف بجانب أبيه؛ ولم يتراجع قط عن هذا الاختيار. فعندما فارقه داود إلى حيث أراد، رجع إلى المدينة. لعل أباه قد سخر منه لرابطته الوثيقة بابن يسي، ولكنه لزم الصمت. وعندما شرع شاول نهائيا فى حربه الأخيرة مع الفلسطينيين، كان يوناثان يحارب بجانبه، رغم أنه كان يعلم أن داود متحالف معهم.

هنا، نرى مظهرا من أعظم المظاهر التى يسجلها لنا التاريخ، والتى تتجلى فيها نصرة المبدأ على العاطفة، نصرة الواجب على الميول والرغبات. لقد مات يوناثان بطلا، ليس فقط لبطولته فى الحرب مع أعداء بلاده، بل أيضا لنصرته على أعظم عاطفة فى القلب البشرى، وهى محبة الصديق لصديقه.

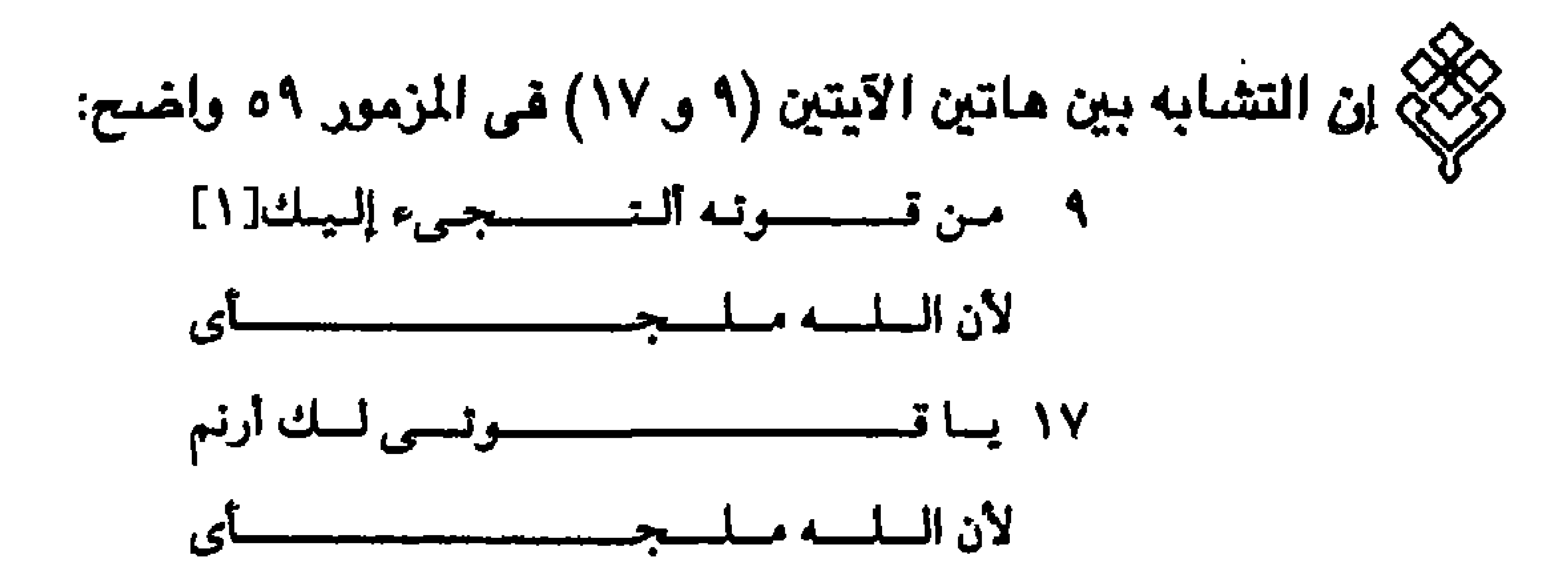
مثل هذا الصراع ينتظرنا جميعا عندما يحدد الله لنا أمرا، وتتطلب منا رغبات القلب وأمياله شيئا آخر، عندما تهب الريح من ناحية وتشتد عوامل المد والجزر من ناحية أخرى. ليت نعمة الله تعينك كلما اجتزت ضيقة كهذه، لكى تسلك الطريق المستقيم مستلهما بوحى الضمير كما فعل يوناثان بن شاول.

الفصل الثامن

خارج البيت وداخله (مز ٥٩ : ٩ و ١٧)

من الأعماق بزغت المناظر النجسة
وفى الظلام تجمعت أمام عينى
ولكنها فى نور الفجر سوف تنقشع
وعندما يشرق ذلك اليوم تختفى الظلال
إنه يحوّل كل الأشياء لخير أولاده
إذ يبدد النور كل ظلمة
ويحوّل الظلمة إلى نور
حتى يشرق ذلك اليوم وتختفى الظلال

س. ج. ستون



إن التشابه بين هاتين الآيتين (٩ و ١٧) فى المزمور ٥٩ واضح:

٩ من قوته ألتجىء إليك[١]
لأن الله ملجأى
١٧ يا قوتى لك أرنم
لأن الله ملجأى

والفرق بين كلمتى «ألتجىء» و«أرنم» فى العبرانية ضئيل. فإنهما يتفقان فى كل الحروف إلا حرف واحد.

وعنوان المزمور يوضح المناسبة التى كُتب فيها «لإمام المغنين مذهبة[٢] لداود، لما أرسل شاول وراقبوا البيت ليقتلوه». والإشارات الواردة فى المزمور تؤيد العنوان، خصوصا ما ورد فى (ع ٦ و ١٤)، اللتين يشبّه فيهما المرنم جنود شاول التى أحاطت ببيته تقذف حمم تهديداتها وتصب من لعنتها، بكلاب أثيمة تجوب شوارع المدينة نهارا وليلا تنظفها من كل

[١] أو «نحوك أنتظر» أو «أراقب»، حسب الترجمة الإنجليزية.

[٢] أو قصيدة.

عظامها وفضلاتها، وتملأ الفضاء بنباحها ليلا:

يعـــودون عنـد المســـاء، يهـــرون مـــثل الكـلب

ويـــــدورون فـــــى المـــديـــــنـــــة

هـوذا يبـــــقــــــون بـأفــــــواهـهـم

وبالرغم من ذلك، يبقى داود فى بيته «يلتجىء» إلى الله و«يرنم» له من أجل رحمته فى الصباح.

(١) الحوادث التى أدت إلى مهاجمة داود هذه الليلة فى بيته:

لدى رجوع الجيش منتصرا من وادى البُطْمِ، خرجت الأرض كلها لتحيته، فالحاصدون أوقفوا عملهم فى الحقل، والكروم أقفرت من النساء اللاتى كن يلتقطن العنب والرجال الذين كانوا يدوسونه فى المعاصر. والحماسة نشرت ألويتها من القرية إلى المدينة، والنساء خرجن من كل مدن إسرائيل بالغناء والرقص بدفوف وبمثلثات للقاء الملك شاول. ومن وسط هتاف النصرة، انبعث هذا النداء الذى تضايقت منه نفس شاول جدا:

ضــــــرب شـــــــاول ألــوفــــــه

وداود ربـــــــــــــواتــــــــــه

فى تلك الساعة، تحركت فى قلب شاول عاطفة الغيرة والحسد، وظهرت اللطخة الحشرية على ثمرة أخلاقه الجيدة، تلك اللطخة التى كانت السبب فى إفساد كل الثمرة. يا لسعادته لو أنه داس تلك الشرارة الجهنمية تحت قدميه أو أطفأها فى بحار الصلاة. ولكنه زادها اشتعالا حتى أحرقت الزرع والضرع، «فاحتمى شاول جدا وساء هذا الكلام فى عينيه... فكان يعاين داود من ذلك اليوم فصاعدا».[١]

على أن شاول لم يقف عند حد الغيرة والحسد، ولكنه أقام نفسه لمقاومة مقاصد الله. فإن صموئيل قد أخبره بكل وضوح أن الرب «يمزق مملكة إسرائيل عنه ويعطيها لصاحبه الذى هو خير منه».[٢] ولا شك فى أنه عندما رأى الغلام عائدا برأس جليات فى يده، وعندما سمع غناء نساء إسرائيل، ملأ الخوف قلبه، وأيقن أن هذا هو الملك المنتظر المعيّن من قِبَلِ الله. ولعله قال لنفسه، كما ناجى – من بعده – هيرودس نفسه أيضا: «مهما يكن فأنا

[١] انظر ١ صم ١٨ : ٨ و ٩ (مكتبة المحبة).

[٢] انظر ١ صم ١٥ : ٢٨ (مكتبة المحبة).

الملك، وسوف أعمل على عدم تحقيق هذه النبوة. إن رجلا ميتا لا يستطيع أن يملك، وهنالك طرق كثيرة خلاف القتل المباشر لإعدام الإنسان، ولكن لابد من قتله». لقد توهم بأنه لو استطاع إعدام حياة داود لتعطلت مقاصد الله وأُبطلت نبوة صموئيل.

لم يكن هو آخر من نزل إلى ساحة الوغى ليحارب الله فسُحق فى محاولته. لا يمكن أن ينسى واحد ممن درسوا التاريخ تصريح يوليانوس الكافر [الذى لم يكن إلا عينة من ألوف غيره]، عندما صرخ قائلا: «لقد غَلبتَ - أيها الجليلى».

كانت عاطفة سفك الدماء، الكامنة فى قلب شاول، تحاول إشباع نفسها بطرق كثيرة. وفى اليوم التالى، بينما كان داود يحاول أن يهدّىء من روعه بقيثارته، أشرع شاول الرمح نحوه مرتين ، ظنا منه بأنه إن أصابه بالرمح، قد ينسب الآخرون هذا العمل لروح الجنون الذى كان يسوده أحيانا، ولكنه فى كلتا المرتين أخطأ المرمى، ورشق الرمح فى الحائط بدلا من قلب داود.

بعد ذلك، انتدبه شاول لمهمة مريبة خطيرة، «وجعله رئيس ألف»، مؤملا بأن هذه الترقية الفجائية لهذا المركز العالى المحفوف بالمخاطر قد تخبل عقله، وتؤدى به إلى ارتكاب أية خيانة يستحق من أجلها قصاص الموت. ولكن داود تصرف بحكمة فى كل خطواته، متجنبا كل عثرة، ومبتعدا عن كل الفخاخ، حتى إن الملك الذى كان يراقبه عن كثب ليسجل عليه سقطة، اقتنع اقتناعا كليا بأن الرب حصن له، وامتلأ قلبه خوفا من جهته، «فلما رأى شاول أنه مفلح جدا فزع منه».

ومن ثم عرض عليه رأيه أن يزوجه ابنته الكبرى، وعندما حان وقت الزفاف، عدل عن رأيه بمكر. وكانت الفكرة أن يحرك فيه روحه الثائرة، فيطلب الانتقام لنفسه، أو يطلب تعويضا، وبذلك يعرّض نفسه لتهمة التمرد على الملك. ولكن كل مجهوداته ذهبت أدراج الرياح، لأنه لم يستطع أن يحرك فيه أقل عاطفة للانتقام.

وعندما نصب له شركا آخر، إذ قدّم له ابنته الثانية ميكال كأجر له إذا قتل مائة فلسطينى، كان يريد أن يزج به فى عراك عنيف لا يمكنه النجاة منه إلا بمعجزة. ولكن داود عاد بدون أن يصاب بأى خدش ومعه ضعف العدد المطلوب، فازداد حب الشعب له.

وإذ شعر شاول بفشله، وازدادت نيران الغيرة والحسد تأججا فى صدره، كلم يوناثان وكل

عبيده أن يخلصوه من رؤية داود المزعجة لنفسه. ولكن هذه الطريقة لم تفلح أيضا بطبيعة الحال، لأن «يوناثان سُرَّ بداود جدا»، وجميع إسرائيل ويهوذا أحبوه، لأنه كان يخرج ويدخل أمامهم. ووقف يوناثان حقا في الثغرة ليحوِّل غضب أبيه عنه، واستطاع أن يأخذ منه وعدا بعدم قتل صديقه. ولكن توسلاته وحججه لم يكن لها إلا نتيجة وقتية. لأنه بعد ذلك بقليل، بينما كان داود يضرب بقيثارته، محاولا أن يطرد الروح الرديء عنه، شرع الرمح نحوه مرة أخرى محاولا أن يطعنه به، ولكنه نجا منه أيضا. وفي المساء هرب داود بنفسه، وأسرع إلى زوجته وبيته. وإذ صمم شاول على قتله «أرسل رسلا إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح». كان هؤلاء الرسل هم الرجال الذين شبههم بالكلاب كما رأينا من قبل.

فخلَّصت ميكال زوجها بذكائها وسرعة حيلتها، إذ أنزلته من الكوة، فذهب هاربا ونجا، وأخذت الترافيم [تمثالا] ووضعته في الفراش وغطته بثوب، وأوهمت رسل شاول بأنه مريض. وعلى أي حال، فإنه لم يكن هنالك مبرر للالتجاء إلى الترافيم أو الخداع لإنقاذ حياته من غضب أبيها، لأنه بعد ذلك بقليل، لما شرع الملك في اختطاف غريمه من وسط الكلية المقدسة،[1] بل من حضرة صموئيل نفسه، مرسلا إليه ثلاث طوائف من رسله، شلَّت قوة الرسل أجمعين بتأثير إلهي، وأُلقِيَ القبض على شاول نفسه، الذي خر صريعا أمام قوة روح الله، وانطرح على الأرض عريانا (١ صم ١٩ : ٢٤).

لا شك في أن هذا كان اختبارا عجيبا لداود. أمام العين الجسدية، لم يكن هنالك قط ما يمنع رسل شاول، أو شاول نفسه، من إلقاء القبض على داود. ولكنه بالإيمان، أدرك أنه كان محفوظا في مظلة لا يمكن الاقتراب منها، ومختبئا تحت جناح غير منظور، وكما أن الهواء – وهو غير منظور – يملأ جرس الغواصين وينجي من فيه من بتدفق المياه إليه، وكما أن تيار الكهرباء، عندما يسري فوق مجموعة من الجواهر، يحميها من أيدي الناهبين، وكما أن رهبة عظمة المسيح طرحت الذين ألقوا القبض عليه إلى الأرض، هكذا كانت حضرة الله تحيط بصموئيل وداود وتحميهما؛ وهكذا لا يزال الله مستعدا أن يفعل لكل واحد من أولاده المضطهدين.

---

[1] يشير إلى «جماعة الأنبياء»، أي المدرسة التي كان يتعلم فيها بنو الأنبياء (١ صم ١٩ : ٢٠ إلخ).

يخـــبــــئنى فى مظـلتــــه فى يـوم الشــــر
يســــتـــرنى بســــتـــر خــيـــمـــتـــه
علـى صـــــخـــــرة يـرفــــــعـنى

(مز ٢٧ : ٥)

(١) ثبات داود وسط هجمات أعدائه:

إن هذا الإنسان الذى ظل يطارَد زمنا طويلا، يقدم دروسا لكل البشرية، لقد كان شاول عدوه الألد، وكم من شراك وفخاخ نصبها له من كل ناحية. صحيح أن الشمس أشرقت عليه بنورها الكامل فى بعض أيام حياته، ولكن معظم أيامه كانت ملبدة بالغيوم القاتمة، وتهب عليها العواصف القاصفة. فى لحظة تهتف له نساء إسرائيل، وفى لحظة أخرى يُنتَزع من زوجته ويشرَّد من وطنه إلى حيث لا يعلم. لكن قلبه فى كل الظروف كان ثابتا ومطمئنا، بل يهتف فعلا ويتهلل بالتسابيح، كما يتبيّن من الآية الأخيرة من هذا المزمور (٥٩): «يا قوتى لك أرنم لأن الله ملجأى إله رحمتى» ... وماذا كان سر ثباته؟

(١) كان السر فى ثباته أولا اعتقاده فى صفات الله. كان الله «قوته»، وهذه تبيِّن أن الله كان فيه فى الداخل. وكان الله أيضا «ملجأه»، وهذه تبيِّن أن الله كان حوله من الخارج. كان ملكا لله، وكان محاطا بالله. كان الله فيه وهو فى الله. لم تكن هنالك حاجة يشعر بأنها تنقصه، ولم يكن هنالك خطر يشعر بأنه ليس فى مأمن منه. يا لها من فكرة سامية تجدها هنا . أنت تشعر بأنك أضعف من أن تقوم بالمأمورية الخطيرة التى ألقيت إليك، وتظن بأنه كان الأجدر أن توكل إلى أفاضل القوم الذين تعرفهم، ومع ذلك فقد وضعت بين يديك، فتصرخ من جدعون قائلا: «يا سيدى بماذا أخلِّص إسرائيل؟ ها عشيرتى هى الذليلة فى منسّى، وأنا الأصغر فى بيت أبى». حينئذ يعلن الروح القدس إليك الله القدير كقوة لكى تقبله فى قلبك، كمصدر لقوة جديدة سماوية تتغلب على كل صعوبة وتذلل كل عقبة. أصغ إلى تهليل الرسول وهو يضع الأعمال الخطيرة والعقبات فى كفة واحدة، ثم يردد بثقة كاملة: «أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى»؛ يا أضعف الضعفاء، اذكر يسوع المسيح، واتخذه قوة حياتك تقوى، نعم.. تقوى بالنعمة التى فى المسيح يسوع.

أو ارجع إلى فكرة أخرى. انظر أولئك الجنود الهاربين الذين يطاردهم الأعداء بكل

عنف، وإذ رأوا قبالتهم حصنا حصينا جدا كافٍ لحمايتهم لو استطاعوا الوصول إليه، بذلوا كل الجهد حتى صعدوا إليه، وعبروا القنطرة الموصلة إليه، واخترقوا الحواجز، واندفعوا إليه، فأيقنوا أنهم فى أمان. إن الله حصن حصين للنفس التى تعلمت أن تضعه بينها وبين كل شيء. ليس مطلوبا منا حتى الهرب والركض إليه، لأن ذلك يتضمن إننا كنا قد ابتعدنا عنه، بل المطلوب منا أن نثبت فيه، أن نثبت فى الحرية التى حررنا بها، أن نوقن بأننا طالما نحن ثابتون فى الله، فإننا فى أمان تام مهما قال الشيطان أو ثار.

إذا ما تحققنا كل هذا، وأضفنا الفكرة الأخيرة التى يختتم بها المرنم مزموره (٥٩)، المتضمنة بأن الله هو ينبوع الرحمة، إذا ما كانت لنا جرأة الإيمان وأيقنا أن هنالك رحمة فى بغض شاول، رحمة فى المصاعب والآلام التى تصادفنا، رحمة فى السحب التى تجعل جونا قاتما، وفى العقبات التى نلتقيها فى طريقنا، رحمة فى أقسى الظروف وأمرّها، حينئذ نستطيع أن نغنى ونرنم، نستطيع أن نردد القول مع داود:

أما أنا فأغنّى بقوتك

وأرنم بالغداة برحمتك

لأنك كنت ملجأ لى

ومناصا فى يوم ضيقى

(مز ٥٩ : ١٦)

(٢) ثم كان السر أيضا فى وجهة نظره نحو الله «من قوته [أو يا قوتى] إليك ألتجىء [أو نحوك أنتظر أو أراقب]» (ع ٩). والكلمة «ألتجىء» تستعمل فى اللغة العبرية للتعبير عن الراعى إذ «يراقب» قطيعه، عن الناظور فى برجه، عن الحارس فى حراسته. هل هذه هى وجهة نظرنا على الدوام؟ كثيرون يصلّون، ولكنهم لا يتطلعون إلى السلم الذى تنزل عليه الملائكة محملة بالجواب من السماء. كثيرة هى السفن التى تمر علينا ليلا مشحونة بالخيرات الجزيلة التى نصلى من أجلها، ولكنها لا تجدنا منتظرين هناك لنتسلمها. كثيرة هى الإمدادات التى تمر علينا برماحها وخوذاتها، ولكن أبوابنا مغلقة. كم من حمامة تأتى إلى كوننا من غمر المياه، ولكننا منغمسون فى مشاغل أخرى فلا نفطن إلى نقراتها الخفيفة. إننا نصلى، ولكننا لا ننتظر ولا نراقب. نحن

نطلب، ولكننا لا نؤمل أن ننال. نحن نقرع، ولكننا ننصرف قبل أن يُفتح الباب.

فلنتعلم هذا الدرس: إننا يجب أن نراقب الله، أن ننتظر الرؤيا، أن ننتظر حتى يأتى صموئيل، أن نوقن بأن من علمنا الرجاء لا يمكن أن يخيب لنا رجاء، أن نثق بأنه لن يخزى منتظروه، أن نتقدم إليه بالإيمان، أن نعلم بأن لنا الطلبات التى نطلبها. بل وما هو أكثر من ذلك: أن نتسلمها ونوقن أنها فى حوزتنا ولو لم يكن فى داخلنا شعور بامتلاكها.

هذا هو الالتجاء لله وانتظاره، هذا يحفظنا هادئين وثابتين مهما زمجرت حولنا الشرور والمخاوف، بل هذا يحوّل «انتظارنا» إلى «ترنم».



الفصل التاسع

رسالة السهام (١ صم ٢٠ : ٢١ - ٤٢)

مـهـمـا اشـتـدت مـقـاومـات الأعـداء
أو إغـــــراءات الأصـــــدقـــــاء
فـــالـقـلـب ثـابـت علـى الـرجـــاء
طالما كـــان هو المرشـــد والسند والعـــزاء

ج. م. نيل

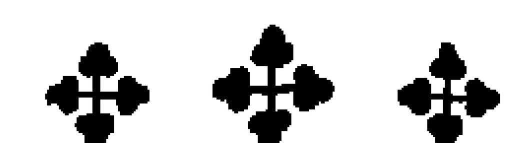
كان ليوناثان تأثير عظيم على أبيه. فإن شاول لم يكن «يفعل أمرا كبيرا ولا أمرا صغيرا إلا ويخبره به» (ع ٢). من أجل محبته لأبيه، ومن أجل سلامة أبيه، كان شديد الرغبة فى عقد مصالحة بين من كان يدين له بالولاء كابن وكأحد رعاياه، وبين ذلك الشاب الراعى الذى يحسن الضرب بالعود والبطل فى الحروب، الذى سجل لنفسه اسما بين الأبطال منذ أمد وجيز. لقد كان يوناثان على الأرجح جدا يكبر داود بسنوات كثيرة، ولكن محبته الطاهرة النقية التى كانت تتدفق فى صدره لم تعقها السنون والأعمار. لقد تحدث مع أبيه أكثر من مرة عن صديقه، محاولا التأثير عليه لكى يحلف له بأن لا يقتله، حتى إنه عندما عاد داود فورا من نايوت، تاركا شاول تحت تأثير النبوة بين الأنبياء، وسأل يوناثان: «ماذا عملت وما هو إثمى وما هى خطيتى أمام أبيك حتى يطلب نفسى»، ويضمر لى هذه العداوة المرة، مؤكدا له إنه كخطوة بينه وبين الموت، لم يتردد يوناثان عن أن يؤكد له استعداده لإتمام كل ما تشتهيه نفسه، «فقال يوناثان لداود مهما تقل نفسك أفعله لك» (ع ١ - ٤).

وفى المساء السابق لعيد رأس الشهر، دعا شاول رؤساء مملكته إلى الوليمة. واتفق الصديقان على أن هذه فرصة سانحة لمعرفة شعور شاول الحقيقى. فاقترح داود أن يتخلف عن الوليمة الملكية، وعوضا عنها يزور بيت أبيه فى بيت لحم. كان ميسورا له أن يفعل ذلك ويعود فى اليوم الثالث، وفى نفس الوقت، يجس يوناثان نبض أبيه ويلاحظ لهجة كلامه، ويعرف شعوره نحو داود إن كان للخير أم للشر.

أبرمت المواد الأولية لهذه الخطة داخل جدران القصر. ولكن كانت هنالك بعض أسرار يتبادلانها بأكثر حرية، أحاديث يتجاذبانها ويسكبان فيها نفسيهما، عهد يقطعانه بين بعضهما، وسائل للتفاهم تُرتَّب في الخفاء. ولذلك وجدا إنه من الأنسب أن يتما الحديث في الخلاء، حتى لا تشهد الدموع السخينة، ويسمع انفجار الصديقين في البكاء، إلا الغابات الجامدة التي لا قِبَلَ لها على نقل أي حديث. كان هنالك فعلا شاهد آخر، لأن يوناثان كان ممتلئا بروح التقوى، وكان من عادته أن يعيش حضرة إله إسرائيل، لذلك فقد أشهد الله عليه، عندما فتح قلبه لصديقه وتوسل إليه أن يعامله بالحق والأمانة، وأن لا ينسى حقوق الصداقة، ولا يقطع معروفه عن بيته عندما يقطع الرب أعداء داود جميعا عن وجه الأرض في المستقبل (ع ١٢ – ١٥).

يقينا إن موقعة جبل جلبوع الفتاكة قد سبقت وخيمت على قلب يوناثان بظلمة قاتمة، وأحس بأن الوقت لابد آتٍ حيث يرتقي داود إلى العرش، وقد يوعز إليه المجرب فكرة إبادة كل منافس له من ورثة يوناثان، وذلك باستئصال البيت الملكي. وفي قرارة نفسه، طلب من داود أن يحلف له ثانية، ثم اقترح تلك الفكرة السامية التي يعبِّر فيهاحديثه مع غلامه عن ذلك السر الذي إما أن يدفع داود إلى صخرة الأمان والسلام، أو يهوي به إلى بالوعة اليأس (ع ١٨ – ٢١).

ونحن إذ نقرأ هذه الرواية، يتمثل أمامنا سعاة البريد الذين يحملون الرسائل البريدية، وهم يجهلون مقدار ما ستحدثه من تأثير في نفوس الذين يتسلمونها، ففي البعض تحدث تلك الرسائل نشوة الفرح والغبطة والسرور، وفي الآخرين تحدث ألما ممضا وحزنا وغما. لا زالت السهام تطير إلى الآن، ولا زال الغلمان الصغار يقومون بمهمتهم نحو تلك السهام، وهم لا يدرون شيئا عن مهمتهم هذه، وكثيرا ما قصرت السهام في الوصول إلى المرمى، وفي أحيان أخرى تتخطاه وتبتعد عنه، وما أكثر المرات التي فيها تبتعد عنه وتتخطاه. إيه أيها الذراع القوي! لماذا تقذف بها بكل هذه القوة؟ وأنت أيتها الرياح! لماذا تحملينها بهذه السرعة؟ إن القلب يخفق كلما سمع القوس يقذف بالسهام. وحياة الكثيرين من البشر تتشكل حسبما تقع تلك السهام، فهي إما أن تقصر دون الوصول إلى الهدف ببضعة أمتار، أو أن تتخطاه ببضعة أمتار.



(١) كانت السهام تعبّر عن وقوف صديق نبيل وقوى فى الثغرة :

كان يوناثان نبيلا من الدرجة الأولى، وكانت حياته أشبه بحجر كريم شديد التألق، فقد كان لا يبارَى فى استعمال الأسلحة، جريئا جدا فى ساحة الوغَى، أسرع من النسر، وأقوى من الأسد. ومع ذلك، كان رقيقا كالنساء، وفيا لصديقه، يبعث فى نفس رفيقه محبة قوية حتى أن حامل سلاحه تجاسر أن يواجه جيشا بجانبه، ثابتا جدا فى مبادئه حتى أنه ظل ملازما لأبيه فى فشله، ولو تحمل من ذلك الأب كل ما تنطوى عليه الغيرة والحسد من إهانات مرة وبغضة كريهة.

لم يكن بالأمر الهيّن ما تعهد به يوناثان بعهد الصداقة. ولعله كان مستعدا لثورة الغضب التى كان يتوقعها بعد احتجاجه الجرىء من أجل صديقه المتغيب. فى اليوم الأول، لاحظ شاول تغيب داود، ولم ينطق بكلمة. وفى اليوم الثانى، إذ لاحظ أن مكان داود لا يزال شاغرا، تحوّل بغضب نحو يوناثان وتساءل عن السبب : «لماذا لم يأت ابن يسى إلى الطعام لا أمس ولا اليوم؟» وللحال، قدّم يوناثان الإجابة السابق الاتفاق عليها، المتضمنة رغبة داود فى زيارة أسرته، وأضاف إلى ذلك أنه هو شخصيا أعطاه إذنا بذلك. وكانت هذه الإجابة سببا فى انفجار بركان غضب شاول على يوناثان. ولقد كانت ثورة غضبه متناهية فى الشدة، فإننا، إذ نراه يشير إشارة لاذعة لأم يوناثان، وهى زوجته، كسبب لتمرد ابنه، ويوجه تعبيرات قصد بها أن يفرّغ فى قلب ابنه نفس السم الذى كان يملأ قلبه هو شخصيا، وأنفذ إليه أمرا بالبحث عن داود فورا ليُقتَل، نجده يبيّن بكل صراحة بغضته الشديدة، وعزمه على نزع حياة ابن يسى من الأرض. أما يوناثان، فقد حاول مرة – عبثا – أن يحاج الملك فى ثورته، كأنه يحاول أن يوقف فوران نهر الأردن وقت فيضانه. وإذ احتدم غضب الملك، وانتابته نوبة انفعال شديدة «صابَى الرمح نحوه ليطعنه». حينئذ علم يوناثان إنه يجب أن يتوقع أسوأ الفروض «وقام عن المائدة بحمو غضب لأنه اغتم على داود لأن أباه قد أخزاه».

لا تستح من صديقك. لا تعتبر أى شخص صديقا لك إن كنت تستحى ذكر اسمه، أو إن كنت تخجل من صداقتك له. ولكن، عندما تتحد نفسك بنفس أى شخص أحببته،كما أحب يوناثان داود، فكن جريئا ولا تنكر صداقتك له، مهما كلفك ذلك من تضحية فى راحتك، أو فى علاقاتك بأولئك الذين لا يعرفون صديقك كما تعرفه أنت، وإن كان صديقك فقيرا أو

مجهولا أو مرذولا، فإن هذا أدعى أن تتمسك به ولا تتخلى عنه. إذا وُجد المرء وسط جماعة من أولاد العالم تسودهم روح الزهو والكبرياء، فمن الشهامة ومن النبل أن ينتصر لقضية نبيلة، ولو لم تحز رضاء أحد. أن يتجاسر على الدفاع عن أحد خدام الله وقد افتُرِيَ عليه ولكنه برىء، أو عن رفيق غير مصقول لكنه نقى. كل هذا يدل على أمانة وإخلاص ونبل الشخص الذى ينتصر للضعيف ويعترف به. إن مقاومة الحصن أيسر من احتمال الاستهزاء المستور ونظرة الاحتقار.

والأنبل من ذلك، أن يتجاسر المرء على الاعتراف بولائه للرب يسوع وسط أية جماعة. إن يسوع الآن مجهول من كثيرين كداود، ومحتقر من الكثيرين، واسمه ليس شائعا بين الكثيرين، وإنجيله يحرِّفه الكثيرون، وأتباعه معرضون للازدراء والتوبيخ والهوان. فى هذه الأيام، لابد للمرء أن يضحى بالكثير إذا شذ عن المألوف بين عامة المسيحيين. ولأجل هذا، يجب أن لا نتقهقر إلى الوراء مطلقا، بل إن كنا موقنين أنه سيعترف بنا أمام أبيه وأمام الملائكة، فيجب أن لا نخجل من اسمه. لقد دلت سهام يوناثان على أنه لم يتردد فى الاعتراف بداود، وإن انفرد هو وحده بهذا الاعتراف. فلنؤكد للمسيح – ولو كان متواريا عن عيوننا الجسدية – أننا مستعدون لتحمل الهزء والعار والموت من أجل اسمه المبارك.

ولا تستح من الدفاع عن الحق. كم من المرات وسوس روح الأدب والاحتشام فى صدورنا بهذه الكلمات المعسولة: «دع هذا الأمر يجوز بسلام، وانتظر حتى ينتهى وقت تناول الطعام. لا تعرِّض نفسك لأنظار الجميع وانتقاداتهم، انتهز فرصة الاختلاء بصديقك حتى توبخه منفردا، لا تنطق بكلمة، بل هدِّىء روعك وانتظر حتى ترى ماذا يمكن عمله.» أما يوناثان، فقد سلك الطريق النبيل. لقد كان الطعام الشهى موضوعا أمامه، ولكنه لم يمسه. وكانت الكأس فى يده، ولكنه لم يقربها من شفتيه. وكان أبوه أمامه، ويتطلب الأمر أن يحترمه ويوقرّه كأبيه، وأن يَرهَبه كملك فى يده سلطان الحياة والموت. ولكنه لم يستطع السكوت. لو أن الأمر كان مجرد مراعاة مركزه أو احترامه، أو منتهى التأدب والاحتشام والتوقير اللائق بالسن، لكان هو أول من يضع يده على فمه ويصمت. ولكن القضية كانت قضية الحق والبر والعدل. ولو أنه صمت، لنطقت ضده الحجارة التى فى الحائط، وخسر هو راحة الضمير.

ولعل سائلا: «أليس من غير اللائق الاعتراض على آراء من هم أكبر منا سنا وأوسع

علماء؟» نعم، ولكن هنالك فرقا شاسعا جدا بين آراء واهية هى أقرب ما تكون إلى نسيج العنكبوت، وبين آراء مؤسسة على مبادىء الحق والفضيلة والعدل التى يزكيها الضمير. وعندما تدافع عن هذه الآراء، فإنك لا تحاول التدليل على صلاحك أو اكتساب أية منفعة، ولكنك إنما ترفع العلم لئلا يداس فى التراب. فلتشهد السهام على بساطتك، وتمسكك بكل ما هو طاهر وكل ما صيته حسن.

(٢) وكانت السهام تعبّر عن خطر داهم :

لقد «علم يوناثان أن أباه قد عزم على قتل داود». وبينما الغلام راكض، رمى يوناثان السهم حتى جاوزه «الغلام ذهب وداود قام من جانب الجنوب وسقط على وجهه إلى الأرض وسجد ثلاث مرات. قبّل كل منهما الآخر وبكى كل منهما م صاحبه حتى زاد داود». لم يكن هنالك ما يدعو يوناثان أن يوضح الأمر، فإن داود علم أن الرب قد أطلقه (ع ٢٢).

«السهام دونك فصاعدا» . لقد كنت ترجو على غير الرجاء، كنت تحاول الاحتفاظ بمركزك، لقد أتممت الواجب عليك، دافعت عن قضيتك، طلبت معونة أصدقائك بالتوسل من أجلك، صليت، بكيت، اكتأبت، ولكن ذلك كله عبث. فإن انطلاق السهام يدل على أنك يجب أن تنطلق حيثما شئت. من ورائك الصبح المشرق الجميل، وأمامك جو قاتم. من ورائك تمتع سعيد بالأصدقاء والزوجة والوطن ومحبة الملك وثقة الشعب، وأمامك حياة شريدة طريدة منبوذة. ولا شك فى أن القلب ينجذب نحو الأشخاص المعروفين والمحبوبين. على أن رسالة هذه السهام لا يمكن مقاومتها. ليس أمامك إلا أن تنتزع نفسك، تضع حياتك فى كفك وتخرج، ولو كنت لا تعلم إلى أين تذهب. لكن، إليك هذه التأملات لتعزيتك:

(١) هنالك أشياء لن نتركها وراءنا ولن نخسرها:

كان داود واثقا من أنه لن يخسر محبة صديقه، وولاء الشعب، وذكرى صلاح الله، واختباره فى عنايته الحارسة المخلّصة، وشعوره برفقة الله الذى كان يراه عن يمينه فى كل حين، ومزاميره التى نسقها لنفسه وللعالم بأسره. هنالك خيوط نُسجت فى ثوب حياتنا لا يمكن انتزاعها أو قطعها.

---

[١] ع ٤١ (مكتبة المحبة).

(٢) وهنالك مقاصد إلهية تحدد كل طرقنا:

لم تكن عملية رمي السهام سوى شذوذا من الأمير في نظر الغلام. ولعله إذا سئل عما كان يفعله حينذاك، لأجاب: «إنني ألتقط سهام الأمير ونحن عادة نخرج للصيد، أما اليوم فإنه يلهو بها.» كان هذا كل ما يعلمه. فهو لم يكن في استطاعته أن يتكهن بغرض سيده، وبالأولى لم يكن في استطاعته أن يدرك كل سهم يطير، إنما هو مأخوذ من كتف الله - على حد تعبير البشر - وملقى بيده. إنه لا مجال للصدفة في حياة الصالحين. فلنتأكد أن العناية الإلهية تتدخل حتى في أتفه الأشياء. ولنتيقن أن وراء كل سهم يطير قصدا ساميا تسنده محبة أبينا السماوي، وإنه يريد «أن يطلقنا».

(٣) إن الخروج من الوطن وترك الوظيفة أمر ضروري للحصول على سعادة أسمى من تلك كان نتركها:

لو أن داود بقي في القصر الملكي لكان قد خسر حياته، وخسر كل الأمجاد والبركات التي فاض بها كأسه في السنوات التالية. كان هذا هو الطريق للعرش. كان هذا هو الطريق الوحيد الذي به تتحقق تلك العبارة التي همس به صموئيل في أذنه منذ بضع سنوات. كان هذا الطريق الجبلي بوعورته، هو الطريق للوادي السعيد. لقد حرك العش لكي يقوى داود على الطيران. ولقد نُقلت خمر حياته من آنية لأخرى لكي تزداد نقاوة. ولقد نُزعت دُعامة الشجرة لكي تقف الشجرة بمفردها.

إذن، فتتبع طريق السهام. من ورائك تلك الدائرة الدافئة التي احتميت فيها طويلا. من ورائك أرض الجنوب، وأمامك أرض الشمال بثلوجها. من ورائك ماضيك المعروف، وأمامك المستقبل المظلم المجهول. اخرج إلى الأرض التي يريك الله كإبراهيم. أدر سفينتك إلى ناحية غروب الشمس مثل كولمبوس. لتكن لك ثقة داود الذي قال:

إنك لن تترك نفسي في الهاوية

لن تدع تقيك يرى فسادا

تعرفني سبيل الحياة

(مز ١٦ : ١٠ و ١١)

(٣) وكانت السهام تعبّر عن ضرورة تحمل المحبة البشرية لآلام الفراق :

كان هذا آخر اجتماع يلتقى فيه الصديقان النبيلان قبل انقضاء فترة طويلة، لأنهما لم يلتقيا بعد ذلك سوى مرة واحدة قبيل موت يوناثان. لقد كانا واثقين من أنهما سيفترقان إلى حيث لا يتلاقيان. إن نفس داود الحلوة، ولذلك استحلف داود بذلك القسم المؤثر أن يكون أمينا نحو نسله، وأن يذكر محبتهما عندما يبيد الله كل أعدائه. وأخيرا، قال له يوناثان: «اذهب بسلام»، كأنه لا يطيق آلام ساعة الفراق. «اذهب بسلام، لأننا كلينا قد حلفنا باسم الرب قائلين: الرب يكون بيني وبينك وبين نسلي ونسلك إلى الأبد». ثم قام داود، وارتحل كشريد طريد، عرضة فى أية لحظة للقبض عليه والبطش به. أما يوناثان، فعاد حزينا مهموما إلى القصر الملكى لقضاء بقية حياته مع من لا يبالى بأسمى مبادئه، بل مع من آثار أرق عواطفه.

هذه هى الساعات التى تُترك فيها القلوب دامية، وتشيب لهولها الرؤوس. إن العالم فى اندفاعه، لا يبالى بالمآسى التى تحصل حوله. فالشباب يتألم حتى يكتظ بالآلام، والشيوخ لا ينسون ما حل بهم من شجون وأحزان. وبعد منظر كهذا، لا يمكن إلا أن تنهمر الدموع من العيون كلما مرت الذكريات بالمخيلة. على أن المسيح يأتينا فى تلك اللحظات الأليمة، كما طمأن قلوب تلاميذه فى القديم إذ تثقلت نفوسهم باقتراب ارتحاله عنهم «لا تضطرب قلوبكم ... آمنوا بى». وهل بعد هذه من تعزية؟ إن كنا نؤمن بأنه يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، وندرك بأن محبته تتخلل كل حركة تخرج من بين يديه، وكل فكرة تخرج من فكره. إن كنا نتكىء على صدره، ونتكل عليه كل الاتكال. عندئذ تهون علينا ساعة الفراق، ونجد بيننا وبين من افترقوا عنا صلة قوية لا تقوى عليها عوامل النسيان.



الفصل العاشر

أشرف على الهلاك (١ صم ٢١؛ مز ٥٦)

ومهما أصابك من شرور فى الحياة
فلا تحاول أن ترسم لنفسك طريقا للنجاة
كن أمينا لله وألق كل همك عليه
فإنك لابد أن تجد الخلاص فى النهاية

ترنش

ليس السير مع الله أمرا هينا، فما أضيق الباب، وما أكرب الطريق، والهواء حول أ عالى قمم جبال الشركة الإلهية يندر وجوده، ويصعب استنشاقه، الأقدام البشرية تعيا بعد قليل، والإيمان يميل إلى التوقف عن متابعة السير مع الله. هذا ما اختبره داود؛ فقد مرت عليه فترة أليمة جدا، يجدر بنا التأمل فى الخطوات التى أدت إليها، فى نتائجها، وكذا فى تخلصه منها.

(١) خطوات ضعف داود :

كانت العلامة الأولى على ضعفه، ملاحظته ليوناثان "إنه كخطوة بينه وبين الموت» (١ صم ٢٠ :٣). واضح من هذه الكلمة أن إيمانه قد بدأ يضعف، لأن الله سبق أن أكد له تأكيدا لا يدع سبيلا للشك، بأنه لابد أن يتبوأ عرش الملك. لقد نظر إلى الله فى ظلمة الظروف الحالكة التى كانت تنذر بالخطر المحقق لدى النظر إليها بالعين المجردة، بدلا من أن ينظر إلى الظروف فى ضوء معونة القدير. لقد كانت العواصف والأمواج تزعجه أكثر مما كانت تطمئنه مواعيد الله؛ لقد كان رمح شاول يلاشى من عقله ذكريات الساعة التى اقتبل فيها مسحة الدهن من يد صموئيل. يخبرنا الرسول يوحنا، أنه ليس كافيا أن ننال هذه المسحة مرة واحدة، بل يجب أن تستقر علينا وتثبت فينا، وهذا ما تم مع مخلصنا؛ فإن المعمدان رأى الروح نازلا «ومستقرا عليه»، ولكن، لعل داود اتكل كلية على ما ناله، وأهمل واجبه اليومى نحو الامتلاء، يوما فيوما (يو ١ :٣٣ و ٣٤ و ١ يو ٣ :٢٤).

أما الخطوة الثانية؛ فإنه التجأ إلى الخداع والمواربة، الأمر الذى لا يليق به، ولا يتفق مع صديقه الأعظم، ربه وإلهه. كانت هذه خطوة أخرى فى سبيل انزلاقه من مكانته السامية وشركته السماوية. الله نور، والنور حق، وعلى الذين يسلكون معه، أن يخلعوا أعمال الظلمة، ويلبسوا أسلحة النور، ويسلكون كأبناء النهار.

فى مساء اليوم السابق للسبت؛ وصل صهر الملك (أى داود)، ومعه جماعة من أتباعه إلى مدينة نوب الصغيرة، الواقعة بين الجبال، والتى تبعد عن جبعة نحو خمسة أميال إلى الجنوب. كانت تلك المدينة تقع فى موقع منعزل هادئ؛ بعيد عن الطرق التجارية والحربية، يتناسب مع أخلاق سكانه الذين كانوا يهتمون بخدمة الأقداس. كان يسكن هذه المدينة ستة وثمانون شخصا، ممن يلبسون الأفود، يعيشون فى حياة هانئة مع زوجاتهم وأولادهم وأطفالهم، ولهم كفايتهم من ثيرانهم وحميرهم وغنمهم. فى ذلك المكان الهادئ، المنعزل، المقدس؛ لم يكن يُسمع شئ من ضجيج العواصف التى كانت تجتاح العالم الخارجى؛ لم يكن متوفرا فيه على الأقل، ما يدفع به غزو أضعف الجنود، لأنه لم توجد فيه أسلحة مطلقا سوى سيف جليات، الذى كان قد أودع هنالك منذ بضع سنوات كعلامة لنصرة بطل إسرائيل الشاب. لعل الاجتماعات العظيمة السنوية التى كانت تقام فى تلك المدينة، قد أبطلت، ولم يتردد عليها سوى الزائرين بين حين وآخر - كدُواغ- [١] الذين يأتون للوفاء بنذورهم، أو ليتطهروا من نجاستهم، حسب وصية الناموس. من هذا يتضح أنه لم يكن هنالك استعداد لإطعام عدد كبير، فإن نصيب الكهنة الضئيل، كان بالكاد يكفيهم، وإذا ما نزل عليهم ضيفان أو ثلاثة، شعروا بشئ من الضيق، فإنهم لم يجدوا خمسة أرغفة من الخبز العادى لتقديمها لضيوفهم.

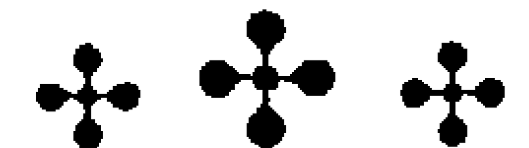
لما تقدم داود إلى أخيمالك، الكاهن، اضطربت نفس الكاهن؛ وكان لابد لداود من الإجابة على الأسئلة التى وجهها إليه، لكى يزيل من نفسه الشكوك؛ وهذا ما حاول داود أن يفعله، إذ قدم حجته التى تتضمن فى أن سيده الملك، قد أوفده فى مأمورية هامة، عاجلة؛ وأوهم أخيمالك أن مأموريته هذه، كلفته السير ثلاثة أيام هو ومن معه، وأنها سرية جدا، لايصح أن يبوح بها لأحد، وأن هنالك حامية كبيرة تنتظره عن بعد. وبينما هو يقدم هذه

---

[١] هو دُواغ الأدومى الذى كان موكلا على عبيد شاول، راجع ١ صم ٢٢: ٩ (مكتبة المحبة).

الحجج للكاهن البسيط، الساذج، ويطلب منه معونته، بإمداده بما يحتاجه هو ورجاله، من طعام وسلاح، هزت قلبه رعشة عنيفة، إذ رأى وجه دواغ الأدومى «رئيس رعاة شاول»؛ لأنه أدرك أن تفاصيل الرواية سوف تنقل بلا رحمة إلى الملك، الذى يسعى وراءه للانتقام منه، وملأ الخوف قلبه من نحو مضيفه البرئ ومن نحو نفسه؛ وحالما انتهت خدمة السبت، ترك المكان فورا، وركض بكل قوته عبر الجبال فى الاتجاه الجنوبى، إلى أن عبر وادى البطم، الذى حاز فيه النصر فى موقعة جليات الخالدة. ولكن، سبحان مغير الأحوال، فقد تبدلت الأحوال فى ذلك الوادى، وتغيرت تغيُّرا كليا، إذ أصبح ساكنوه الآن، وحوش الأرض، وكاسرات السماء. وعلى بعد عشرة أميال منه، تقع مدينة الفلسطينيين المتكبرة «جت»، التى أرسلت فى ذلك الوقت بطلها المتعجرف. لقد ترك داود وراءه عدوه اللدود؛ وهل ينتظره فى جت خطر أشد مما كان يهدده طالما بقى فى أرض يهوذا؛ لذلك عزم على دخول جت، لعل الفلسطينيين الذين يعرفون بأنه منذ بضع سنوات، كان غلاما يرعى الغنم، لا يمكن أن يخطر ببالهم أنه وصل إلى ملء القوة الحربية، أو لعلهم يرحبون بمساعدته فى حروبهم ضد بنى شعبه، إسرائيل.

وللحال، عرفت شخصيته، بسبب ما كان يبدو على وجهه من علامات الفزع والخوف؛ أو ربما، بسبب سيف جليات المعلق فى منطقته، فتذكر عبيد لخيش، الأغنية التى حركت غيرة شاول. وحالما عرف بأن هذا هو القاتل، قوبل بالكراهية والبغضاء؛ فهو الذى قد تلطخت يداه بدم الفلسطينى، وهو الذى ارتفع من المزبلة على حساب تخريب بيوت الكثيرين من الفلسطينيين. وهنا، وجدوا الفرصة سانحة للانتقام لأنفسهم بسبب كل هذا. وإذ رأى داود مقدار الأثر السئ الذى حدث فى البلاط الملكى؛ وأدرك الخطر المحقق الذى ينتظره؛ إما بالسجن، أو بالقتل، نجى نفسه بالانحدار أخلاقيا إلى درجة الغش والرياء، حيث «تظاهر بالجنون، وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته»؛ فنجحت حيلته، وطرده أخيش، بعد أن أشار إلى عبيده إشارة هى أقرب ما تكون إلى النكتة والتفكه، بأن لديه من المجانين ما يكفى، ولا داعى أن يأتوا إليه بمجنون آخر؛ لاشك فى أن هذا التصرف كان مزريا بداود، لا يليق بمسيح الله، ووجه اللوم فيه، هو أنه لم يكن هنالك ما يبرره لو أنه لم يضعف إيمانه، ويبتعد عن الله الحى.



(٢) مزمور الحمامة البكماء :

لدى الاطلاع على المزمور ٥٦، الذى يشير بكل تأكيد إلى الحوادث السابق الإشارة إليها؛ قد ندهش لأول وهلة، إذ يخيل لنا، أن هنالك تناقضا بينه وبين تلك الحوادث؛ ولكن، ليس هنالك ما يدعو للشك فى دقة الإشارة التى جعلت عنوانا للمزمور، [١] والتى كتبها داود بنفسه.

ولدى التأمل الأدق، يتضح أن هنالك أوجها للشبه بين ظروف داود، وبين كلماته الثوية فى المزمور. وهذا يبين لنا أنه قد يكون وراء الكثير من العبارات، أو الأشياء المحتقرة، والمزدرى بها، روح تلتهب غيرة وتقوى وحنينا حارا إلى الله؛ وقد تكون هنالك نفس كريمة وسط الأشياء الرذيلة. ولا شك فى أن من ينظر نظرة عاجلة إلى داود فى تصنعه الجنون، لا يمكن أن يخطر بباله أنه كان يتأمل فى بعض الأفكار التى تعبر لكل الأجيال عن أعمق الإيمان، وأخلص الثقة؛ ولكن، هذا ما حصل فعلا.

يحتوى الجزء الأكبر من هذا المزمور النفيس، على فقرتين ، تتفقان فى قرار واحد، [٢] هو أقوى وأسمى ما فيهما من معان. أما باقى المزمور، فنراه مملوءا رجاء وتسبيحا ، مع التعبير عن الفرح الذى يملأ قلب المرنم؛ إذ يذكر ما سوف يتمتع به عندما «يسير قدام الله فى نور الأحياء».

(الفقرة الأولى) (ع ١-٤) :

إنه يتحول عن الإنسان، ويلجأ لله، يتحول عن صفوف أعدائه الألداء، الذين اصطفوا حوله محاولين افتراسه وابتلاعه، ويلجأ للرحمة الإلهية. إنه يعتبر نفسه كحمامة وحيدة بعيدة عن وكرها فى الغابات. كان قلبه يرتجف خوفا، تخامره الريب والشكوك،وسط الكثيرين الذين يقاومونه بكبرياء؛ ومع ذلك، نراه يضع الخوف فى كفة، والإيمان فى الكفة الأخرى، ثم يقنع بأنه لا مبرر لمخاوفه، إذ يقارن بين قوة الإنسان الجسدية، وقدرة الله اللانهائية؛ وهكذا،يرتفع فوق الأمواج المتلاطمة، ويثبت قدميه على صخرة، ويضع فى فمه ترنيمة جديدة، هذا هو قرارها: « لا أخاف»؛ إيه أيتها النفس السعيدة التى تعلمت كيف يكون الثبات فى الله، كصخرتك وحصنك.

---

[١] وهى: «لإمام المغنين على الحمامة البكماء بين الغرباء. مذهبة لداود عندما أخذه الفلسطينيون من جت».

[٢] وهذا القرار هو: «الله افتخر بكلامه، على الله توكلت فلا أخاف، ماذا يصنعه بى البشر» (ع ٤ و ١٠)

(الفقرة الثانية) (ع ٥-٩) :

مرة أخرى، نراه يغوص في الأعماق؛ فقد ابتلعته الأمواج، إذ عادت فهجمت عليه. لقد تحول افتخاره إلى أنين، وتحول التحدى إلى شكوى. لم يكُفُّوا عن تحريف كلامه لحظة واحدة، ولم يهدأوا برهة واحدة دون أن يفكروا عليه بالشر، ولم يخط خطوة واحدة دون أن يلاحظها أولئك الذين ترصدوا نفسه. لقد كثر تبهانه وهو يهرب من ملجأ إلى ملجأ، لقد انهمرت دموعه غزيرة ثخينة. لقد صار أعداؤه أكثر من شعر رأسه؛ إيه أيتها النفس، أهذا هو صوتك الذى كان منذ لحظة يتهلل بالتسابيح؟ أسفا عليك؛ على أننا وسط تأسفاتنا هذه، نسمع صوت الإيمان مرة أخرى يترنم هاتفا بلهجة الواثق : «هذا قد علمته أن الله لى»، ثم نسمع تكرار الترنيمة القديمة:

÷الله افتخر بكلامه

الرب افتخر بكلامه

على الله توكلت

فلا أخاف

ماذا يصنعه بى الإنسان

(الفقرة الثالثة) (ع ١٠-١٣) :

لا رجوع إلى الوراء فيما بعد، فقد ثبت قلبه، واتكل على الرب، واستقرت نذور الله فى رأسه؛ هو ذا ينظر خلفه إلى الهاوية المظلمة التى أوشكت أن تبتلع نفسه، ويدرك أنه قد نجا منها إلى الأبد؛ وإذ يشرق الصباح ، يرى آثار قدميه على حافة الهاوية، ويتيقن أن قوة الله ونعمته، هما اللتان خلصتاه من التردى فيها. والآن، يستعيد نشاطه، وغيرته، وبهجته، التى قد خسرها بهربه المخزى من جبعة إلى نوب، ومن أنه، من الآن فصاعدا، سيسير «قدام الله فى نور الأحياء»، ومتيقنا أن الحق والطهارة والبهجة، ستصير نصيب نفسه.

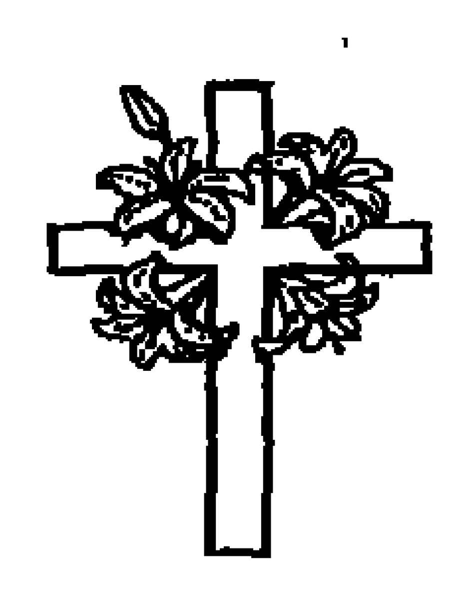
وفى تلك الساعة الحرجة التى قضاها فى جت، والتى ظن فيها أن شعلة الحياة كادت تنطفى، بسبب حقد الفلسطينيين عليه، نراه يرجع إلى الله، ويمسك بحبل الرجاء الذى به يصعد من الهاوية إلى النور؛ ويجلس مرة أخرى كطفل فى بيته، وقد مسحت بالدهن رأسه، ومدت أمامه مائدة تجاه مضايقيه.

(٣) عاقبة أخيمالك:

قد تغفر خطايا أولاد الله، ويعودون إلى حالتهم الأولى؛ إلا أن هذه الخطايات، قد تسبب الويلات، والنكبات لنفوس الكثيرين من الأبرياء. وهذا ما حصل عليه في هذه المناسبة؛ فإنه بعد ذلك بقليل، كان شاول جالسا تحت الأثلة في الرامه، ورمحه في يده، وجميع عبيده وقوف لديه، فحاول أن يستثيرهم بتعداد المساوئ التي خيل إليه أنه تحملها من داود، وانتهز دواغ هذه الفرصة للتقرب من الملك، فقص ما رآه في نوب، متحاشيا ذكر براءة الكاهن وسذاجته، وروى الرواية، بحيث يتبين منها كما لو كان الكاهن وبيته شركاء في الجريمة مع داود، وأنه يميل إلى مساعدة داود لكي تكون له السيادة والسلطان. وعبثا حاول أخيمالك أن يثبت براءته، فإنه عدّد الخدمات الجليلة التي أداها لداود، وأشار إلى المناسبات الكثيرة التي طلب فيها داود مساعدته، مؤكدا بأنه لا يعلم شيئا عن النزاع القائم بين شاول وصهره. وقبل غروب الشمس، أهرقت دماء جميع الكهنة، وقتل كل الأحياء في تلك المدينة الجبلية الصغيرة بحد السيف؛ وهكذا، نرى أن كل جماعة الكهنوت، أبيدوا بضربة واحدة، بلا رأفة.

لم ينج إلا شخص واحد، هو أبياثار، الذي حمل معه الأفود، والذي سنقرأ عنه فيما بعد. دهش داود إذ التقى بأبياثار راكضا بكل قوته إلى وادي البطم، لكي يجد مخبأ مع تلك الجماعة الطريدة في مغارة عدلام.

إذن، فليحذر أولاد الله، لأن الخطية تسبب مرارة في نفس الخاطئ، ومرارة في نفوس الآخرين، بسبب نتائجها الوخيمة، لنسلك بحذر، وسهر، وبروح الصلاة، سائلين ضمائرنا على الدوام، لئلا نكون قد انحرفنا عن طريق النزاهة الكاملة، ولئلا نكون قد بذرنا بذارا يستحيل استئصالها لكنها تنبت ثمارا مرة في حياة الآخرين الذين يصابون بشر أعمالنا، بسبب اتصالهم بنا.



الفصل الحادي عشر

مغارة عدلام (١ صم ٢٢؛ مز ٣٤)

وإذ غادر داود جت بقلب شكور من أجل مراحم الله المنقذة، أسرع في عبور الحدود ثانية، ووجد نفسه مرة أخرى في مملكة شاول، وأدرك أن حياته في خطر شديد. ولكنه لم يتجاسر أن يعرض نفسه لسخط الملك. كان مستحيلا أن يعود إلى البلاط الملكي؛ ولذلك، فكر في الالتجاء في بيت لحم، غير مبال بما يجره عمله هذا من متاعب لأهله. وظاهر أنه لم يكن هنالك بديل من أن يهرب إلى الجبال اليهودية، ويهيم على وجهه في ربوعها، حيث كان ملما بها كل الإلمام منذ صباه، إذ كان يرعى الغنم.

وعلى بعد ميلين من جت، توجد في وادى البطم ناحية مكتظة بالمغاير، تقع إحداها بقرب مينة عدلام الكنعانية القديمة؛ ولذا، سميت باسمها. اختبأ داود زمنا طويلا في هذه المغارة التي كانت عبارة عن مكان مظلم، يصل إليها الداخل من نافذة صغيرة أسفل وجه الصخرة العمودى؛ وكان موقعها يمكّنه من العبور من مملكة إلى أخرى، حسبما يقتضى الحال؛ إلى هذه المغارة هربت عائلته بأسرها، إذ كانت تخشى بطش شاول، وإليها أيضا، التجأ «كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مر النفس، فكان عليهم رئيسا»؛

لا يسمح المجال الآن، بالإسهاب في وصف محبة داود البنوية، التي دفعته لعبور تلك المسافة الطويلة من عدلام إلى موآب، للبحث عن مكان أمين يأوى إليه أبوه وأمه اللذان كان سنهما لا يسمح لهما بتحمل مشقات وأخطار المعيشة التي كان يحياها متنقلا بين المغاير والجبال. ويكفى القول أن طلبته قد أجيبت فوراً من ملك موآب؛ ولعل ذلك يرجع إلى آثار الدم الموآبى الذى كان يجرى في عروق ذلك البطل العبرانى الشاب [١]. على أن تلك الرحلة المزدوجة – أولا للبحث عن الملجأ، وثانيا، ليوصل والديه إليه – تدل على سمو في أخلاق داود؛ فإنه قد تمم بدقة تلك الوصية الأولى المقرونة بوعد. والآن، لنتأمل في هذه المغارة، وفي تلك الجماعة التي لصقت به.

---

[١] فإن راعوث: جدة يسى لأبيه، كانت موآبية.

(١) المغارة وما نتعلمه منها من دروس :

لا شك فى أن الروح القدس يريدنا – من دقة الوصف لهذه الاختبارات فى حياة داود – أن ندرك بأن هنالك أوجها للشبه بين حياته وحياة الرب يسوع فى إبعاده عن عرش العالم فى الوقت الحاضر؛ إن المشابهة قريبة جدا، وفيها نجد عدة دروس:

(١) كان يتربع على العرش ملك مرفوض:

مع أن شاول مسحه صموئيل، إلا أنه خسر حقه فى الملك، بسبب تمرده وعصيانه، وتلاشى تأثير المسحة المقدسة، كما يفعل الكثيرون منا اليوم. لقد سبق أن نطق صموئيل بالحكم بخلعه من الملك، وكان هذا الحكم فى انتظار التنفيذ فى اللحظة المناسبة؛ وعلى هذا المثال، كان الروح النجس – الشيطان – يوما من الأيام ملاكا، يقيم فى جبل الله المقدس، كاملا فى كل طرقه منذ خلقته، حتى سقوطه. ولعل سبب اللقب الذى أعطاه له المسيح «رئيس هذا العالم»، يرجع إلى تعيينه الأصلى كنائب الله وممثله، ولكنه بسقوطه، خسر هذا المركز المجيد، ثم خلق الإنسان ليحل محله «من هو الإنسان ... تسلطه على أعمال يديك» (مز ٨: ٤-٦)؛ على أن الإنسان لم يستعمل هذا السلطان للآن، فإنه لم يخضع إليه كل شئ بعد، ولكنه يتم فى شخص ابن الإنسان الذى كلل فعلا بمجد وبهاء (مز ٨:٥).

وفى نفس الوقت؛ إن الشيطان لايزال متربعا على عرش العالم، وكم من مرة صوب رمحه نحو الملك الذى وجد حسب قلب الله. ففى التجربة على الجبل، وفى چثسيمانى؛ ظن بأنه قد ضربه حتى الحائط، وفى عصرنا الحاضر، نراه يأتى بآخر ما عنده ليقضى على مملكة المسيح، رغم علمه بأن الله قد قصد لها أن تحل محل مملكته هو. على أن كل محاولاته، لابد ذاهبة أدراج الرياح، وكما سقط شاول فى حقل جلبوع، كذلك لابد أن يسقط رئيس الظلمة سقوطا نهائيا فى أعماق الهاوية.

(٢) وكانت مملكة داود خفية:

لقد كانت مملكة حقيقية، ولو فى السر والخفاء، ومتوارية فى ظلمات مغارة عدلام، ومختبئة وراء الأودية والجبال. لقد وقع فى الأرض، ومات، لا لكى يبقى وحده، بل لكى يأتى بثمار كثيرة. إنها لعملية غامضة، تلك التى تجوزها حبة الحنطة الصغيرة

فى الشتاء؛ إذ تخضع لعوامل التحطيم التى تنتظرها فى جوف الأرض؛ فإنها إذ تتعرض لفعل رياح الشتاء، وتداس بقدمى الفلاح الذى يحرث الأرض، وتدفن، وتبقى وحدها، كأنها قد تركت من الله والإنسان، لتعمل فيها عوامل الفناء والانحلال، يوما فيوما؛ وإذ تذيبها مياه الأمطار، وحرارة الشمس، حتى تشوه هيئتها؛ فإنها تبدو كأنها غير مجدية < أو للإنسان. هكذا كان اختبار داود، وهكذا أيضا، كان اختبار الملك السماوى الذى رأيناه متروكا على الصليب بسر غامض، لا تستطيع أن تصل إليه عقولنا، ومتروكا فى القبر بسر لا يدرك، والذى نرى الآن شخصه ومملكته، متواريين عن عالم البشر.

ليس ببعيد ذلك اليوم الذى يستعلن فيه الرب مع قديسيه، ويأخذ لنفسه سلطانه العظيم وملكه؛ ولو كان الآن مواريا حتى أزمنة رد كل شئ. وتلك اللؤلؤة التى ربحها من أغوار البحار، سيضعها على جبهته، وذلك الكنز الذى من أجله اشترى حقل العالم، سيفتح لتتعجب المسكونة، وذلك الجيش الذى كونه من أشخاص لا رجاء فيهم، سيتبعه على خيل بيض، وبثياب لامعة؛ وفى نفس الوقت، إن ملكوته فى السر والخفاء.

(٣) وكان داود وأتباعه في عزلة:

لقد أبعدوا عن محلة إسرائيل، ولم يكن هنالك بديل من هذه الحالة؛ لم تكن له صلة مباشرة بولائم شاول واحتفالاته، بنصائحه وأحكامه، بسياسته الداخلية وحروبه الخارجية، رغم أن مغارة عدلام كان لها تأثير جوهرى غير مباشر على كل المملكة. لم يكن نصيب داود إلا نصيب المهاجرين الغرباء؛ وكذلك كان حال جميع الذين رغبوا فى مشاركته نصيبه. كان طريقه إلى العرش محفوفا بالمتاعب والآلام والأحزان. ومع أنه كان يتنسم الجو النقى ويذوق طعم الحرية، وكان قد تخلص من الرسميات فى القصر الملكى البعيدة عن خوف الله؛ إلا أنه كان يحس على الدوام بوحشة مرة، وكآبة تكاد تقضى على أنفاسه.

إن الملك الحقيقى للبشرية لا يزال بعيدا عن رجال السياسة وعن الهيئات الاجتماعية، لا يمكن أن نجمع بينهم وبينه، فعلى الذين يريدون أن يكونوا من رعيته، وأن يكونوا شركاء فى أمجاد الأيام القادمة التى سيمتد فيها «سلطانه من البحر إلى

البحر، ومن النهر إلى أقاصى الأرض» (زكريا ٩: ١٠) أن يخرجوا إليه خارج المحلة، وأن يرتضوا ترك كل مايملكون، وأن يحسبوا «كأقذار العالم ووسخ كل شئ [١].

(٤) وكان داود راضيا انتظار وقت الله المعيّن:

مهما أساء إليه شاول، فإنه لم يفكر يوما من الأيام أن يقابل المثل بالمثل. ومهما توفرت لديه الفرصة للقضاء على عدوه الذى كان يطارد نفسه فإنه لم يستخدمها؛ لأنه كان مستعدا أن ينتظر الوقت المعين من قِبَلِ الله، وأن ينال السيادة العليا بالطريقة التى أعدها الله. وقد تعلم أن يسكت نفسه كفطيم، وكانت وجهة نظره على الدوام هى هذه التى سجلها فى كلماته «إنما < انتظرى يا نفسى لأن من قبِله رجائى»، [٢] وكأنه جلس صاغرا راضخا حتى جعل الله أعداءه موطئا لقدميه وأقامه الله ملكا على صهيون، جبل قدسه. [٣] وبنفس هذا المعنى أيضا، فإن مخلصنا منتظر طول هذه الأجيال المتعاقبة. الآن وقت ملكوت يسوع المسيح وصبره، [٤] هنا صبر القديسين، بينما «انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله. ونحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا متوقعين التبنى فداء أجسادنا؛ لأننا بالرجاء خلصنا، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضا، ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره، فإننا نتوقعه بالصبر». (رو ٨: ١٩-٢٥).

(٢) المغارة ومن فيها:

انتشرت فى كل الأرض بسرعة البرق، وبشكل عجيب، أخبار رجوع داود إلى يهوذا واختبائه فى المغارة، ابتدأ يلتف حوله كل الذين كانوا يرزحون تحت أعباء البؤس، والفقر، ومرارة النفس؛ وسرعان ما وجد القائد الشاب نفسه على رأس أربعمائة رجل مختلفى الأمزجة، لأن الجماعة القليلة التى كانت ملتفة حوله أمينة له، سرعان ما انضم إليها الجماهير المتكاثرة من كل الذين تثقلت نفوسهم بالهموم والأحزان، والذين كانوا يتوقون إلى الخلاص منها.

ويخبرنا التاريخ المقدس أن «وجوههم كوجوه الأسود، وهم كالظبى على الجبال

---

[١] كو ٤: ١٣
[٢] مز ٦٢: ٥
[٣] مز ٢: ٦
[٤] رؤ ١: ٩

فى السرعة» (١ أى ١٢:٨)، ولكن الأرجح أن طباعهم كانت وحشية مفترسة، تتطلب كل الحكمة والمقدرة للسيطرة عليها، حتى يعودوا إلى حياة النظام والهدوء، وهذا ما كان فى استطاعة ذلك القائد الشاب. يقينا أنه لم يكن بالأمر الهين تدريب هذه الجماعة حتى صارت نواة لأعظم جيش فى ذلك العهد، يحمل علم إسرائيل فى عصوره الذهبية.

يجب ألا نتوهم بأن داود كان فى تلك الحقبة من حياته رئيس عصابة لصوص أو قطاع طرق؛ لكنه بالحرى، كان بمثابة حصن منيع لحماية الحدود من غارات العمالقة والفلسطينيين الذين كانوا على الدوام يقتحمونها وقت الحصاد ويكتسحون كد الفلاحين. إذن، فقد صار هو المدافع عن شعبه ولو كان مبعدا عنه، حتى أنه كان يشبّه هو ورجاله فى الأحاديث العادية فى ذلك الوقت بسور لرعاة جنوب يهوذا وفلاحيها «ليلا ونهارا» (١ صم ٢٥:١٦).

من المستحيل أن لا يتحول الذهن من داود إلى ذلك الملك الأعظم، الذى ولو أبعد عن أنظمة هذا العالم ورئيسه، إلا أنه على الدوام يجمع حول رايته الفقراء والمساكين والمنبوذين، البرص والخطاة، العمى والعرج ومنكسرى القلب، المتضايقين والمديونين والمضطربين، ويجعل منهم جنودا يربحون العالم لشخصه.

إن كان أولئك الجنود الأفظاظ الأغبياء قد وجدوا مركزا جديدا لحياتهم فى داود، فإننا قد وجدنا هدفا جديدا للحياة فى الرب يسوع، الذى إذا ما عشنا من أجله، نجد الحياة حياة حقة، وإذا ما متنا من أجله نجد الموت ربحا.

وإن كان هذا المركز الجديد قد قطع كل علاقة لهم بمملكة شاول المتدهورة، فإن اتحادنا بالمخلص الحى، قد فصلنا عن العالم، وجعلنا مواطنين لعالم أفضل. لقد اتخذناه نصيبا لنا فى الحياة، وصرنا رعية أورشليم الجديدة، وأصبح يلذ لنا الاعتراف بأننا غرباء ونزلاء فى هذا العالم.

وإن كانوا قد نزعوا عنهم عاداتهم وتصرفاتهم السابقة، وسمحوا لآلة نسيج المحبة والقداسة أن تنسج لهم ثوبا جديدا، قد خلعنا الإنسان العتيق مع أعماله ولبسنا الجيد الذى يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه.

وإن كانوا قد أحبوا داود، لأنه سكّن اضطرابهم، وخفف أحزانهم، وأراحهم من حياة

الفوضى والعبث، فحرى بنا نحن أن نحب بالأكثر ذاك الذى أحسن إلينا أكثر مما أحسن داود إلى أتباعه المساكين؛ فإنه قد وفى ديوننا بدمه الثمين وخلصنا من دائنينا، إذ قابلهم هو نفسه، وألبسنا جماله الكامل، وأراحنا من أحزاننا، وسكن وهدأ نفوسنا.

وإن كانت علاقة داود بأتباعه قد ازدادت قوة على مر السنين لأنها ربطتهم بشركة متينة كانت نتيجة اشتراكهم معا فى الأخطار العامة، أخطار الليل وأخطار النهار، أخطار العدو اللدود، أليس حريا بنا أن نجدّ فى أثر الشركة مع ربنا المبارك التى لابد أن تنمو كلما ازدادت آلامنا التى نشترك فيها معه.

(٣) المغارة وأغنيتها:

لدى التأمل فى المزمور الرابع والثلاثين، نجد فيه إشارات عدة ترجح بأنه يتصل بمغارة عدلام؛ فإنه هناك كانت تلك الجماعة الصغيرة فى حاجة أن يحل حولها ملاك الرب لينجيها، وهنالك احتاجت الأشبال وجاعت، وهنالك أيضا كانت عناية الله تحفظ عظام تلك الجماعة بصفة دائمة لئلا ينكسر واحد منها (ع ٧و ١٠و ٢٠).

ونحن نستطيع أن نتخيل ذلك القائد فى مساء أحد الأيام، بعد أن أعيته اضطرابات اليوم ومتاعبه، يجمع جماعته حوله ويسمعهم هذه الكلمات:« هلم أيها البنون استمعوا إلى فأعلمكم مخافة الرب» (ع١١) وعلى الفور يقدم لهم هذه النصائح الثلاث: «عظموا الرب معى ...، ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب...، اتقوا الرب يا قديسيه»، ولعلهم جميعا بصوت واحد لبوا النداء وأنشدوا قائلين: «الرب فادى نفوس عبيده وكل من اتكل عليه لا يعاقب».

ويحسن بالنفس التى تعيش حياة العزلة ونالت التبكيت على الخطية، وتمتعت بمغفرتها، وطرحتها وراء ظهرها، أن تتأمل فى هذه الحقائق الأربعة:

١- الخلاص: حتى وسط المصاعب والارتباكات التى سببها سوء تصرفها (ع ٤و ٧و١٧و١٩).

٢- الاستنارة: وكما يفعل نور الفجر للنفس الساهرة طول الليل، هكذا يفعل الله للنفس التى تسكعت فى الظلام طويلا، لو أنها اتجهت نحوه (ع٥).

٣- سد كل المطالب: وبذلك لا يعوز النفس شئ مما تشعر بأنها فى حاجة حقيقية له (ع ١٠).

٤- الشعور بقرب الله: هو أقرب من أقرب شئ إلينا، وموجود يقينا كيقينية وجود أى شئ من المرئيات (ع ١٨).

إن كان داود قد استطاع في مغارة كهذه أن يتحقق من وجوده في حضرة الله، بينما كانت لديه المشاغل الكثيرة التى تشغله عن الله، وبينما كان مضطرا أن يصرف كل ساعة مع رجاله؛ فكم يكون ذلك مستطاعا وميسورا لنا جدا. ومتى تحققنا من هذه الحقيقة، تم لنا كل شئ فى الحياة على أحسن وجوهه.

ما الذى يميز الربيع ببهائه وجماله عن الشتاء بعبوسته إلا قرب الشمس وانجذاب الطبيعة نحوها وتشكلها بألوانها الخلابة.

هكذا أيضا أيها الأخ العزيز، يا من سقطت فى الخطية، وأصبحت كسير القلب، ومنسحق الروح؛ لا تنظر خلفك إلى سقطاتك الماضية، وتقصيراتك السابقة، ولا تقف مذعورا من احتمال رجوعك إلى الخطية، بل انظر إلى فوق، وانظر بعيدا إلى وجه يسوع. أتوسل إليك أن لا تتطلع إلى الناحية المظلمة؛ بل إلى الناحية المنيرة. اسكن فى ستر العلي؛ امكث فى بيت الرب كل أيام حياتك، ادخل قدس الأقداس بجرأة لتمكث هناك، اطلب من الروح القدس أن يعينك لتتحقق من وجودك فى حضرة الله بصفة مستمرة. ردد لنفسك هذا القول كل يوم مرارا حتى ولو لم تجد ميلا لذلك: «أنت هنا»، ليكن الشعور بقرب الله هو لذتك، ذق وانظر كم هى طيبة حياة كهذه.

هكذا تدرك أسعد وأقوى الاختبارات الممكنة للقديسين، «قريب هو الرب من المنكسرى القلوب ويخلص المنسحق الروح» (ع ١٨).



الفصل الثانى عشر

الحصاة البيضاء (١ صم ٢٣: ٦؛ مز ٢٧)

ألا يضئ الرب بنوره
للذين يطلبونه منه؟
نعم، إنه يهبهم إياه بغزارة
لأن ذلك بهجته ومجده
وذلك يتفق مع طبيعته.
أما المتكبرون غير المخلصين
أو الذين يتغافلون فى طلبه،
فإنه لا ينعم عليهم حتى ببصيص من النور

كوبر

لا نعلم على وجه التحقيق أين كان داود عندما انضم إليه أبياثار، ولكن لدى التأمل تاريخيا، قد نميل إلى الاعتقاد بأن مذبحة الكهنة تمت بعد هروبه إلى جت بوقت قصير، وفى هذه الحالة يكون أبياثار قد أتى إلى داود عندما كان فى مخبئه الأول فى مغارة عدلام، إذ أقام فيها فترة طويلة؛ على أساس هذا الغرض، ذكرنا فى نهاية الفصل العاشر أن أبياثار، إذ هرب، ركض بكل قوته حتى وصل إلى تلك المغارة.

على أننا إذ حكمنا بأن أبياثار التقى بداود فى «قعيلة»، كما يستدل من (١ صم ٢٣: ٦)، فالأرجح أن هذه المدينة كانت تقع فى وعر حارث، أو (غابة حارث) التى تبعد قليلا عن عدلام إلى الجنوب، وهى قريبة أيضا من حبرون. ويظهر أن جاد النبى الذى انضم حديثا إلى داود، والذى رتبت له العناية أن يلازم داود فى كل أدوار حياته لكى تتاح له الفرصة لتسجيل تاريخ حياته، هو الذى أشار على داود بهذا الانتقال (أى من مغارة عدلام إلى قعيله) على أساس أن المدينة المكشوفة أأمن – فى حالة المطاردة – من المغارة التى يمكن إغلاق مدخلها، فتصبح مصيدة للموت (١صم ٢٢: ٥؛ ١ أى ١، ٢١: ٩، ٢٩: ٢٩).

ومن الجهة الأخرى، إن ماورد فى ١ صم ٢٣: ٦ يفترض بأن ابياثار أتى إلى داود فى عقيله، «وكان لما هرب أبياثار إلى داود إلي قعيله نزل وبيده أفود». على أن الترجمة السبعينية تفترض أن أبياثار لما أتى إلى داود نزل كلاهما إلى قعيلة «وكان لما هرب أبياثار إلى داود نزل مع دواد إلى قعيلة وبيده أفود» (انظر هامش الكتاب المقدس). إذا صح هذا فإن الاستعلام الوارد ذكره فى ع ١ – ٥ تم بواسطة الأوريم والتميم كما كانت العادة حينذاك.

وعلى أى حال، فلا مبرر لإطالة البحث فى هذه الأمور القليلة الأهمية. فغرضنا الرئيسى الآن هو تبيان عادة داود التى ثبت عليا كل أيام حياته، وهى: انتظار الله للهدى والإرشاد. ونحن إذ نلاحظ أن الخطوات التالية فى حياته لم يخطها إلاّ بعد انتظار إرشاد الله بكل دقة، نجد فى هذه الملاحظة كثيراً من الدروس لنفوسينا؛ وكأنه فى النصيحة التى يقدمها لنا أجمعين فى هذا المزمور الذ يرجع تاريخه إلى تلك الحِقبة من حياته يفرغ أعمق اختباراته:

انـــتـــظـــر الــــرب

لـيــتــشــدد ولـيـتـشـجع قلبك

وانـــتـــظـــر الــــرب

مز ٢٧: ١٤

والآن، لنتأمل فى حالة داود النفسية عند كتابة هذا المزمور (٢٧)، وفيما نستطيع أن نستخلصه من فوائد لحياتنا اليومية:

(١) وجهة نظر المُرَنّم ورغبة قلبه :

هنالك أدلة داخلية كثيرة، تؤكد بأن هذا المزمور يشير إلى هذه الفترة من حياة داود؛ فقد كانت حينذاك مظلمة كمغارة عدلام من الداخل، ولذلك نراه يتحدث عن الله كنور له، وكانت حياته معرضة للخطر كل يوم؛ ولذلك كان عزاؤه أن يجد الله خلاصا له. ولقد كان الرب حصن حياته فعلا أكثر مما وجد فى حصن تلك الصخرة، قد تقترب إليه الأشرار ليأكلوا لحمه، ولكن لابد أنهم يعثرون ويسقطون، كما سقط جليات فى نفس ذلك الوادى؛ قد ينزل عليه، ولكن قلبه لا يخاف، قد تقوم عليه حرب، ولكنه مطمئن. لقد إختبأ فى مظلة القدير من وجه كل مطارديه، وارتفع فوق صخرة لن يصل إليها أعداؤه. صحيح أنه لم يعد بعد

يلتجئ في بيته الأول في بيت لحم، ومن هذه الناحية، تركه أباه وأمه (ع١٠)، ولكن الرب ضمه إليه وصار أبا وأما.

أما الإشارات الأخرى، نحو ضيقة نفسه الشديدة، ومرارتها، وضرورة هدايته إلى سبيل مستقيم، وشهود الزور الذين قاموا عليه، وافتروا عليه ظلما (وهذه الإشارة تنطبق تماما على وصف أبياثار لخيانة دواغ) - كل هذه الإشارات تؤكد بأن هذا المزمور الجميل يشير إلى إقامة داود في المغارة؛ هذا المزمور إنما هو صرخة أليمة. لا شك في أنها طالما انبعثت من قلب داود في تلك الأيام المحزنة، الحالكة السواد؛ ولا شك في أن الصخور المحيطة به، طالما سمعت صرخاته الأليمة، وشهدت دموعه، وأحست بمرارة نفسه التي أشرفت على الهلاك كلما رجع بذاكرته، وتأمل في تلك الهاوية التي أوشك أن يتردى فيها، ولكنه نجا منها بكل صعوبة. فإنه لم ينس قط أنه بزلّته الأخيرة في «جت» جعل الله يحجب وجهه عنه ويرفضه ويتركه ويخيبه بسخط (ع٩)، ولكنه يعود فيطمئن نفسه بأنه وسط هذه الظلمات الحالكة التي اجتازتها نفسه، قد آمن بأن يرى وجود الرب في أرض الأحياء (ع١٣)، ويعزي نفسه بأن ذلك الذي منّى نفسه بالرجاء المبارك، لايمكن إلا أن يحقق الرؤيا التي بها رد عبده الضال إليه.

إن الاعتراض الرئيسي على الافتراض بأن هذا المزمور يشير إلى تلك الفترة من حياة داود، ناشئٌ من إشارته فيه إلى بيت الرب، والخيمة، والهيكل (ع٤ و٥)؛ ولكن هذا الاعتراض، لايمكن أن يجد من هذه الإشارات الدليل القاطع، فإننا نجد نفس هذه الفكرة في المزمور الثالث والعشرين، حيث يبين الراعي المرنم رغبته في أن يسكن «في بيت الرب إلى مدى الأيام»، وليس معقولا أنه في حداثته رغب في قضاء باقي أيام حياته في الحدود الضيقة للخدمة اللاوية، لأن رغبة كهذه، لا تتفق مع روحه الوثّابة؛ إذن، فإن هذه الرغبة - للسكن في بيت الرب - التي ملأت قلبه في حداثته أيام كان راعيا، وفي هذه الفترة التي قضاها في المغارة، وفي منفاه عند هروبه فيما بعد من وجه أبشالوم، يمكن تفسيرها بأنها تشير إلى رغبته في الشركة الإلهية المتصلة التي يستطيع أن يجد فيها هدًى وإرشادا في كل طرقه الخطرة المظلمة.

عندما نقرأ كلماته على ضوء هذا التفسير، نجد فيها معانٍ جديدة، بهيجة؛ فعلى ذلك، يمكننا القول بأنه كان يرغب في البقاء في شركة كاملة مع الله، يناجيه وجها لوجه، كما كان

يفعل الكهنة فى الهيكل فى «نوب». كان يشتاق أن يُتاح له فى أى وقت الالتجاء إلى كلمة الله، كانت كلمة قلبه أن يعيش بقرب الله، حتى إذا ما سمعت الدعوة الإلهية فى أى وقت، ولو بصوت خافت قائلة:«ويجيب قائلا اطلبوا وجهى»، يكون قريبا جدا ليسمعها، ويجيب قائلا: «وجهك يارب أطلُب».

(٢) اختباره الدائم :

عندما قص الكاهنُ روايتهُ فى انزعاج قلبه، أجابه داود بكلمات نجدها كلها عذوبة، إذا ماجعلناها لسان حال المسيح؛ فإن المسيح إذْ طُرِدَ خارج المحلة من معظم البشرية والهيئة الاجتماعية، يرحب بكل نفس هاربة ملتجئة إليه قائلا لها: «أقم معى، لا تخف، لأن الذى يطلب نفسى يطلب نفسك، ولكنك عندى محفوظ» (١ صم ٢٢:٢٣).

والسبب الخاص الذى من أجله سُرَّ داود أن يرحب بأبياثار، هو أنه أمكنه استخلاص الأفود الذى بداخله الأوريم والتميم، واستحضاره معه. ومعنى كلمتى (الأوريم والتميم) هو:(النور والكمال)، ليس معروفا على وجه التحقيق ما تشير إليه هاتان الكلمتان، ولكن الأرجح أن معناهما كما يلى:

كان الثوب الداخلى الذى يلبسه رئيس الكهنة، حُلَّة من كتان أبيض، وكان يلبس فوقها رداء أزرق، وفوقه الأفود، وهو مصنوع من كتان أبيض مجدول، مشغول بأزرق وأرجوان، وقرمز وذهب؛ وكانت تثبت به صدرة القضاء التى يوضع فيها اثنى عشر حجرا كريما، مماثلة لأسباط إسرائيل الاثنى عشر. فى صدرة القضاء هذه، وُضِعَ حجرٌ ماسىٌّ جميل جدا أو حجران – ربما كجزء منها أو كشئٍ إضافى – ليعلن الرب إرادته عن طريقهما، فإن قدم الكاهن بكل خشوع ووقار استعلاما < ، وكانت الإجابة سلبية، انطفأ نور هذين الحجرين، وإذا كانت الاجابة بالإيجاب، ازداد رواءً وبهاءً ومجدا.

من هذا يتضح جليا أن داود حسبه ربحا عظيما أن يحصل على هذه الوسيلة النفيسة، التى كانت أداة اتصال بينه وبين الله. لقد كان جاد النبى معه فعلا ليمثل الوظيفة النبوية؛ والآن، حضر أبياثار ومعه الأفود ليمثل وظيفة الكهنوت السامية جدا. إذن، فقد كان ميسورا له معرفة إرادة الله فى أية لحظة بإحدى هاتين الوظيفتين، خصوصا بالوظيفة الثانية تلك الأيام الغابرة.

فإذا أتته الأخبار بأن الفلسطينيين ينهبون فصيلة، لا يتجاسر أن يتابعهم قبل أن يسأل الرب، وإذا فكر شعب المدينة الجبناء فى أى تدبير لخيانة منقذهم، لا يتجاسر أن يغادر المدينة قبل أن يصل إليه الإرشاد الإلهى. وفى حد اختبارات حياته الأليمة جدا، عندما فكر رجاله فى رجمه، نراه بدلا من أن ينتقم لنفسه، يقول لأبياثار الكاهن «قدِّم إلَيَّ الأفود»، فقدم أبياثار إليه الأفود، وسأل داود من الرب(١ صم ٣٠:٧)؛ وبعد أن استقر الأمر، وأصبح ملك الأرض، كان يحرص بأن يسأل حتى عن طريقة الهجوم على الفلسطينيين فى حروبهم معه (٢صم ٥:١٧-٢٥).

من هذا يتضح جليًا أن داود تعود كل أيام حياته أن ينتظر الله، وبذلك كان يهدئ من حدة نفسه، ويوقف تزاحم الأفكار المهتاجة فى عقله حتى يتأتى الوقت الذى فيه تتكشف أغراض الله ومقاصده. وكما أن الطفل لا يجرؤ أن يخطو خطوة واحدة وحده، وكما أن السائح فى أرض غريبة يعتمد كل الاعتماد على مرشده، كذلك كان داود يرفع نفسه لطلب الإرشاد الذى لا يستطيع أن يمنحه أحدٌ إلاّ الله، لأن المستقبل مكشوف أمامه كالماضى، ولأنه لا يخفى عليه أى أمر.

(٣) الدرس الذى نتعلمه لأنفسنا :

عند خروج إسرائيل من مصر، كان الرب يرشدهم وسط الصحراء بعمود السحاب وعمود النار، وبعد أن استقروا فى أرضهم، حل محلهما الأوريم والتميم، وبعد ذلك بطلت تلك الطريقة التى كانت تستخدم لمعرفة إرادة الله، وتكلم الأنبياء مسوقين من الروح القدس، وهؤلاء - حتى فى الكنيسة الأولى - لعبوا دورا هاما فى ارشاد شعب الله إلى طريقه.

ولكن أصوات الأنبياء صمتت عند اقتراب العصر الرسولى. ومن أين ننال نحن الإرشاد؟ هل يُترَك الأتقياء دون وسيلة يسألون بها الله، وينالون إرشاده الصريح فى الأمور الغامضة التى تعرض لهم على الدوام؟ كَلاَّ؛ لأنه فى إحدى الرسائل الأخيرة التى بعث بها الرب لكنيسته على يد الرسول يوحنا، يبين لنا أن من يَغلب يُعطى «حصاة بيضاء»، والكلمة «بيضاء» تعنى: وضّاءةً أو لامعةً أو بهيّةٌ. إذنً، فقد يكون المقصود بها حجرا ماسيًا، ولعلها تشير إلى حجارة صدرة القضاء التى كان يلبسها رئيس الكهنة، والتى كانت تعتم أو تضئ بالأقوال الإلهية؛ على هذه الحجارة كان ينقش اسم «يهوه» بحروف رمزية، وعلى هذا المثال، قيل: إن الحصاة البيضاء التى ينالها كل مؤمن انتصر فى الحرب الروحية على الخطية

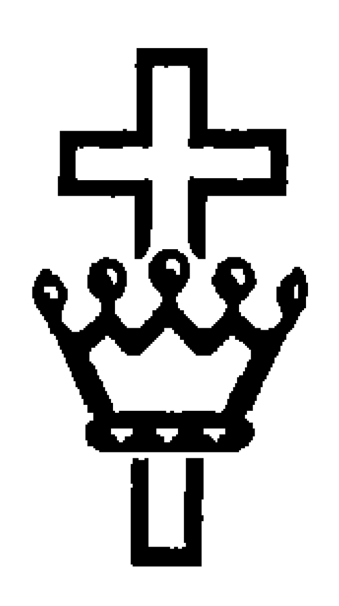
والعالم، منقوش عليها «اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذى يأخذ» (رؤ ٢:١٧).

وبتعبير آخر، إن لكل واحد من أولاد الله أوريمه وتميمه، أى ضمير بلا عثرة، قلب مطهر بدم المسيح، طبيعة روحية يسودها ويملأها روح الله القدوس.

عندما نكون فى ريبة أو صعوبة، عندما نسمع أصواتا كثيرة تطلب منا الاتجاه نحو هذه الطريق أو تلك، عندما تقدم لنا حكمتنا البشرية نصيحة، ويقدم لنا الإيمان نصيحة أخرى، عندئذٍ لنصمت، ولنبعد كل متطفل، ولنهدئ أنفسنا فى حضرة الله بصمت ورهبة، ولندرس كلمته بورعٍ وخشوع والتفات، ولنترفع عن طبيعتنا فى نور وجهه الصافى، مشتاقين فقط لمعرفة ما يقرره الرب الإله؛ عندئذٍ، لا يمضى وقت طويل حتى نجد جوابا صريحا، مُبَيِّنا لنا إرادته بكل وضوح.

ليس من الحكمة – فى بدء الحياة المسيحية – الاعتماد على هذه الطريقة وحدها، بل لننتظر حتى نجد تأكيدا مما يجرى حولنا من ظروف، أما الذين قد تعمقوا فى شركة الله، فإنهم يدركون تماما قيمة الاختلاء به لمعرفة إرادته، وفى كل يوم تجرى علينا الحوادث التى تبين بكل وضوح،أن سر الرب، هو لخائفيه الذين يريهم عهده.

هل أنت فى شك من طريقك؟ اذهب إلى الله بسؤالك، واطلب الإرشاد من نور ابتسامته (إجابته بالإيجاب) أو من ظلام رفضه (إجابته سلبا) إن استطعت أن تختلى بالله حيث لا تستطيع أن تنفذ إليه ظلمات أو أنوار الأرض، وحيث لا تستطيع أن تتحكم فيك إرادتك الشخصية، وحيث لا تستطيع أن تصل إليك أفكار بشرية، وإن استطعت أن تبقى صامتا ومنتظرا، ولو كان كل ما حولك يتطلب قرارا سريعا، وعملا عاجلا، عندئذٍ، تتبين لك إرادة الله جلية واضحة، وفوق ذلك، فإنه يعطى لك اسم جديد، فكرة جديدة عن الله، رؤية أعمق فى طبيعته وقلب محبته، وهذا الاسم الجديد يُعْطَى لك وحدك، كأجر عظيم لساعات الانتظار الطويلة.



الفصل الثالث عشر

أغنيات منبعثة من الأحزان (١ صم ٢٣)

أغنيـــة القلب الكسـيـر
أغنيـــة الأنات والدمع الغـزير
أغنيـــة الأمــراض والـفـاقـة والحـزن المرير
أغنيـــة أيام الـغـربـة
يالهـا من أغنيـات حـلوة تلك المنبعـثة من الأحـزان
تلـك التى تتـغـنى بالأفـراح التى يُعبِّر عنهـا
وتقـدم للجـالس على عـرش مـجـده
الـذى يـبكى فى الـقـديم

هـ. سيرس

تبين الكنيسة بكثير من أبهج أغنياتها وترانيمها للآلام العميقة التى اعتصرت قلوب أخلص أبنائها.لقد داست أقدام التجارب والمحن والآلام - كما فى معاصر الزيوت - قلوب الكثيرين، فأخرجت منها عصارة اختباراتهم فى أغنيات من أعمق ما سمعته الأذن البشرية. إن الأغنيات التى تدوم وتنتقل من قلب إلى قلب هى تلك المنبعثة من الآلام والأحزان.

يحدثنا أحد كتاب العصر الحاضر أن جمال الموسيقى العجيب، فى اعتقاده، أكثر بهاء من كل المظاهر والألوان الخلابة المنتشرة في الطبيعة، ثم يضيف إلى ذلك بأن الإنسان إنما يبعث الموسيقى الكامنة فى كل المواد تقريبا، ويفك أسرها بعد أن كانت تنتظره ليخرجها إلى حيز السمع.«إن الإنسان إنما يخرج إلى الظهور ما كان كامنا، كما أن الفحم الذى يخرج من باطن الأرض إذا ما وضع على النار فإنه إنما يظهر الحرارة والضوء اللذين استمدتهما الغابة من الشمس»، أليست هذه الموسيقى الصامتة المغلق عليها فى الطبيعة منتظرة أن تخرج إلى الظهور بالأغانى أو الصوت بواسطة الإنسان - أليست جزءا من انتظار الخليقة التى يتوقع استعلان أبناء الله؟ [١]

---

[١] رو ٨: ١٩

مما يلاحظ أن الكثر من مزامير داود قيلت فى تلك الأيام الأليمة المحزنة، التى كان يطارد فيها كما تُطارد الحجلة فوق الجبال. ونحن نستطيع أن نتتبع تاريخ حياته من المزامير كما من الأسفار التاريخية. فإن قعيلة، وزيف، ومعون، وعين جدى، تعطينا فكرة عما أصابه من مشقات وآلام. لقد أعطيت لهذا المرنم الموهوب قوة إخراج الموسيقى الكامنة من أعماق تلك المواد التى لا يوجد بينها أى توافق مطلقا. أليس غريبا أن تصير هذه الخرائب الآن خالدة، وأن كلا منها تكون وترا في موسيقى النفس الكاملة؟ ولنتأمل الآن قليلا فى تاريخ حياة داود مما ورد فى الأسفار التاريخية وما يقابلها من مزامير.

(١) مجموعة من المزامير :

١- قعيلة: بينما كان مختبئا فى وعر حارث أتته الأخبار بأن الفلسطينيين اقتحموا إحدى المدن المتاخمة السيئة الحظ «هو ذا الفلسطينيون يحاربون قعيلة وينهبون البيادر» (ع١).

كان حصاد السنة معدا فى ذلك الوقت للدراس فى البيادر، وهذا جعل الفرصة سانحة للناهبين، لذلك نهبوا كد الفلاحين فى طول عامهم وسطوا على الماشية، ولعله وهو مستغرقٌ فى التفكير فى هذه الأخبار، جاءته دعوة سرية بطلب النجدة، لأنه كان معروف عنه أنه سور منيع لحماية الأقاليم الجنوبية. كان شاول بعيدا جدا ولا تتاح له فرصة النجدة السريعة التى كانت مطلوبة، ولعله كان منهمكا فى أوهامه الخاطئة؛ أما داود فقد كان متأهبا، نشيطا، قريبا، وإذ جاءته هذه الدعوة وجدت إذنا صاغية، سيما وقد تأيدت بالصوت الإلهى (ع٢). فقام ونزل من جبال يهوذا إلى السهول والتقى بالناهبين أثناء عودتهم محملين بالغنائم الوفيرة وأمامهم الماشية الكثيرة، وضربهم ضربة قاتلة، وأعاد كل الغنائم لسكان المدينة الذين فرحوا فرحا عظيما، واستضافوه ورجاله لجميله، واعترافا بخدماته.

سُر رجال داود بهذه الضيافة بعد التعب الشديد الذى حل بهم، ولا شك فى أنهم وجدوا فى عودتهم إلى مدينه «لها أبواب وعوارض» تغييرا محببا بعد أن قضوا الأيام الطويلة فى مغاور وشقوق الأرض، كما تجد البشرية الآن راحة وغبطة فى تغيير الحياة من الهمجية إلى المدنية، وهذا الشعور بالغبطة والراحة ينعكس فى مزمور إمام المغنين الحادى والثلاثين «مبارك الرب لأنه قد جعل عجبا، رحمته لى فى مدينة محصنة».

٢- زيف: على أن إقامته فى قعيلة لم تطل بسبب الأخبار التى جاءته - ربما يوناثان - بأن شاول يجرد حملة لاقتناصه كعصفور، ولو أدّى الأمر إلى تخريب كل المدينة التى آوته. وقد تأيدت هذه الأخبار بواسطة الأفود التى التجأ بها داود إلى إله إسرائيل. وبعد ذلك أعلمه الرب أن سكان المدينة الجبناء الجاحدين إذا ما ألزموا على التفضيل بينه وبين الملك لا يترددون عن إنقاذ أنفسهم بتسليم منقذهم، حينئذٍ قام داود ورجاله - وعددهم نحو ستمائة - وغادروا قعيلة وساروا حيثما أمكنهم المسير، ولعلهم قسموا أنفسهم إلى فرق صغيرة، واختار داود من رجاله أكثرهم شجاعة وإخلاصا، ورافقهم إلى المدينة المجاورة «زيف» وهى تبعد عن مدينة حبرون نحو ثلاثة أميال إلى الجنوب.

وهنا صارت حياة داود فى غاية الخطورة، فقد كان الملك يفتش عنه كل يوم بغضب شديد، جعل الكل يعتقدون أنه يبحث عنه ليبطش به، وتحت ستار الكلمات التى تحمل ظاهرها آثار التدين والتقوى ومعرفة الله (ع٧و٢١)، كان شاول يخفى رغبته فى مقاومة المقاصد الإلهية؛ لقد كان يعلم أن داود سيصير ملكا على إسرائيل، الأمر الذى نقله يوناثان لصديقه فى مقابلة خاطفة فى برية زيف فى الغاب (ع١٧)، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه على قتله إن استطاع لذلك سبيلا. يا لها من حالة تعسة شنيعة تلك التى وصل إليها شاول نتيجة تركه لنفسه وأفكاره الرديئة وطرقه الشريرة؛ من ذلك يتضح أن داود كان له الحق فى أن يخشى غضب وحنق ذاك الذى أقام نفسه حتى لمقاومة إرادة الله.

وعلاوة على ذلك الحقد الشنيع، فإن أهل زيف كانوا يدبرون خيانة مبتذلة، لأنهم فكروا فى أن يتملقوا الملك بأن يكشفوا له عن مكمن داود، على أن داود وصلته أخبار هذه الخيانة ، فتحرك جنوبا نحو برية معون إلى جبل مخروطى الشكل يكشف كل البلاد المجاورة، ولكن رجال زيف أرشدوا الملك فورا إلى المكان بمنتهى الدقة، حتى أن داود ورجاله سرعان ما وجدوا أن الجبل قد احتله الملك بجيوشه، وخيل إليهم أن نجاتهم مستحيلة، ولكن لحسن حظهم، جاء فى ذلك الوقت الحرج رسول إلى شاول يركض بكل قوته وفاجأه بهذه الكلمات «أسرع واذهب لأن الفلسطينيين قد اقتحموا الأرض».

عندئذ تنفس داود الصعداء، وتغنى بمزموره الرابع والخمسين «اللهم باسمك خلصنى، وبقوتك احكم لى».

٣- عين جدى: وبعد أن أنقذ الرب داود من هذا الشر العاجل الذى كاد يلحقه به شاول، ترك معون وانتقل شرقا إلى «صخور الوعول» على شواطئ البحر الميت. على الشاطئ الغربى، فى منتصف المسافة بين الشمال والجنوب، توجد بقعة مستوية غنية بمزروعاتها، ومحصنة بحصون قوية بارزة فى مياه البحيرة، ويقال إنه قد وجدت آثار مدينة قديمة فى تلك البقعة، وآثار أشجار نخيل؛ هنا اختبأ داود بعد زيف فى «عين جدى» (أى مسكن الجدى البرى)، حيث تتوفر فيه كل احتياجاته؛ وهنا أيضا يسجل المرنم اختباراته موسيقيا فى مزمورين من أجل مزاميره، وهما (مزمور ٥٧): «ارحمنى يا الله لأنه بك احتمت نفسى وبظل جناحيك احتمى إلى أن تعبر المصائب»، و(مزمور ١٤٢): «بصوتى إلى الرب أصرخ، بصوتى إلى الرب أتضرع».

ولقد كانت اختبارات البرية أيضا باعثة على وضع بعض المزامير الأخرى التى تتميز كلها بتعدد الإشارات ذات المعنى الواحد، المستقاة من البرية والصخور. وبتكرار الاحتجاجات التى يظهر فيها براءته، وتكرار الكلمات عينها التى يشير فيها إلى التجائه فى ظل جناح القدير، وتكرار نفس الإشارات التى يشير فيها برقة ولطف إلى شاول؛ من ضمن هذه المزامير، (مزمور ١١، ١٣ ١٧، ٢٢، ٢٥، ٦٤).

(٢) بعض مميزات هذه المزامير :

لا يسمح لنا المجال بالتأمل الدقيق فى كل منها، ولكن لنتأمل بوجه عام فى بعض نواحيها التى تبدو واضحة جلية لدى النظرة السطحية إليها.

١- صيغة المجاز فيها: فهى تتحدث عن الإنسان كأسد «مثله مثل الأسد القَرِم إلى الافتراس وكالشبل الكامن فى عرِّيسه»، ونفسه تحتمى تحت جناحى أبيها. ثم يتحدث عن الله بأنه صخرته، وفيه يختبئ كما تختبئ جماعته فى المغارة، ومعينه لا يدع أعداءه يظفرون به، بل يحدث لهم ما يحدث للصيادين فى كثير من الأحيان، وفى نفس تلك القفار، إذ يسقطون فى نفس الحفرة التى يحفرونها للوحوش التى يريدون اصطيادها، بالليل يختبئ فى الله، وفى الصباح يستيقظ مترنما، كل هذه المزامير مشحونة بالكثير من التشابيه والاستعارات والأقوال المجازية المماثلة.

٢- إشاراتها الرقيقة لشاول؛ إنه لم يشفق على أولئك الذين كانوا يحفزون الملك ويثيرون

غضبه عليه، بل نعتهم بأقسى الصفات، وأولئك الذين كانوا يترقبون سقوطه قائلين: الحقه، الحقه؛ الذين حقدوا عليه وأساءوا إليه وحرفوا حقه، لم يتردد فى أن يشبعهم من قارس الكلام. وأما عن شاول، فلم يذكر شيئا سوى إشارة خفية عنه بصيغة الجمع، يصف فيها جماعة العتاة الذين طلبوا نفسه (مز ١٤:٨٦)، وهناك إشارة رقيقة إلى الأيام السعيدة السالفة التى أظهر فيها أسفه الشديد من أجل مرض الملك، ولبسه المسيح، وإذلال نفسه بالصوم (مز ١٣:٣٥)؛ ولكننا لا نجد أية كلمة ينعى فيها باللائمة على شاول، أو يوبخه فيها، أو يعيره، أو يقابل فيها البغض بالبغض، وفى ذلك نجد - مقدما - صورة مصغرة لتعاليم المسيح وصفاته.

٣- وهى تبين استقامته بشكل واضح: لقد كان ضميره بلا عثرة أمام الله والناس، ولكن لو أنه نسبت إليه براءته التامة من كل خطية، لكان أول من يرفض نسبة هذا إلى نفسه، وأول من يعترف بأنه فى حروبه كان فى حاجة مستمرة إلى الذبائح الكفارية التى تشفع فى ضعفه أمام الله. أما عن وجهة نظره مع شاول، أو قبل أية خيانة ضد نفسه، أو ضد بيته، أو قبل أية جريمة يستحق مرتكبها ما كان ينويه من الشر ضده، فقد اعترف ببراءته التامة، وكان واثقا من أنه يقف أمام الله بيدين طاهرتين وقلب طاهر كشخص لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذبا (مز ٧:٣ و٤ و٥، مز ٢٤).

٤- وتبين أيضا آلامه بكل وضوح : بين جميع أنواع الآلام لا يوجد أمَرّ وأشدّ إيلاما من حقد أصدقائنا، وهذا هو أمرّ ما عاناه داود؛ كان أشد ما عذب نفسه الحساسة الرقيقة أن يرى مبغضيه يتعقبونه بخبث وحقد وضغينة، بينما كان هو لا يحمل لهم فى قلبه أى أثر للشر، بل كان يصلى من أجلهم، ويتفانى فى خدمتهم «أسنانهم أسنة وسهام، ولسانهم سيف ماض» (مز ٤:٥٧).

٥- وأخيرا تتبين أنه كان لا يلجأ إلا إلى الله :

اللهم باسمك خلصنى
وبقوتك احكم لى
هو ذا الله معين لى

مز ٥: ١و٤

أصرخ إلى الله العلى

إلى الله المحامي عني

يرسل من السماء ويخلصني

يرسل رحمته وحقه

مز ٥٧: ٢ و٣

باد عني المناص، ليس من يسأل عن نفسي

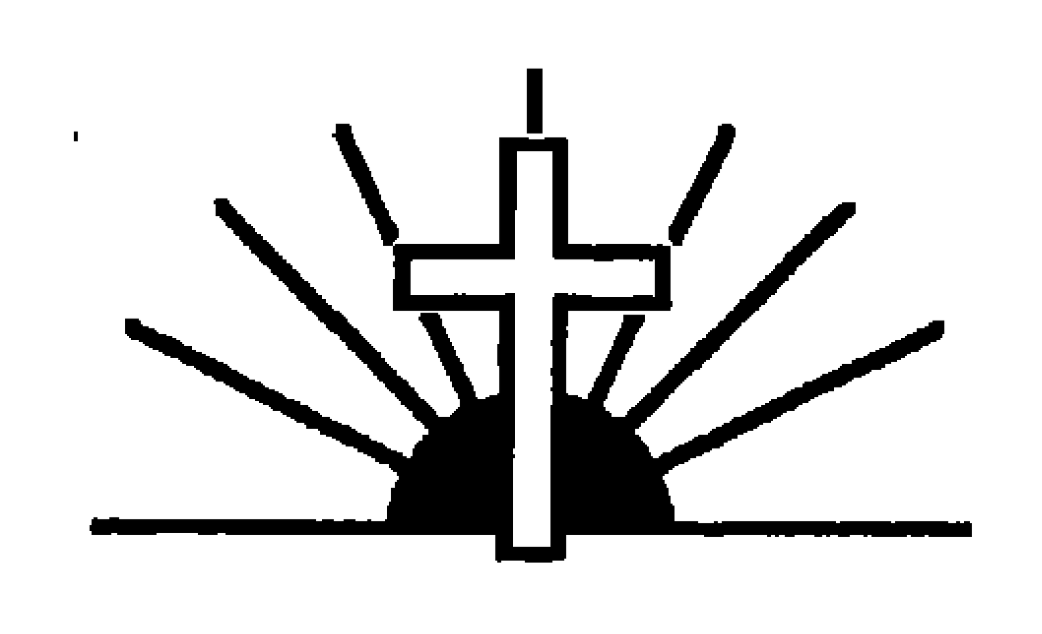
صرخت إليك يا رب

قلت أنت ملجأي

مز ١٤٢ :٤ و٥

يا لعمق هذه الطلبات؛ إنه لا يحاول أن ينتقم لنفسه أو يرد المثل بالمثل، بل يسلم نفسه لمن يقضي بعدل، واثقا من أن القدوس البار سيظلله وقت التجربة، ويظهر مثل النور بره، وحقه مثل الظهيرة.

إن كان هنالك ممن يقرأون هذه السطور ، من هو رازح تحت المظالم والاضطهاد، فليسترح في الرب، وينتظره بالصبر. قد يمر بعض الوقت حتى تأتي ساعة الخلاص التي يلبسون فيها الثياب البيض، ثياب البراءة والقداسة (رؤ ٦:١١). أما الآن، فإن الرب سوف يقوم ويقيم المسكين من التراب، ويرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء، ويملكهم كرسي المجد «لأنه لا ينسى المسكين إلى الأبد، رجاء البائسين، لا يخيب إلى الدهر» (مز ١٨:٩).



الفصل الرابع عشر

داود يكبح جماح نفسه (١ صم ٢٤ و٢٦؛ مز ٤٢ :١)

انتظر، فإن نور النهار لابد أن يشرق
ولو طال الليل
انتظر، فإن الله لن يتركك
تقو، تقو
انتظر، فهذا مفتاح الراحة
وسلام الله
انتظر، حتى يحين الوقت
الذي يريحك الله فيه من أعبائك

تونسند

عندما راجع داود ماضي حياته، ودوّن اختباراته، كان عالما علم اليقين بالشرور الكثيرة التي أحاطت به، بالحفرة العميقة والطين والأوحال التي رفع منها ، وبالأشرار الكثيرين الذين حاولوا عبثا اصطياد نفسه، ولكنه من الجميع أنقذ؛ على أنه لم يتجاسر بأن ينسب نجاته لسرعة خاطره أو ذكائه، أو لخفة حركاته، بل ‹، فقط، لاحظ كيف يدون أعمال الله معه، إذ يقف فوق قمة السنين وينظر إلى أسفل وإلى الوراء:

(هو) مال إليّ وسمع صراخي

(وهو) أصعدني من جب الهلاك، من طين الحمأة

(وهو) أقام على صخرة رجلي، ثبّت خطواتي

(وهو) جعل في فمي ترنيمة جديدة، تسبيحة لإلهنا

(مز ٤٠ :١-٣)

وإذا ما تساءلنا بعد ذلك عن وجهة نظره أثناء كل تلك السنوات الأليمة الطويلة، أجابنا على الفور:

انـــتـــظـــارا انـــتـــظـــرت الـــرب

مز ٤٠ :١

رأينا فى أحد الفصول السابقة كيف كان داود ينظر إلى الرب ويتطلع إليه، ولكن هناك فرقا واضحا بين النظر إليه، وبين انتظاره، ولو أنهما مرتبطان ببعضهما عمليا. إننا ننظر إلى الرب بالصلاة والتضرعات، متطلعين إلى إعلان إرادته، وننتظره بالصبر والتسليم، متطلعين إلى تدخيل يمينه؛ وما أشد حاجتنا لنتعلم هذا الدرس، درس الصمت والصبر والانتظار والتسليم. جميل جدا أن نرى فى الحادثتين اللتين أمامنا كيف تعلم داود هذا الدرس تماما، وتعلم كيف ينتظر الرب.

(١) أساس انتظار الله :

يجب أن يكون هناك وعد يبرر الانتظار، أو قول صريح من الله تتكل عليه «كإعلان أكيد» لمقاصده. لقد أعطى يوناثان لداود حبيبه هذا «الإعلان الأكيد» عند اجتماعهما الأخير فى غابة زيف، إذ كان يتكلم كرسول من قِبَلِ الله، وكم كان جميلا وقع تلك الكلمات على قلب داود المتعب الذى استساغها كما تشرب الأرض الجافة المياه: «لا تخف لأن يد شاول أبى لا تجدك وأنت تملك على إسرائيل وأنا أكون لك ثانيا»، والأكثر من ذلك أن يوناثان أكد له أن هذه هى عقيدة شاول أيضا «وشاول أبى أيضا يعلم ذلك».

وفوق ذلك، فقد كان واثقا من القوة التى منحها الله إياها، والمقدرة على قيادة دفة المملكة المضطربة، وتوصيلها إلى المياه الهادئة.

وإذ أدرك كل هذه العوامل لتأييد الوعد الأصلى، ازداد اقتناعا بأن < مقصدا ساميا فى حياته، ووطد العزم على انتظار الرب بالصبر ليتمم قوله، وصمم على عدم بذل أى مجهود شخصى للوصول إلى المُلك؛ لأنه إن كان الرب قد وعد، فلابد أن يتمم وعده، ومتى حانت الساعة التى يجلس فيها على العرش كملك على شعبه، كان كل ذلك من أوله إلى آخره، مجرد هبة من الله، ونتيجة لتدخل يد الله، لأنه لن يوجد ما يمنع الله عن أن يقول:

أمـــا أنـا فــقـــد مـــســـــحت ملكى

علـى صـــهــــيـــون جـــبل قــــدسى

مز ٢ : ٦

(٢) حادثتان خطيرتان :

١- «عين جدى»: في أحد الأيام، بينما كان شاول يتابع داود بكل غضب - ومعه ثلاثة آلاف من رجاله - وسط صخور عين جدى الوعرة، حصلت حادثة غريبة في قصة داود؛ كانت حرارة الشمس في منتهاها، مما دعا كل مخلوق حي إلى أن يختبئ من قيظها، لهذا اختبأ داود في مغارة عظيمة مع رجاله، أو لعله اختبأ في تلك المغارة هربا من شاول؛ وإذا بشاول يأتي إلى نفس تلك المغارة ويستقر فيها إلى مسافة قليلة من مدخلها، أما رجاله، فقد انتحوا ناحية أخرى، كأني به فأرا قد دخل إلى المصيدة.

هذه المغاير، حالكة الظلام من الداخل، ولا يستطيع الداخل إليها من الخارج أن يرى مسافة قدم واحدة، أما من كان قد أقام بداخلها طويلا، فإنه يستطيع أن يرى كل حركة على بابها بوضوح تام؛ لهذا، فإن شاول لدى دخوله لم يستطع أن يرى أحدا بداخلها، أما داود ورجاله، فقد عرفوه، وأبصروا كل خطواته لدى دخوله، ولم يخطر على باله مطلقا أنه قد سعى إلى حتفه بظلفه، وحالما رآه رجال داود امتلأت صدورهم بشرا وسرورا.

والآن، قد حانت الفرصة لداود ليريح جماعته من تشردهم ومتاعبهم بضربة واحدة برمحه، ولعلهم همسوا في أذنه قائلين:«انتهز الفرصة، فلن يجود الزمان لك بفرصة أكثر مناسبة، هو ذا الرجل الذى سعى مرارا ليصطاد نفسك، وهو ذا قد جاء الآن لنفس هذه الغاية، يقينا أن ناموس الله نفسه يبيح لنا الفتك بمن يريد الفتك بنا، ولا شك في أن الله نفسه قد أتى به إلينا هنا لكى تنتقم لنفسك منه بسبب إساءاته إليك، ولكى توفر على نفسك الإساءات القادمة».

وبكل جهد، استطاع داود أن يكبح جماحهم، وهذا يدل على مقدار ما كان له من نفوذ قوى على رجال أشداء غشومين كأولئك الرجال، ولا شك في أنه بذل أيضا جهود الجبابرة لكى يكبح جماح شهوته هو شخصيا، في الانتقام، فقد كانت ثائرة فائرة في كل عروقه، واكتفى

بالزحف بقرب الملك وقطع طرف جبته، لكى يبرهن له فيما بعد أنه كان فى قبضة يده تماما، ولكنه فيما بعد، ندم حتى على هذا العمل التافه (قطع طرف جبته)، وبعد خروج الملك شاول، التف رجال داود حوله مظهرين استياءهم الشديد من ضعفه، ولكنه قال لهم «حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى بمسيح الرب، فأمد يدى إليه لأنه مسيح الرب هو».

٢- «مخيلة»: فى هذا المكان، كاد داود أن يقع فى يد شاول من قبل؛ أما الآن، فقد دارت الدائرة، وانعكس الموقف. ومرة أخرى، نرى شاول يقتفى أثر داود «ومعه ثلاثة آلاف رجل منتخبى إسرائيل»، ولعل الدافع له إلى ذالك عامل من العوامل الشريرة، سوف نتأمل فيه فى الفصل التالى؛ إذ تحقق داود -بواسطة جواسيسه - من الموقع الذى حل فيه شاول ورجاله، نراه يحاول التأكد منه شخصيا بالصعود على صخرة مشرفة على ذلك الموقع. كان شاول مقيما فى الوسط، هو وأبنير، وحوله رجاله، وحول الرجال اصطفت العجلات بشكل متراس، ولكن الحراسة نظمت تنظيما سيئا، ولم تُتَّخذ الحيطة ضد الهجوم المفاجئ.

تملك داود شعور مفاجئ، واقترح على أبيشاى وأخيمالك الحثى، النزول إلى محلة شاول ليلا، فتطوع أبيشاى لمرافقته بكل سرور، ونزل كلاهما من الجبل فى ضوء القمر، ثم عبرا الوادى واخترقا متراس العربات، ثم صفوف الجنود النائمين، ووقفا برهة يتهامسان فوق رأس الملك الغارق فى نومه «وأخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول، وذهبا، ولم ير، ولا علم، ولا انتبه أحد، لأنهم جميعا نياما لأن سبات الرب وقع عليهم».

وهكذا، نرى مرة أخرى، أن شاول قد وقع فى يد داود، ولكنه ضبط نفسه، لم يستطع أبيشاى أن يدرك نفسية داود، أو أسراره الخفية، لأنه خيل إليه بأنه أمر طبيعى وشرعى جدا أن يبطش داود بذلك الذى كان يحاول بكل قوته البطش به. ولا شك فى أن داود لو كان متأذيا من قتله بيده هو شخصيا، لصرح لأبيشاى بقتله، لأنه [أبيشاى] لم يكن شريكا فى الخصومة شخصيا، وفى الحديث السرى الذى دار بينهما فوق رأس الملك، قال أبيشاى لداود، إن الله حبس عدوه فى يده، وطلب منه أن يأذن له بضربه برمحه ضربة قاضية عاجلة «تقضى عليه فى برهة، فلا يتمالك من الأنين أو الصراخ لإيقاظ أبنير أو حرسه»، أما داود، فلم يسمح بذلك.

وقال له: «كلا! إنى لن اشترك فى هذا العمل، فمن الذى يمد يده لمسيح الرب ويتبرأ، عندما تحين ساعة موته يأخذه الله ، إما أن يموت طبيعيا على فراشه فى قصره، أو أثناء معركة الحرب، ولكن يدى لن تقصر أيامه، فلابد لى من انتظار اليوم المعين من قِبَل الله».

في كل من هاتين الحادثتين، تصرف داود بروح الشهامة وعظمة النفس الجديرة بالأبطال والقديسين، إذ لم يشأ أن ينتهز الفرصة للفتك بغريمه، ولم يشأ أن ينتقم لنفسه بسبب الإساءات التى لحقت به، أو يقابل المِثل بالمِثل، ولم يشأ أن يسلم بالحجة المعسولة التى قدمها إليه أبيشاى، وهى أن الفرصة إن كانت قد حانت، فإنها تأذن بالانتقام، لكنه بالحرىّ هدأ ثورة نفسه وقاوم التجربة الخبيثة الماكرة، وفضل أن ينتظر حتى تتكشف المقاصد الإلهية ولو بعد وقت طويل.

(٣) السلوك الذى يبعثه انتظار الله :

١- أنه يمنع الجرائم: لا شك فى أن داود لو رضخ لأصدقائه ومد يده لقتل شاول، اشتدت به آلامه النفسية بسبب وخزات الضمير القاسية، ولحرمت البشرية من نغمات قيثارته العذبة، ولما وُجِدَ هنالك ما يبرر سباب شمعى وكلماته القارسة فى ذلك اليوم المظلم فى حياته، ولكن هذه الكلمات مهما كان وقعها أليما على نفسه، فإنها لم تؤذ ضميره على الإطلاق، إذ كان عثرة أمام الله والناس، فإنه إذ بحث قلبه أمام الله، أدرك أن تمرد ابنه أبشالوم عليه واغتصابه عرشه لا يمكن أن يعتبرا اقتصاصا منه من جنس العمل، جزاء له على معاملته لشاول كما أخبره شمعى. صحيح أنه كان يجب أن تنقضى بضعة شهور مملوءة بالاضطراب والانتظار قبل أن يتوج ملكا فى حبرون، ولكن هذه المدة نسيت ذكرياتها كما يذوب الثلج فى النهر، وبعد ذلك لم يكن هنالك ما يندم عليه داود، ولم يشعر بوخزات فى الضمير، ولم يجد مرارة فى كأس مسراته، إذن، فاهدأ أيها القلب، وانتظر الله، لأن ذلك يحفظك من بعض التصرفات أو الأقوال التى إن سمحت بها نغصت عليك كل أيام حياتك القادمة.

٢- ويبعث الشجاعة: يا لها من روح جريئة شُجاعة، تلك التى ملأت جنبى داود، تجاسر بأن يصرخ وراء الملك وأمسك بيده جبته (١ صم ٢٤:٨-١٥)، تلك الروح التى طلبت إلى اثنين من أقوى رجاله أن يشتركا معه فى عمل جرئ، فتراجع أحدهما (١ صم ٢٦:٦). يقينيا أن الرجل الذى يعيش حسب المقاصد الإلهية تكون له الشجاعة التى لا تقهر، فهو يدرك أن كل آلة صورت ضده لا تنجح، وأن كل لسان يقوم عليه فى القضاء يحكم عليه (إش ٥٤:١٧)، إنه لا يرهب شيئا سوى فعل الخطية وإغضاب الله، وإن كان فى اتِّباعِه الطريق القويم يأتى فجأة إلى حافة الهاوية التى يجب أن يطرح نفسه فيها، فإنه لا يتردد أن يفعل هذا، عالما أن الملائكة

سوف ترفرف تحته وترفعه، فلا تصطدم بحجر رِجلُه.

٣- ويمنح راحة عظمى: يقينا أنه بعد اختبارات كهذه، كتب داود المزمور السابع والثلاثين، الذى ولو كان يرجع إلى عهد أحدث، إلا أنه يؤيد هذه الاختبارات. إن الحكمة الناضجة التى بلغ إليها فى شيخوخته، لم تأته إلا عن طريق بوتقة الآلام التى اجتازها فى أيام شبابه.

لا تغـــــــــر من الأشـــــــــرار

ولا تحـــــــسد عـــــــمـــــال الإثم

فـإنهم مـثل الحشيش سريعــاً يُقطعـون

ومـــثل العـــشب الأخـــضـــر يذبـلون

مز ٣٧ :١و٢

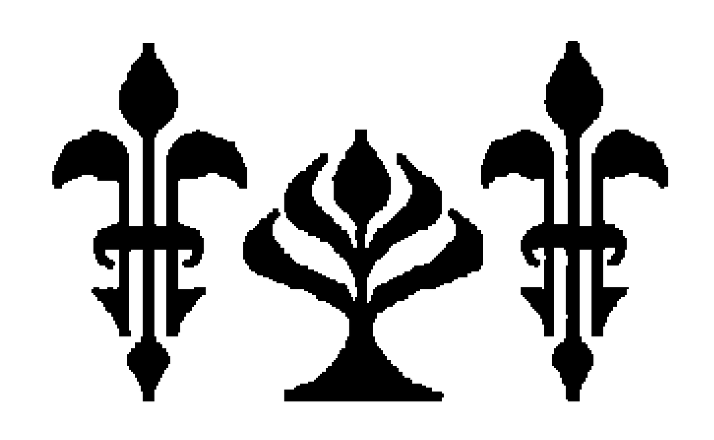
إن النصائح المتضمنة فى هذا المزمور الجليل، التى تحثنا على الاتكال على الله، والتلذذ بالرب، تسليم الطريق للرب، انتظار الرب والصبر له، سيما عدم الغيرة من الأشرار – كل هذه تسطع بلمعان جديد ، ومعنى جديد، عندما نقرأها فى نور هذه الحوادث الخطيرة فى حياة داود.

أيها القارئ العزيز: عش حسب المقاصد الإلهية، لا تبال بنفسك كثيرا، بل ليكن كل اهتمامك هو إتمام عمل الله. يقينا إنه سوف يعتن بمصالحك إن كنت تعتنى بمصلحته، هدئ نفسك كفطيم، استرح، اصمت، واتكل، فإن الله يدبر كل مستقبل حياتك، إنك لا تستطيع أن تعجله، وإذا فعلت ذلك، فإنك إنما تنفق جهودك بلا مبرر، إنه سوف يمنحك سؤل قلبك فى الوقت الذى حدده هو، وهو أنسب الأوقات .

٤- ويبعث توبة فى الآخرين: عندما برهن داود على قدرته لضبط نفسه، وولائه التام الذى ظل محتفظا به لشاول، ومحبته الأكيدة له، رغم كل ما بذل من مجهودات عنيفة من ناحية شاول، مما كان يكفى لإطفاء تلك المحبة، وعندما أثبت براءته الكاملة، وأوضح بأن التهم التى نُسبت إليه لم يكن لها أساس مطلقا، وعندما تحول بكل خشوع وإخلاص من أباطيل الأرض ومظالمها وظنونها وسوء تقديرها إلى قضاء الله العادل – عندئذ رفع الملك التعس صوته وبكى، واعترف

قائلا: «قد أخطأت». لقد تحقق شاول من نُبل داود، ولذا، فإن روح البطش التى كانت تدفعه للانتقام من داود تحولت إلى ضعف وجبن وخور فى العزيمة، بل ذهب إلى أبعد من هذا، فإنه اعترف بأنه (داود) لابد أن يصير ملكا، ولا شك فى أن العامل الوحيد الذى قرّب شاول إلى التوبة، هو روح احتمال داود وصبره وطول أناته.

ولا زالت هذه هى الطريقة لربح الآخرين، فكلما ازددنا تواضعا وخضوعا وتسليما، ازددنا ربحا للآخرين. وعندما نأبى أن نسئ استخدام الفرص التى تقدم إلينا، نجنى منها أينع الثمرات. إن الشخص الذى يعرف كيف ينتظر الله، هو رجل القوة، ولابد أن يعترف الآخرون له بها، وينحنون أمام صولجانه، وخضوعنا لمبادئ الله السامية، يجعل زمرة من الجنود تحت أمرنا، يذهبون ويأتون حسب إرادتنا، ويفعلون ما نأمرهم به.



الفصل الخامس عشر

كوش البنياميني (١ صم ٢٦:١ ؛ مز ٧)

كل من اشتاق إلى تلك البركة
يجب أن يجوز الدماء والنار حتى يبلغ إليها
إن أنات القلب الجريح
أقسى من حراب العدو
إن النفوس الهادئة المتراخية
التى تستخف بكفاح الحياة اليومى
تفضل حياة البلادة والكسل
وتبقى فى شقائها دون أى اكتراث
ودون أن تجد أى رجاء لها على الأرض

كبل

غريب جدا أن نجد شاول يبحث عن داود بعد أولى الحادثتين اللتين تأملنا فيهما فى الفصل السابق، فقد كان يبدو عليهما فى عين جدى أنهما تقاربت نفساهما وتم الصلح بينهما وعاد الصفاء إلى قلبيهما على أحسن حال، إذ اعترف شاول بأن داود أبر منه، وأنه قد تصرف معه تصرفا نبيلا، وطلب من الله أن يكافئه خيرا، وأكد له بأنه واصل إلى الملك يقينا، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا، إذ طلب منه أن يحلف له بأن لا يقطع نسله من بعده ولا يبيد اسمه من بيت أبيه عندما يصل إلى كرسى الملك (١صم ٢٤:٢١،) ولكنه سرعان ما عاد إلى متابعة داود بعد وقت وجيز.

قد يعزى هذا التقلب بطبيعة الحال إلى المرض الذى كان يشكو منه، ولكن هنالك سببا آخر أكثر معقولية، وهذا السبب يكشف لنا عن نور جديد، ومعنى جديد للمزمور السابع. يؤكد الدكتور ماكلارن – الذى تدين الكنيسة كثيرا لتفسيره الرائع لسفر المزامير – أن هذا المزمور السابع يرجع إلى تلك الفترة من حياة داود، وبيّن أنه يعيننا على فهم التقلب السريع فى أخلاق شاول.

صدر هذا المزمور بعنوان «شجوية[١] لداود غناها للرب» شكرا، أى أنه نشيد شاذ، كنهر جار يتكسر تياره على بضعة صخور فى قاعه، يعبر بنغماته وأوزانه المتغيرة عن اضطراب مؤلفه. إننا كثيراً مانضطر أن نتغنى بهذه الأوزان الشجوية المتكسرة، كثيرا ما تتكسر أغنياتنا بالأنّات والتنهدات؛ على أنه يحسن بنا حتى فى هذه الأحوال أن نحسن النشيد، وطوبى لأولئك الذين يستطيعون أن يغنوا للرب فى كل الظروف الأليمة المحزنة.

أما باقى العنوان الذى صدر به المزمور، فهو: «بسبب كلام كوش البنياميني». ومن هو كوش هذا؟ كلمة «كوش» معناها «أسود» لعلها تشير إلى لون جلد وشعر رجل بنياميني أطلقت عليه هذه التسمية، يظن البعض أنها تسمية أطلقها داود على شاول، ولكن لهجة الاحترام التى كان يتحدث بها دوما عن مسيح الرب (أى شاول) تجعل هذا الظن بعيد الاحتمال، ويظن الآخرون أنها تشير إلى شمعى البنياميني الذى سب الملك بكل وقاحة فى ساعة محنته، فلم ينل من الملك إلا منتهى الصبر والاحتمال، وأما أبيشاى فحنق عليه أشد الحنق، ولكن الأسلوب يدل بشكل واضح على أن المزمور يشير إلى هذه الحقبة من تاريخ داود، الأمر الذى يجعل هذا الفرض[٢] أيضا بعيد الاحتمال.

ولدى فحص المزمور دقيقا يتضح أنه قريب الشبه جدا من تلك الكلمات التى فاه بها داود عندما تحدث هو وشاول خارج مغارة عين جدى ثم عند جبل حخيلة.

والواقع أن أوجه الشبه كثيرة ودقيقة، حتى أنها تكاد تنطق بأن هذا المزمور يشير إلى الحوادث التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق، وإن كان الأمر كذلك، استطعنا أن ندرك سبب تقلب شاول وعودته إلى عاطفة الانتقام مرة أخرى. ولدى مقارنة المزمور بما ورد فى سفر صموئيل الأول، يتضح جليا أن كوش كان أحد أصدقاء شاول الحميمين ورفقائه الملازمين له، وأنه كان باستمرار يفسد عقل الملك ويسمم أفكاره باتهامات باطلة ضد داود. عندما كان شاول يفارق هذا الرجل، ويقع تحت تأثير عواطف داود النبيلة وأخلاقه السمحة الكريمة، كانت تفارقه روح الإنتقام وتنجذب نفسه إلى عواطف الصداقة القديمة، ولكنه عندما كان يعود إلى قصره، ويعود كوش إلى تأثيراته السابقة عليه، كان يستسلم إلى الناحية الفاسدة فى أخلاقه

---

[١] يقال: هذه الكلمة مشتقة من كلمة عبرية معناها: يتجول تائها، وأن داود استعملها فى هذه المناسبة، إذ كان عقله شاردا بسبب ضيقة نفسه، فصار يتخبط هنا وهنالك.

[٢] أى الفرض بأن التسمية تشير إلى شمعى البنياميني.

ويستأنف جهوده لمقاومة المقاصد الإلهية. وهكذا كان كالوشيحة (المكوك) يجئ ويروح بين هاتين الشخصيتين؛ ففي لحظة تجده قد أثر عليه داود وطبع فيه روح اللطف والشفقة والرحمة، وفي لحظة أخرى تجده وقد أثر فيه كوش فنفث فيه روح الحقد والانتقام.

يحتمل جدا أن نجد الكثيرين من قارئي هذه الكلمات من يستطيعون أن يدركوا – من اختباراتهم المرة – مرارة نفس داود من هذه الحالة. ولعلك أيها القارئ لا تخلو من وجود «كوش» في حياتك يذيع عنك كل مذمة زورا وبهتانا، وينسب إليك جزافا كثيرا من التهم الباطلة، ويسمم أفكار الكثيرين من جهتك ، مع أنهم لولا ذلك لأحسنوا الظن بك، وينسب إليك أمورا توجب الريبة والشك في أقدس وأنزه تصرفاتك؛ أمثال هؤلاء المفترين يوجدون في المنتديات الاجتماعية في العصر الحاضر، كما كانوا يوجدون في قصر أول ملوك إسرائيل، ويسببون انزعاجا للإحساسات الرقيقة اليوم كما سببوا لداود في قفار عين جدي.

والآن لنتعلم كيف نتصرف مع أمثال هؤلاء الأشخاص:

(١) فتش قلبك لتتأكد إن كان يوجد هناك أساس لهذه الافتراءات :

لعله يوجد بعض الحق في هذه الكلمات القارسة أكثر مما نظن لأول وهلة. أليس من الحكمة أن تتأكد من ذلك قبل أن تضرب بهذه الكلمات عرض الحائط أو تحتقرها؟ وربما تكون العيون الحادة الحاسدة قد لاحظت في أخلاقك ضعفا معينا يدركه أقرب الناس إليك، ولكنهم يحجمون عن لفت نظرك إليه، لأن المحبة سرعان ما تلاحظ فقط الضعف في الصديق، ولو أنها لا تكون أمينة على الدوام في إظهار الضعف أو توبيخه. أما المحبة السامية فهي وحدها التي تمنطق ذاتها وتغسل أقدام الأصدقاء. ومن الحكمة – قبل أن تمزق الخطاب الغفل من التوقيع أو ترفض الإصغاء إلى الحقائق القاسية المنتشرة في كل الجو المحيط بك – أن تجلس أمام كرسي القضاء عند قدمي المسيح وتسائل نفسك في نوره الوضاح عما إذا كنت تستطيع أن تقول مع داود:

ترسي عند الله

مخلص مستقيمي القلوب

مز ٧:١٠

(٢) وإن وجدت بأنه لا أساس لها فاغتبط :

أذكر على الدوام عندما يحتقرك البشر ويضطهدونك ويقولون عليك كل كلمة شريرة كاذبين (أولا) انك تسير فى أثر الأنبياء والقديسين فى كل الأجيال، وأنه يحق لك أن تثق بأنك فى الطريق المستقيم (ثانيا) وأنك تستطيع أن تستخلص منها - حسب أقوال المسيح الصريحة - تلك الغبطة التى هى أثمن وأعمق من كل أفراح العالم التى تزول كسحابة صيف.

كم نحن مدينون بالشكر ‹ لأنه حفظنا من أن نكون ملوثين فعلا بالتهم التى تنسب إلينا، لأنه كان ممكنا أن نرتكبها وأشر منها، وإن كنا قد نجونا منها فليس ذلك إلا لنعمته، وإن كانت لنا شهادة ضميرنا الصالح وشهادة روحه فى قلوبنا، فيجب أن يكون ذلك مصدر غبطة وسعادة لا ينضب.

(٣) إلجأ إلى حكم الله العادل :

نحن عبيده، وإن كنا مرضيين أمامه، فلماذا نكسر قلوبنا بما يقوله زملاؤنا العبيد، إنه وضعنا فى المراكز التى نشغلها، وإن أراد أن يبقينا فيها فعبثا يحاول البشر انتزاعنا منها مهما قالوا أو فعلوا؛ وعلى أى حال، فإنه أمر زهيد جدا أن ندان من البشر، بل نحن لا نحكم على أنفسنا، لكن الذى يحكم فينا هو الله، فهو وحده الذى تكشف أمامه الخفيات التى تعطى المفتاح الحقيقى للخطأ أو الصواب.

(٤) طلق حياة الجسد كلية :

لماذا نعذب أنفسنا بسبب هذه الكلمات القاسية والافتراءات التى لا أساس لها والخالية من المحبة؟ أليس لأننا نقيم وزنا لمدح الناس واستحسانهم؟ أليس لأن أخشى ما نخشاه أن ننتقد أو نحتقر من الآخرين؟ ألا يزال العالم يعيش بداخلنا معلنا لنا قوة تشبثه بنا بصدد هذه الإماتة؟ وهل هذا هو معنى صلبنا للعالم وصلب العالم لنا؟

إن كنا ندرك حقا بأننا لا شئ، وإن كان الله هو الكل فى الكل، إن كان السائد علينا فى حياتنا الداخلية هو روح الله وحمل الله، إن كنا مائتين عند الجسد وأهوائه وشهواته، وعائشين ‹ فقط، لما كنا نبالى بثلم صيتنا فى أفواه الأغبياء والخطاة. إذن، فهنا يعلن لنا الله نوعا من الموت أكثر عمقا، وعلينا أن لا نهرب منه، بل لنكن مستعدين أن نقع فى الأرض ونموت عن سمعتنا كما فعل يسوع الذى احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه، والذى كان يتحدث

عنه اليهود بأنه متحالف مع بعلزبول رئيس الشياطين.

يجب أن نختار الموت فى كل تلك الصور التى عرفها المسيح، حتى إذا ما اشتركنا معه فى موته نشترك معه فى قيامته.

(٥) اترك لله أن يبين حقيقة أمرك ويدافع عن سمعتك :

إن كل تهمة تلصق بنا، إنما هى جزء من شر العالم، وإعلان لفساده المتأصل، هى سبب حزن وهم ، هى جزء من العبء الذى يحمله على الدوام، ويستحيل علينا أن نزحزحها عنا أو نحاول الإفلات منها، ولا يجدينا شيئا أن نعامل الآخرين بالمثل، أو ننتقم منهم. ونحن يسوغ لنا - كيسوع - مطالبة المتهم الكاذب فى دعواه، بأن يثبت اتهاماته الباطلة، وإلا رددنا عليها بالنفى بكل ثبات. لكن إن فعلنا ذلك، ووجدنا أنه لا يجدينا شيئا، فليس لنا إلا أن ننتظر الله بالصبر، حتى يقوم وينتقم للمسيئين إلينا ويوضح حقنا.

هكذا فعل داود، حتى فى تلك الأيام القليلة النور، فإنه رفع أمره إلى الله البار، الذى يفحص القلوب والكلى، واعتقد بأنه يستطيع أن يتمنطق بسلاحه، يحدد سيفه، ويمد قوسه، ويهيئها نحو أولئك الذين لا يرجعون عن حنقهم على قديسيه. كان المرنم واثقا كل الثقة من ذلك الناموس الثابت، الذى لا يتغير، وهو أن شر الشرير لابد أن ينتهى، وأن «تعبه يرجع على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه»، وأن من يحاول اصطياد القديسين، «يسقط فى الهوة التى صنع». أما القديسون، فإنهم يثبتون، ويظهر الله برهم؛ وهذه كانت أيضا وجهة نظر المسيح، «الذى إذ شتم لم يشتم عوضا وإذ تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضى بعدل» (١ بط ٢:٢٣).

هذه هى الخطة المثلى والرشيدة: اصمت،لا تعط مكانا للغضب، فكر بالأحرى فى شقاء وتعاسة تلك النفس التى صدرت منها هذه الكلمات الشريرة، فكر فى ذلك أكثر مما تفكر فى الإساءات التى حلت بك، اشفق على ذلك الذى أساء إليك، إن جاع فاطعمه، وإن عطش فاسقه، اجتهد بأن تغلب شر قلبك بالخير، واترك الانتقام < ودعه هو يظهر برك، هو وحده الذى يستطيع أن يدافع عن حق البرئ، والضعيف، ويجازى المسئ فى الوقت المناسب.



الفصل السادس عشر

يد باردة على رأس حارة (١ صم ٢٥)

هدئني يا إلهي واحفظني هادئا
وبظل جناحيك ظللني
هدئني في احتمال الإساءات
متشبها بذلك الذي حمل العار عني
هدئني وسط تهديدات المقاومين
الذين يبغضون اسمك القدوس

هـ. بونار

سرت الأنباء في أرجاء البلاد - كما تسرى النار في الهشيم - بأن صموئيل قد مات، «فاجتمع جميع إسرائيل»، لشعورهم بهذه الخسارة العامة الفادحة، لرثاء هذا النبى والقديس، وتأدية آخر واجبات الإكرام. وتقديرا لشخصه وخدماته، منح هذا الامتياز الاستثنائي، وهو أن يدفن بجوار بيته في الرامة، على مرتفعات بنيامين، والأرجح جدا، أنه قد أطلق نداء عام بالعفو الشامل، فأتى داود ليشترك في توديع سيده وصديقه الوداع الأخير، على أنه لم يتجاسر بأن يبقى قريبا من شاول لحظة واحدة أكثر مما تستلزمه الواجبات الضرورية جدا، بل يمم وجهه نحو برية فاران - التي تكاد تكون مقفرة من السكان - حالما انتهت مراسيم تشييع الجنازة. وتقع برية فاران هذه في أقصى حدود اليهودية جنوبا، كان قدومه إلى هذه البلاد المتاخمة للحدود، باعثا الطمأنينة والسلام في قلوب سكانها، بسبب ما كانت تستهدف له على الدوام من إغارة العمالقة والفلسطينيين. لقد كان الرعاة محقين في اعتقادهم، بأنهم يدينون لداود بحمايته إياهم، وحسنا ما قاله أحدهم، «الرجال محسنون إلينا جدا فلم نُؤذَ، ولا فقد هذا شئ، كل أيام ترددنا معهم ونحن في الحقل، كانوا سورا لنا ليلا ونهارا، كل الأيام التي كنا فيها معهم نرعى الغنم» (ع١٥و١٦).

عندما كانت تقبل مثل هذه الخدمات، وتقدر قيمتها، فكان من العدل أن تقدم مكافأة عنها من نوعها، حسب تقاليد تلك الأيام، كان هذا أمرا بديهيا وناموسا غير مكتوب، ولذلك؛ فقد كان لداود كل الحق فى إرسال عشرة شبان من رجاله، لتحية صاحب الغنم الثرى – نابال – فى يوم رخائه وثرائه ليذكره، بالتزاماته نحوه، باعتبار أنه يرجع إليه جزء عظيم من الفضل فى هذه الثروة لحراسته إياه هو ورجاله، ولكى يطلب منه ما يجود به عن طيبة خاطر. ولكن إجابة نابال الفظة، نفذت إلى قلب داود كالسهم الحاد، وأدت إلى حادثة يرويها لنا الكتاب المقدس بأسلوب جذاب، جعلها من أحب وأعذب أناشيده.

تذكر هذه الرواية ثلاث شخصيات: نابال، داود، أبيجايل.

(١) نابال الفظ :

يصور لنا الكتاب المقدس، أخلاقه فى ثلاث أو أربع صفات شنيعة، لا داعى للإفاضة فى التحدث عنها. فى كل وسط نلتقى بأشخاص من هذا الطراز، يتشامخون على كل من كان دونهم، لا يحتملون في رخائهم، يفقدون رشدهم بسبب انغماسهم فى الملذات، أدنياء، أذلاء وقت الملمات، يتيهون عجبا عندما يرون أنفسهم آمنين، ولكنهم فى ساعة الخطر، تنوب قلوبهم خوفا، وجبنا، وتذللا. يا له من وصف دقيق – ينطبق على كل من كان على شاكلته، ذلك الذى صور به غلامه – فى ملاحظته السرية لزوجته، من أنه «ابن لئيم لا يمكن الكلام معه».

(١) «كان الرجل عظيما جدا» كما يروى لنا الكتاب، ولكن هذه كانت أحط أنواع العظمة، غير مبنية على أخلاقه، أو ما حازه من أعمال النبل والبطولة، بل على وفرة قطيعه الذى يملكه، «له ثلاثة آلاف من الغنم وألف من المعز»، منتشرة فى مراعى الجنوب. هناك أربعة أنواع من العظمة؛ فاختاروا لأنفسكم أيها الشباب، أفضلها، كهدف لكم فى الحياة، إن أحقرها هى عظمة الثروة، والممتلكات، وأفضل من هذه، عظمة الأفعال، وأفضل من كليهما؛أن تكون لنا آراء عظيمة، نستبقيها لأنفسنا، ونذيعها للآخرين. أفضل الكل؛ عظمة الأخلاق، وجه عنايتك نحو العظمة التى تهتم بها السماء. عندما أعلن الملاك عن يوحنا المعمدان، «أنه يكون عظيما أمام الرب»، كان يقصد من هذه العظمة: ضبط النفس، (خمرا ومسكرا لا يشرب)، الامتلاء من الروح القدس، (ومن بطن أمه يمتلئ من الروح)، خدمة البشرية، (ويرد كثيرين من بنى إسرائيل ...إلخ).

(٢) وكان أحمق، كما قالت عنه زوجته، «لأن كاسمه هكذا هو، نابال اسمه والحماقة عنده»،

مسكينة هذه المرأة، لقد كان لها كل الحق، بأن تتحدث عنه، هكذا، بحرقة ومرارة، وفي نفس الوقت كانت امرأة فاضلة، فلم تشأ أن تتحدث عن زوجها بهذه الألفاظ القاسية، إلا بعد أن صارت أعماله الفظة ويده القاسية، سببا في ضياع البقية للمحبة الزوجية والاحترام الزوجي. ولعل صورة نابال، كانت ماثلة أمام عيني المسيح، عندما نطق بمثل الغني، الغبي، الأحمق؛ الذي خيل إليه، بأن نفسه يمكنها أن تستريح، وتغتبط، بسبب امتلاء بعض المخازن. هنالك أشواق في النفس، لا تستطيع الأطعمة الفاخرة إشباعها، وهنالك رغبات، لا يمكن إشباعها بمجرد جعل همنا الوحيد، إطعام الجسد ثلاث مرات في اليوم، طول أيام الحياة.

(٣) وكان «ابن لئيم» كما قال عنه خادمه، وهذا ما برهن عليه تصرفه مع داود، عندما قدم إليه طلبه بكل أدب، وكياسة. كان فظ الطبع؛ وقحا، غير مؤدب. إنه لا يمكن أن يكون قد جهل الأسباب التي من أجلها كان يعيش داود هذه الحياة؛ الشريدة، الطريدة. ولكنه تجاهلها، وعللها بأقسى الألفاظ، وهو إذ قال؛ إن داود قد تمرد على سيده شاول، إنما كان يداري رفض طلبة داود بهذا التظاهر، بالولاء للقانون والحكومة. وكان يقصد أن يبين بأن داود بتمرده، يستحق أقصى العقاب. وأخيرا؛ أكد بأنه يفضل أن يعطي خبزه للذين قد تعبوا وكدوا، واستحقوه؛ مثل جزازية، من أن يعطيه لجماعة من الأدعياء، الكسالى، الذين اختاروا بأن يعيشوا على الفاكهة، التي إذ تنضج ، فقد تتساقط في أفواههم.

ويظهر أن ضميره لم يوبخه على كلماته القاسية، ولم يخطر بباله قط، ما قد تحدثه من نتائج سيئة؛ فإنه حالما نطق بها نسيها. وفي مساء نفس اليوم، نجده في بيته يقيم وليمة، كوليمة ملك، وقد طاب قلبه بالخمر، فأصبح لا يعي شيئا ،حتى أن زوجته ،لم تخبره بشيء، صغير أو كبير، إلى ضوء الصباح.

(٢) داود في حدة روحه وثورة عاطفته :

كانت إحدى مميزات داود البارزة، في طبعه وأخلاقه، كل تلك السنوات الأليمة؛ قوته على ضبط نفسه. لقد كان ينتظر الله بصبر، وكان يركز نفسه على وعد الله، سنة بعد سنة، وترك له أن يتمم قوله الذي جعله ينتظره (مز ١١٩:٤٩) عندما طلب منه إغاثة صقلغ، أو أنذر لتركها، لم يفعل إلا ما فعله في كل المناسبات الأخرى؛ إذ أظهر كل خضوع وتسليم، واستدعى النبي أو الكاهن، للتأكد من إرادة الله، قبل أن يخطو خطوة واحدة، وفي المرتين اللتين أصبح شاول في قبضة يده، استطاع أن يضبط نفسه، ولم يشأ أن يبطش به. ولكن حصن ضبط

النفس المنيع، هذا الذى بنى بطول المران؛ انهار فجأة – كحائط البحر عند إهماله – أمام ثورة الغضب، التى أثارتها كلمات نابال الوقحة. وفى ثورة غضبه، قال لرجاله، «ليتقلد كل واحد منكم سيفه»، فتقلد كل واحد سيفه، وتقلد داود أيضا سيفه، وتبع داود نحو أربعمائة رجل، ولا شك فى أنه ناجى نفسه بهذه الكلمات، بينما كان رجاله مسرعى الخطى وسط تلك السهول المترامية الأطراف: «إن لى كل الحق فى هذا التصرف، لأنه لا يوجد أى مبرر لهذه المعاملة السخيفة من هذا الرجل، لقد قابل خيرى بالشر، وزاد على ذلك، أنه سبنى وأهاننى، هذا لا يحتمل، يجب أن احتفظ بكرامتى، لكى يعرف كل المحيطين بنا أننى ممن لا يهزأ بهم ، إننى مستعد أن أحتمل من الملك ، ما لا أحتمله من أى شخص آخر سواه».

فى تلك الساعة، كان داود على وشك أن يقترف جريمة، تكفى لتنغيص ضميره كل حياته القادمة، تكفى بأن تملأ نفسه حزنا، وقلبه وجعا. كلما خلا إلى نفسه فى الساعات الهادئة، المقدسة، وتذكر بأنه قد سفك دما بلا مبرر، وانتقم لنفسه، بدلا من أن يترك < الانتقام من نفوس أعدائه؛ وبواسطة تلك المرأة الكريمة النبيلة، أبيجايل – انقذ داود من هذا الخزى والعار والحزن.

(٣) أبيجايل؛ الوسيطة الجميلة :

كانت امرأة، «جيدة الفهم وجميلة الصورة»، وهاتان صفتان خليقتان بأن تجتمعا معا. لقد انطبعت أخلاقها على وجهها؛ على أنه ليس ضروريا أن تجتمع هاتان الصفتان بصفة مستمرة، فكم من نساء جميلات، ولكنهن خاليات خلوا تاما من جودة الفهم، كما أن الطيور التى تنعم بأفخر الريش»، تنقصها عادة، موهبة التغريد. على أن جودة الفهم، وهى سجية أدبية، لا موهبة علمية، تعكس جمالا فائقا على أبسط الوجوه.

ومما يلاحظ، أن هنالك كثيرات من أمثال أبيجايل، يتزوجن بأمثال نابال؛ كثيرا ما ارتبطت نساء خائفات الله، رقيقات الإحساس، نبيلات الأخلاق، برباط الزوجية، الذى لا ينفصم، برجال لا يشعرون نحوهم، بانسجام حقيقى، حتى ولو لم يحملن من نحوهم، شعور الكراهية المطلقة، والنفور الشديد. والأرجح جدا، أن زواج أبيجايل بنابال، لم يكن اختيارها؛ بل نتيجة تلك العادة الشرقية القديمة، التى كانت ترغم البنت على الزواج بمن يختاره لها أبوها، والتى لا تزال آثارها باقية إلى الآن، ولعلها قد أتت إلى بيت نابال طفلة، ثم ارتبطت به إلى الأبد كزوجة.

قد نجد الفتاة نفسها – لسوء حظها – فى بيت نابال لأسباب أخرى، ألزمتها على عدم اختيار الزوج بنفسها، بسبب ضغط الظروف القاسية، أو لأنها خدعت، بمداهنة ونفاق ورياء بعض الأصدقاء، أو الصديقات؛ لأمثال هؤلاء النساء التعسات، لا توجد سوى نصيحة واحدة: أن تبقى منهن، حيث هى. فإن اختلاف الذوق، أو الطبع، لا يكفى لترك زوجك، لينحرف فى تيار الشر، والفساد.

اعلمي أيتها السيدة؛ أن الله قد سمح لك بهذا النصيب المتعب، أولا؛ لأن هذه البلوى المحرقة، كانت تتطلبها أخلاقك، وثانيا؛ لكى تكون لك الفرصة، للتأثير على زوجك؛ فالزمى مركزك، حيث أنت الآن. قد تأتيك الفرصة يوما ما، كما أتت أبيجايل، وفى الوقت نفسه، لا تسمحى بتلويث نفسك الطاهرة. إنك تستطيعين أن تحتفظى بها طاهرة، عفيفة، بصفة دائمة؛ انتظرى حتى يحين وقتك، كونى كعين طاهرة (وسط مياه آسنة)، ترتفع من أعماق المحيط.

ولكن؛ إن كانت هنالك من بين قراء هذه الكلمات، شابة رقيقة الإحساس، نبيلة العواطف، تفكر فى الزواج من رجل واسع الثروة، سامى المركز، بغض النظر عن الأخلاق؛ فلتعلم أن ارتباطها برجل كهذا، لغرض كهذا، إنما هو إفساد للمثل الأعلى الذى رسمه الله، ولا ينتهى إلا إلى طريق واحد؛ هو أنها لن تستطيع أن ترفعه إلى مستواها، بل لابد أن تنزل هى إلى مستواه، وطبيعتها الرخامية، لن تغير طبيعته الطينية، بل تصير خشنة مثلها.

كان خدم نابال، يعرفون أخلاق سيدتهم، ويثقون بحسن تصرفها فى هذا الطارئ الذى حل بهم، ولذلك؛ قصوا عليها الأمر كله. أما هى؛ فإنها أمسكت بناصية الحال توا، وأرسلت بعضا من رجالها، حاملين مؤونة فى الطريق الذى لابد أن يتخذه داود، وتبعتهم هى راكبة على حمارها. بعد ذلك، قابلت رجال داود فى سترة الجبل، نازلين للانتقام. وقد دلت هذه المقابلة على ذكائها، كما دلت على طيبة قلبها. إن تواضعها المتناهي، الذى بدا فى سجودها عند قدمي داود، واعترافها بصراحة، بالإساءة التى ارتُكبت، واعترافها بالشكر الجزيل، لعدم انتقام داود لنفسه، وسفك دماء أعدائه، وتحقيرها للهدية الكريمة التى قدمتها، إذ قررت بأنها غير جديرة إلا بعبيده، وتقديرها العظيم لرغبته، فى عدم خوض غمار أية معركة، سوى «حروب الرب»، وعدم تلويث سمعته، وإدراكها عن بعد، لذلك اليوم الذى يضمن فيه مستقبله، ويبكم أعداءه، واقتراحها بأن لا يجعل هنالك ذكريات قاتمة، تزعج ضميره فى تلك الأيام القادمة. كل هذا؛ دل على مقدار جمال نفس تلك المرأة، وحكمتها، وكل هذا؛ أعاد داود إلى طبيعته النبيلة.

وهنا نرى داود – كما تعودنا أن نراه فى كل المناسبات – يظهر منتهى النبل والصراحة، لا يتردد لحظة فى الاعتراف بشكره العميق لهذه المرأة الجميله، التى شعر بأنه مدين لها بفضل جزيل، والتى رأى فى توسطها، تدخلا من قبل العناية الإلهية، لمنعه عن ارتكاب الشر. «فقال داود لأبيجايل: مبارك الرب إله إسرائيل، الذى أرسلك هذا اليوم لاستقبالي، ومبارك عقلك، ومباركة أنت، لأنك منعتنى اليوم من إتيان الدماء، وانتقام يدى لنفسى».

ألا نجد هنا إعلانا للخدمات التى يحاول الله بها إبعادنا عن طرقنا الشريرة؟ قد تكون هذه الخدمات أحيانا، تافهة، وقليلة الأهمية، وهادئة صامتة. قد تكون لمسة امرأة لمعصم يدنا، قد تذكرنا الأم بأمومتها، أو الزوجة بعهودها الأولى، أو الطفل، بنظرته التى تبعث العطف، والشفقة. وقد تكون فكرة مقدسة، تبعث فى القلب حسرة، وندامة. كم من مرة كان ممكنا جدا، تجنب بعض التصرفات التى سببت لنا آلاما دائمة، وحسرة لا تنقطع، لو أننا أصغينا إلى تحذير الله. وفوق كل تلك الأحداث والمؤثرات، التى ينادينا بها الله، يوجد تأثير الروح القدس، الذى يجاهد فينا، ضد شهوة الانتقام، ومحبة الذات، ويحاول أن يسمو بنا إلى حياة أسمى وأمجد. أيها الروح المبارك؛ تعال دائما، والتصق بنا «فى سترة الجبل»، وصدنا عن تصرفاتنا الطائشة، وجنوننا، ولا تسمح بأن نلزمك بتركنا، لكى نسلك فى طرقنا الشريرة، بل كن معنا كل الأيام، وإلى انقضاء الدهر؛ فندين لك بشكر أبدى.

وما أجمل ما تنتهى به هذه الرواية؛ فإن نابال مات بنوبة فالج، سببها سوء تصرفه، أو استياؤه من تصرف زوجته مع داود ورجاله، وفكر داود فى الزواج من تلك المرأة، التى شعر بأنه مدين لها بالفضل الجزيل؛ أما هى، فقد قبلت هذا الزواج الذى شعرت بأنها ليست أهلا له، «وقالت هو ذا امتك لغسل أرجل عبيد سيدى».

إننى أعتقد بأن كل الروايات التى تمسها يد الله تنتهى حسنا؛ إما فى هذه الحياة، أو فى الحياة الأخرى. هذه عقيدتى التى أدين بها، والتى أجد فيها تعزية جزيلة.



الفصل السابع عشر

فترة شك (١ صم ٢٧)

عندما تصير النفس مذنبة في نظر السماء
لسبب ضعفها واتكالها على معونة البشر
فلنتوقع قصاصها من الله
ولنتوقع الفشل وخور العزيمة
في كل مرة تتكل باطلا
على ذراع البشر

هويتير

تتميز المزامير، التي تشير بوضوح أو غموض، إلى هذه الحقبة من حياة داود، بطابع الحزن الثقيل، والأنات، والتنهدات.من بين هذه المزامير (مز١٠و١٣و١٧و ٢٢ ٢٥و٦٤) وربما أيضا، (مز٤٠و ٩٦). في المزامير الأولى، نجد كثيرا من العلامات المشتركة فيها كلها. فكثيرا ما تحدث فيها المرنم عن البرية، كأن نفسه حيوانا بريا، تقتفي آثاره لاصطياده، وفيها يكرر على الدوام، براءته، وتدخل القدير، وفيها يصف أحزانه، وصفا يكسر القلب؛ وعلاوة على هذه العلامات المميزة لهذه المزامير، نستطيع أن نجد فيها أيضا لهجة اليأس:

يارب لماذا تقف بعيدا
لماذا تختفي في أزمنة الضيق — مز ١:١٠

إلى متى يارب تنساني كل النسيان
إلى متى تحجب وجهك عني
مز ١:١٣

إلهي إلهي لماذا تركتني
بعيدا عن خلاصي عن كلام زفيري
مز ١:٢٢

خلصني يا الله

لأن الميـــــاه قــــد دخلت إلى نـفـــسى
وغـــرقت فى حـــمـأة عـــميـــقـة وليس مـقــر
دخلـت إلى أعـــمـاق الميـاه والسـيل غـــمـــرنى

مز ٦٩:١و٢

هذه الأنات، كلها حزن، ونوح، وبكاء وعويل كثير، كما تنم عن روح اليأس والقنوط، وكأن المرنم فى آلامه، قد وصل إلى آخر حدود طاقة الاحتمال، ويبدو أنه كان يائسا كل اليأس من تغيير شاول نحوه، طالما كان كوش ودواغ وأبنير وغيرهم، (الذين برهنوا على أنهم ألد أعدائه)، ملازمين للملك، وينفثون سمومهم فى صدره؛ ثم وجد أنه أصبح من الصعب جدا، التخلص من متابعة رجال الملك له، الذين صاروا ملمين بمخابئه، ودخوله وخروجه، بسبب طول المران. وفوق ذلك؛ فقد كان ارتباكه يتزايد يوما فيوما، بخصوص إعالة العدد العظيم من تابعيه؛ فقد كان عليه أن يعول كل يوم، ستمائة رجل، خلاف النساء والأولاد، ثم إن وجود هؤلاء النساء والأولاد معه، جعله عسيرا عليه، أن يكون دائم الهجرة، بسبب عدم قدرتهم على تحمل مشقات الانتقال الكثيرة. لقد كان له حينئذ زوجتان؛ ومما قيل عن غزو صقلغ – الذى تم بعد ذلك بقليل – نستنتج أن نسبة كبيرة من تلك الجماعة التى رافقته، كانت تتكون من أولئك الذين كانت لهم زوجات وبنون وبنات وممتلكات .(١صم ٣٠:٣و٦ و٩ و٢٢).

أما فى الأيام الأخرى، التى كان فيها داود قوى الإيمان، فلم تكن هذه الاعتبارات بكافية لتزعزع نفسه، فلو أنها هاجمته فى عنفوان قوته، لتثبتت نفسه فى الله، وتقوى بشدة قوته، بكل صبر، وأناة وفرح، ولكنه أخيرا؛ ضعف إيمانه، وانحلت ربط شجاعته، حتى قال فى قلبه: «إنى سأهلك يوما بيد شاول، فلا شئ خير لى، من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين، فييأس شاول منى، فلا يفتش عنى بعد فى جميع تخوم إسرائيل، فأنجو من يده».

(١) لنتأمل فى هذا التفكير المفاجئ :

(١) إنه كان بإيعاز التدبير العالى «وقال داود فى قلبه». لقد لاحظنا أكثر من مرة، أنه كان من عاداته فى المناسبات الأخرى، استدعاء الكاهن بالأفود، أو الاستعلام من الله بواسطة جاد النبى؛ أما فى هذا التفكير، فإنه لم يرجع إلى هذه الطريقة أو تلك. لقد تصرف فى موضوع نابال تحت التأثير المفاجئ لعاطفته، وهنا يتصرف تحت تأثير الخوف والانزعاج. لقد نظر إلى الظروف، ولعله أصغى إلى مشورة الرجال الذين التفوا حوله، معجبين بصفات الجرأة،

والشجاعة، والكرم، التى جعلته بطل زمانه، ولكنهم لم يبالوا بمصادر حياته الأعمق فى الله، وإيمانه، وصلاته.

أيها العزيز: لا تتخذ أية خطوة وأنت تحت تأثير الخوف والانزعاج، ولا تسمح لأى إنسان بإملاء إرادته عليك، هدئ نفسك واصمت، إلزم الخلوة فى مخدعك، حتى يعود نبض القلب إلى حالته الطبيعية، وينزع الخوف. عندما تكون متحفزا جدا للعمل، فاعلم بأنك فى ذلك الوقت، بنوع خاص – أكثر عرضة لأشنع الأخطاء، لا تقل فى قلبك: ماذا أريد؟ أو، ماذا لا أريد أن أفعله؟ بل انتظر الله، حتى يعلن لك طريقه؛ وطالما كان هذا الطريق مجهولا، فهذا يوضح، بأنه لا داعى للتقدم للعمل، وأن الله يعتبر نفسه مسئولا عن كل النتائج التى تترتب على إبقائك، حيث أنت.

(٢) وكان مهينا جدا لله : ألم يحلف له بأن يجعله ملكا؟ ويرمى أعداءه، كما من وسط كفة المقلاع، ويصنع له بيتا أمينا؟ (١ صم ٢٥:٢٨ و٢٩)، ألم تؤيد هذه المواعيد بواسطة صموئيل، ويوناثان، وأبيجايل، بل شاول نفسه؟ ألم يعلن له عند مسحه بالزيت الذهبى، أنه قد صار مسيح الله؟ لقد كان مستحيلا أن يكذب الله، أو ينسى عهده. لقد ارتبط معه الله القدير، بأوثق العهود، وكان مستعدا أن يمنحه فى محنته، تعزيات جزيلة، لو أنه فقط، بقى داخل جدران ذلك الحصن المنيع، الذى شيدته هذه المواعيد، ودعمته تلك التأكيدات. ولقد كان من الأيسر، أن تزول السماء والأرض، عن أن يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من مواعيد الله.

إذن، فلم يكن خليقا بداود مطلقا أن يقول: «لقد بدأت أخشى أن يكون الله قد تعهد بأكثر مما يستطيع إتمامه، صحيح أنه قد حفظنى إلى الآن، ولكنى أشك فى أنه يستطيع أن يجعلنى أتغلب على الصعوبات التى تتزايد يوما بعد يوم. إن شاول لابد أن يتمم مقاصده ضدى، إن لم يكن عاجلا، فآجلا. فمن الخطأ أن أقف فى وجهه؛ لقد انتظرت حتى عييت، وهذا هو الوقت لاستخدام حكمتى، وذكائى، وتخليص نفسى – طالما كان ذلك فى إمكانى – من الشبكة التى نصبت فى طريقى.

لا شك فى أن هذا التفكير، قد بعث السرور الجزيل فى نفوس الكثيرين من أتباعه، ولكن لا شك أيضا فى أن كل الأتقياء، قد أحسوا بأن هذا الاعتراف، الذى ينم عن روح اليأس، يتعارض مع نصائحه التى طالما رددها، لانتظار الله».

كل منتظريك لا يخزوا

ليخز الغادرون بلا سبب

مز ٢٥:٣

من الأيسر جدا، أن نرشد الآخرين، إلى الطريق السليم المستقيم، فى أوقات راحتنا وهدوئنا، عن أن نكشف لأنفسنا هذا الطريق، عندما تعصف علينا العواصف.

كان الدكتور تاولر – واعظ ستراسبورج العظيم – قبل توبته، لا يفوقه أى شخص فى التحدث عن فضائل التواضع، والوداعة، وإنكار الذات؛ ولكن عندما التقى به سائح بسيط، متواضع، وعاب عليه محبته لنفسه، أكثر من الله، استاء أشد الاستياء، وثار فى داخله قلبه المتعجرف. يجب أن يدرك كل منا، أن هناك فرقا بين الكلام والاختبار، بين التوهم أننا نملك، والامتلاك فعلا، بين إرشادنا لغيرنا، وبين تصرفنا عندما تداهمنا الظلمة.

(٣) وكان فى غاية الخطر: كانت فلسطين، مكتظة بهياكل الأصنام، وكهنة الأوثان، (٢ صم٥: ٢١)، لم تكن ضمن ميراث الرب، الأرض المقدسة، التى كان يعتبرها أتقياء الإسرائيليين فى ذلك الوقت، مسكن العلى، والتى كان يعتبر كل من يبعد عنها، كأنه قد أبعد إلى البرية، والقفر، والأرض المهجورة من الله. أية شركة يستطيع أن ينتظرها داود مع روح الله، الذى اختار إسرائيل كشعبه الخاص، ويعقوب نصيب ميراثه؟ كيف يستطيع أن يرنم ترنيمة الرب، فى أرض غريبة؟ أى نصيب يستطيع أن يجده فى الذبائح التى تصاعد منها الدخان، على مواقع نوب، وقرية يعاريم؟ وفوق ذلك، فإن اختلاطه الدائم بسكان الأرض أثناء عبادتهم الوثنية، وأرجاسهم، لا يمكن إلا أن يحدث تأثيرا سيئا جدا فى نفوس وعقول غير الثابتين فى جماعته، ولابد أن تلك الأرجاس، قد نفثت سمومها فى قلوب الكثيرين، وظهرت نتائجها الخطرة بعد ذلك ببضع سنوات، وما لم يؤثر قط فى داود، الذى كان يعتقد بأن الوثن لا شئ فى العالم، لابد أنه قد أثر تأثيرا ضارا لأبعد الحدود، فى الضمائر الضعيفة بجماعته، التى قد تلوثت بما رأته وسمعته.

(٤) وكان دخولا فى طريق يتطلب الغش والخداع على الدوام: لقد رحبت به جت كل الترحيب، وعندما طلب الاحتماء بالملك أخيش من قبل، لم يكن معه سوى جماعة قليلة جدا؛ أما الآن، فقد صار قائد جماعة عظيمة من المحاربين، الذين يستطيعون أن يغيروا مجرى الحرب الطويلة،

التى طالما نشبت بين إسرائيل والفلسطينيين «وأقام داود عند أخيش فى جت هو ورجاله كل واحد وبيته».

وعلى أى حال، فقد كان فى هذا التقرب من القصر والبلاط الملكى، أشد المضايقة للعبرانيين. إذ كانت كل حركاتهم تحت المراقبة بصفة مستمرة ، وكان من المتعذر أن يحتفظوا بحريتهم واستقلالهم، لذلك طلب داود أخيرا أن تخصص له مدينة صغيرة، ولحسن حظه، سمح له بالنزول فى صقلغ، وهى مدينة فى الجنوب، كانت من نصيب يهوذا أصلا، ثم نقلت إلى نصيب شمعون، وأخيرا؛ امتلكها الفلسطينيون، ولكنهم لم يسكنوها (يش ١٥: ٣١، ١٩: ٥، أى ٤: ٣٠). وإذ وجد هؤلاء الرجال المطاردون، أنهم تحصنوا فى هذه المدينة الصغيرة، شعروا بشئ من الراحة والأمان. لقد ظلوا مدة طويلة بلا وطن يستقرون فيه، وكانت حياتهم مليئة بالخوف والفزع، دائمى الهرب، حاملين السلاح دواما على جوانبهم، أو ممسكين إياه بأياديهم، وحواسهم مرهفة، دقيقة، تتنبه حتى لحفيف أوراق الشجر، أو أخف حركة فى المخبأ. أما الآن؛ فقد استراحوا من كل هذه المتاعب، واستمروا فى راحتهم وطمأنينتهم، نحو ستة عشر شهرا، وجلس النساء والرجال المتقدمون فى السن فى الشوارع، ولم يعد الأطفال يمنعون عن أصوات الفرح فى مسامراتهم، وألعابهم، كما كانوا من قبل، خشية أن يلفتوا نظر الجواسيس فى جيش الملك. «فأخبر شاول أن داود قد هرب إلى جت، فلم يعد أيضا يفتش عليه».

على أن داود كان لا يزال متعلقا بشعبه، وكان عقله دائم التفكير فى تدبير أية خديعة للخلاص، إنه لم يكن فى قلبه أية محبة حقيقة نحو أخيش، ولم يكن متحمسا لاستدامة حكمه، لأنه لم يكن قد هجر الشعب المختار ولو كان قد هرب أمام شاول، كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه لا يزال «عبرانيا من العبرانيين».

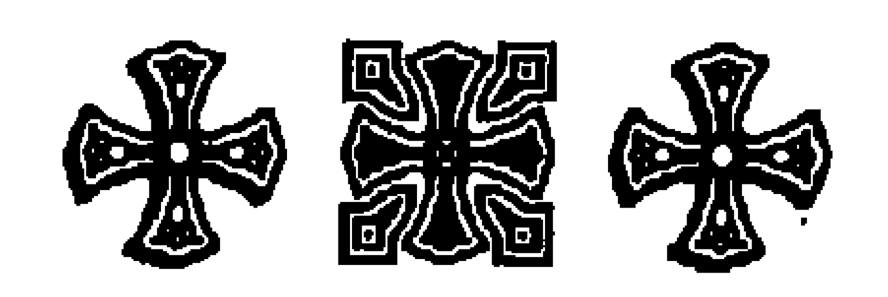
وكان لابد له من أن يعول نفسه وأتباعه، وفى تلك الأيام؛ أيام الحرب الوحشية مع الشعوب المتاخمة، لم تكن هنالك طريقة (فى نظر الفلسطينيين على الأقل)، سوى الإغارة على الأرض التى هجرها، وهذا بطبيعة الحال، لا يمكن أن يخطر له على بال، ولذلك؛ حول وجهه نحو القبائل الجنوبية التى كانت متحالفة مع الفلسطينين، ولكنها كانت من ألد الأعداء لشعبه؛ بين هذه، كانت توجد قبائل الجشوريين، والجرزيين، والعمالقة؛ وكلها قبائل بدوية، تعيش على السلب والنهب. ولكى يضمن داود عدم وصول القساة، وأتباع سياسة سفك الدماء، وعدم استبقاء أى امرأة أو رجل حيا. وعندما طلب منه أخيش تقريرا عن حملته، أجاب بمراوغة؛ أنه

أغار على جنوب يهوذا والقبائل التى كانت تحت حكم إسرائيل المباشر. وقد اعتقد الفلسطينيون، أن عدم أسره أحدا من شعب إسرائيل، (والأسرى عادة أثمن من سائر الغنيمة)، دليل على شدة بغضه لأهل وطنه؛ والواقع، أنه فضل التنازل عن الأرباح التى تعود عليه من بيع الأسرى، عن أن يراهم فى مرارة المر فى أسرهم، «فصدق أخيش داود قائلا؛ قد صار مكروها لدى شعبه إسرائيل، فيكون لى عبدا إلى الأبد».

كان كل تصرف داود فى ذلك الوقت، لا يليق مطلقا بدعوته العليا كمسيح الله، ثم إنه كان أيضا، وقتا مجدبا فى اختباراته الدينية. ونحن لا نستطيع أن نعثر على أى مزمور، يشير إلى هذه الحقبة؛ ففيها صمت مرنم إسرائيل الحلو، ولعله قد حصل على أوتار موسيقية جديدة، أو أجاد العزف على بعض آلات موسيقية جديدة أثناء إقامته فى جت، التى طالما رددت ذكرياتها بهذه الكلمة «الجتى» فى المزامير التى أنشدت فيما بعد، ولكن من ذا الذى يبدل الأغنية بنعمة، والمزمور بقيثارة، إنها لمبادلة بخسة. لقد كان فى جو تلك السهول المنخفضة ما أخرس ذلك الصوت الجميل الذى طالما سبح الله وسط جبال اليهودية ومغارات عين جدى.

ألا تنطبق هذه العلامات - الدالة على الانتكاس والانحطاط - كل الانطباق على ما نشاهده فى أنفسنا وفى الآخرين؟ قد يكون طريق الإيمان شاقا للجسد، ولكنه مبهج ومنعش للروح. قد يتطلب الأمر أن نتابع السير والجهاد بمشقة جمة وسط الجبال، ولكننا لابد واجدون ترنيمة جديدة فى أفواهنا، ترنيمة الحمد والشكر؛ أما حين نهبط إلى السهول المنخفضة، إلى مزالق السياسة العالمية، والتدابير الشخصية، التى تبدو مناسبة ومقبولة فى نظرنا، تصاب النفس بلوثة ممقوتة، وتصمت أغنيات القلب.

ومن تلك اللحظة، نحن نترك لتدعيم موقفنا بتدابيرنا الشخصية وآرائنا الشخصية؛ قد نطلب المعونة من الله، ولكننا لا نتكل عليه الاتكال الكلى، لتدبير أمورنا؛ قد نطارد حتى نصل إلى مواقف حرجة، نخلص منها، بالمكر، والغش، والخداع، والمراوغة، التى نحتقرها فى قرارة أنفسنا. سوف ندرك أننا قد اشترينا الخلاص من الظروف القاسية، بتضحية جسيمة، وبدلنا ابتسامة الله، بابتسامة أخيش، التى سرعان ما تتحول عنا، وحصون العناية الإلهية، بأسوار صقلغ، التى سوف نبكى سريعا على أطلالها، بدموع سخينة.



الفصل الثامن عشر

رحمة الله التى اقتادت إلى التوبة (١ صم

اخـــضع نـفــسك بصـــلاة التـــوبــة والانســـحـــاق
وأذل قــلــبــك تحـــت يـــد الـــقـــــــــــــديـــر
الـــذى إذ يرى انــــســـحـــــاق قـلبك وتجـــــدده
يـرشـــــــــــــدك وسـط الإثـــم والخـطـيــــــــــة
ويـأتى بـك إلـى الـتـــــوبة الجـــــمـــــــيـلـة
والشـــــعـــــور بـــوجــــودك فـى حــــضــــرته

كلف

كانت رحمة الله الجزيل المحبة ترفرف فوق حياة داود فى فترة انحرافه وارتداده التى كانت موضوع تأملنا فى الفصل السابق. عندما يضعف أو يتلاشى إيماننا؛ عندما نكون غير أمناء، فهو يبقى أمينا، لن يقدر أن ينكر نفسه، وعندما يبتعد عنه عبيده ويزرعون الشوك والحسك لأنفسهم، ويطعنون أنفسهم بأوجاع كثيرة، فإنه يحيط بهم، يرثى لهم، ويشفق عليهم، ويظهر لهم أعمق مظاهر رحمته وشفقته، لكى يعيدهم ثانية إلى حظيرته.

وهذا ما يتجلى لنا بأجلى وضوح فى هذه الفترة من حياة داود؛ لقد سلط الرب عليه شعاعة قوية من رحمته وصلاحه، لكى تنتشله من وهدته، ولكى تُنقَذ من الحفرة حياته، وتنجو من السيف نفسُه.

والآن، لنتتبع الأدوار المختلفة لهذه العملية المباركة، التى رد فيها داود بمحبته الجزيلة، ولنثق ونحن نحاول ذلك، أن الله لا يزال يتمم نفس هذه الخطوات، لكى ينتشل من الحفرة حياتنا، لكى نستنير بنور الحياة، ثم إنه لابد أن تتحقق معنا أيضا، كلمات دواود التى نطق بها فيما بعد، إذ تطلع إلى تلك الفترة من حياته، وهو واقف فوق مجد قوته التى رفعه إليها صلاح الله فيما بعد، «لطفك يعظمنى» (٢ صم ٢٢:٣٦؛ مز١٨:٣٥).

ولقد تجلت رحمة الله الهادية فى:

(١) دفع العظماء والأقوياء للدفاع عن قضية داود :

يقول كاتب سفر أخبار الأيام الأولى (ص١:١٢) « وهؤلاء هم الذين جاءوا إلى داود إلى صقلغ، وهو بعد محجوز عن وجه شاول بن قيس، وهم من الأبطال مساعدون فى الحرب»، ويبدأ بعد ذلك بذكر أسمائهم. لقد أتى البعض من سبط شاول نفسه: ماهرون فى الفنون الحربية، يستطيعون - باليد اليسار كما باليمين - أن يرموا بالمقلاع أو بالقوس، والآخرون أتوا من شرق الأردن، عبروه عائمين وقت الفيضان، رجال بأس متمرنون على الحرب، وجوههم تشبه الأسود، سريعو الحركة كالأيائل فوق الجبال، وأتى غيرهم من بنيامين ويهوذا، مؤكدين لداود أنه لا مبرر بأن يشك فى ولائهم له؛ يا لها من كلمات نبيلة، تلك التى نطق بها قائدهم عماساى، والتى ربما كانت معبرة عن شعور باقى الأبطال الذين التفوا حول راية داود فى ذلك الوقت: «لك نحن يا داود، ومعك يا ابن يسى، سلام سلام لك، وسلام لمساعديك، لأن إلهك معينك» (١ أى ١٢:١٨).

واضح أن روح التذمر كان قد بدأ يتفشى فى كل إسرائيل، فإن الشعب إذ أعيا من ظلم شاول وسوء إداراته، بدأ يدرك أن رجاء إسرائيل الوحيد معقود فى ابن يسى؛ لذلك خرجوا إليه خارج المحلة، حاملين عاره، مرتضين أن يخسروا كل ما امتلكوا، واثقين أنهم سيستردون كل شئ بل مئة ضعف، عندما يأتى إلى خاصته؛ هكذا صاروا يتوافدون عليه يوما فيوما «لأنه وقتئذ أتى أناس إلى داود يوما فيوما لمساعدته حتى صاروا جيشا عظيما كجيش الله» (١ أى ١٢:٢٢).

وهكذا فى كل يوم، نرى الأمناء والمخلصين يلتفون - فى صمت وفى الخفاء - حول ربنا المبارك الذى ليست مملكته أرضية بل سماوية، الذى ذهب بعيدا ليستلم ملكا ولكنه سيعود يقينا، وعندما يستعلن فى مجده فحينئذ يستعلنون معه هم أيضا؛ إذن، فمن الذى لا يرتضى بأن يترك مملكة رئيس هذا العالم الزائلة، التى سوف يقضى عليها القضاء المبرم فى الواقعة الأخيرة العظمى، لكى ينضم تحت رعوية مملكة ابن داود الباقية ما بقيت الدهور؟.

(٢) انتشال عبده من الموقف المزرى الذي هوى إليه :

وبغتة، اعتزم الفلسطينيون اتخاذ سياسة جريئة؛ لقد لاحظوا الانحلال الذى بدأ فى مملكة شاول، كما لاحظوا بارتياح خفي، العدد العظيم من الأبطال الذين بدأوا الانضمام

تحت لواء داود، فتوهموا بأنهم لا ينضمون إليهم؛ ولعدم اطمئنانهم بسبب الأعداء المتاخمين، الذين ضايقوهم زمنا طويلا، اعتزموا السير في طريق السهل البحرى، وهو شريط من الأرض المنبسطة، متاخم للبحر الأبيض المتوسط، وأن يضربوا ضربة شديدة في قلب الأرض، أي في سهل أسدرايلون الخصيب، الذي قضى عليه أن يشهد أعظم المواقع الحربية في العالم، وتخضبت أرضه بدماء أعاظم القواد، مثل سيسرا وشاول ويواش، وتلاحمت في ساحته أقوى الجيوش: الفلسطينيون مع العبرانيين، المصريون مع الأشوريين، الرومان مع المكابيين، العرب مع الأنجلو سكسونيين. «وجمع الفلسطينيون جميع جيوشهم إلى أفيق، وكان الإسرائيليون نازلين على العين التى في يزرعيل» (١ صم ٢٩:١).

وعند التفكير في هذه الحملة، أكد الملك لداود - بنية خالصة - أنه لابد من مرافقته إياه؛ ولعل هذه قيلت علامة على ثقة الملك بداود، بنوع خاص، ولو لم يكن أخيش قد وثق كل الثقة في نزاهة داود، لكان من الحماقة أن يدعوه لمرافقته في حملة كهذه؛ إنه لم ير أى لوم فيه منذ الساعة الأولى التى التجأ إليه طالبا حمايته، بل كان ينظر إليه كملاك الله، لذلك، لم يتردد عن دعوته للسير بجانبه، بل ليكون قائد جيشه. «فقال أخيش لداود، لذلك أجعلك حارسا لرأسى كل الأيام» (١ صم ٢:٢٨). لقد وجد الملك راحة عظمى لنفسه الكريمة، إذ تحول عن رؤسائه العتاة، وقواده المتغطرسين، وائتمن هذه الشخصية النبيلة، طيبة القلب. على أن الموقف كان دقيقا وحرجا جدا مع داود، فإنه لم يكن أمامه إلا أن يرافق سيده في الحرب، ولكن؛ بأى قلب يستطيع أن يفعل هذا؟ لقد كان يبدو بأنه يتحتم عليه محاربة شاول، الذى هرب من وجهه منذ سنوات طويلة، ويوناثان صديقه الحميم، والشعب المختار، الذى كان يرجو أن يملك عليه يوما من الأيام، ولكنه لم يستطع إلا أن يجيبه بمراوغة وإبهام، مع شئ من الرزانة المتكلفة «لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك». ومع أنه جاز معه تلك المسافة الطويلة، التى تقدر بنحو خمسين أو ستين ميلا، فقد كان يشعر في كل خطوة بانقباض صدره، وخفقان قلبه؛ إنه لم يكن يرجو معونة من أى إنسان، ولهذا؛ فلعل قلبه كان منشغلا بصلاة حارة إلى الله، لكى ينقذه من تلك الشباك، التى نصبتها لقدميه خطاياه؛ وفي الغموض الذى يكتنف الإجابة التى قدمها لأخيش، نرى آثارا لرجائه، بأن الله رغم كل ذلك، سوف ينقذه من هذا الموقف المخيف الحرج.

إن كنت بسبب أخطائك وخطاياك، قد أوجدت نفسك في مركز حرج كهذا، فلا تيأس،

بل استمر فى رجائك فى الله؛ اعترف بخطيتك، واتركها، تواضع أمامه،فيقوم ويخلصك. ربما تكون قد أتلفت نفسك، ولكن؛ تأكد بأن معونتك فيه وحده ، «إن يكن قد بددك (بسبب عصيانك وارتدادك) إلى أقصاء السموات، فمن هناك يجمعك الرب إلهك، ومن هناك يأخذك، ويأتى بك الرب إلى الأرض التى امتلكها آباؤك، فتمتلكها، ويحسن إليك، ويكثرك أكثر من آبائك» (تث ٣٠:٤ و٥).

وبغتة، وعلى غير انتظار، فتح باب الرجاء فى هذا الوادى، وادى عخور، فإنه عندما استعرض أخيش فى أفيق، «وعبر أقطاب الفلسطينيين مئات وألوفا عبر داود ورجاله فى الساقه مع أخيش» ، وهذا حرك عاطفة الحسد، وبعث الشك فى أقطاب الفلسطينيين المتعجرفين، فأتوا إلى أخيش بكلمات قارسة، وتهديدات خطرة «ما هؤلاء العبرانيين؟ ..أرجع الرجل، فيرجع إلى موضعه الذى عينت له، ولا ينزل معنا إلى الحرب». وعبثا حاول أخيش أن يدافع عن صديقه العزيز، داود، لأن الفلسطينيين لم يقبلوا منه كلمة واحدة فى هذا الصدد، بل أشاروا إلى مواقفه الماضية، كبطل صنديد، وعدو عنيد فى الحرب، كما أبدوا تخوفهم من أن هذه قد تكون فرصة سانحة، يصطلح فيها مع شاول على حساب الفلسطينيين، بأن يخوفهم فى الحرب. وأخيرا؛ لم يجد الملك بدا من أن يذعن لهم، وقد كان شاقا جدا على نفسه، أن يخبر داود بالقرار الذى اضطر إليه، ولكنه لم يدرك مطلقا، كيف قوبل هذا القرار من داود، بارتياح عظيم، وفرح جزيل. وإننا لنتخيل داود، يناجى نفسه – لدى مغادرته قصر الملك بهذه الكلمات:

انفلتت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين

الفخ انكسر ونحن انفلتنا

(مز ١٢٤:٧)

من ثم؛ تظاهر داود بأنه قد أوذى فى براءته، «ماذا عملت، وماذا وجدت فى عبدك، من يوم صرت أمامك إلى اليوم، حتى لا آتى وأحارب أعداء سيدى الملك؟»، ولكن قلبه لم يكن وراء لسانه؛ وأخيرا، ألح الملك فى الرجاء، لكى يرجع داود فى الصباح الباكر. وحالما بزغ نور الفجر، أصدر أمره لرجاله بالرحيل، وفى تلك اللحظة، نظر – بلمحة خاطفة – إلى محلة إسرائيل، حيث كان قلب الأسد (يوناثان)، صديقه الحميم، يستعد للحرب بلا ريب. وكم كان يتمنى، من كل قلبه، أن يكون بجوار خله الوفى، فى صد غارة ، من أعظم الغارات التى شهدوها.

(٣) تصرف العناية الإلهية معه بصدد حرق صقلغ :

لقد كانت رحمة الله العظيمة، هى التى دفعت أقطاب الفلسطينيين، للاحتجاج على استمرار داود فى محلتهم. لقد كانوا يحسبون بأنهم إنما يتبعون سياسة عادية، تمليها عليهم حكمتهم، وبعد نظرهم، ولم يدركوا بأنهم آلة فى يد الله لإنقاذ داود من فخه. لقد جاء احتجاجهم فى اللحظة المناسبة، ولو أنهم تأخروا بضع ساعات، لكان داود قد اشترك فى الحرب، أو لم يكن قد عاد فى الوقت المناسب، للحاق بالعمالقة، الذين كانوا قد غزوا صقلغ.

وبينما كان داود يغادر ساحة الحرب، قدم إليه الفلسطينيون، جماعة من سبط منسى، (يظهر أنهم كانوا قد لجأوا هم أيضا إلى أخيش)، لئلا ينقلبوا هم أيضا إلى خونة فى الحرب، وهكذا، غادر داود محلة الفلسطينيين. وقد ازداد عدد تابعيه زيادة عظيمة؛ وهنا أيضا، نجد برهانا على عناية الله، وحسن تدبيره لأولاده، لأنه لم يكن محتاجا إلى تقوية فى أى من الأوقات، فى كل أيام حياته أكثر من هذا الوقت. إن الله يرى بعينيه الثاقبتين التجربة القادمة قبل أن تحدث، ويهبنا القوة الكافية التى بها نستطيع أن نثبت أمام شدتها وضغطها. إنه يأخذنا إلى البيت الجميل، لنتسلح بالأسلحة الكافية، قبل نزولنا إلى الوادى للقتال مع أبوليون (راجع كتاب سياحة المسيحى).

وكان من تدبير الله العجيب، ورحمته العظمى، أن لا يترك داود، أى رجل للدفاع عن صقلغ مدة غيابه، على غير عادته. ليس يسيرا أن نعلل سبب عدم اتخاذ الحيطة، لضمان سلامة المدينة فى تلك الأيام الخطرة، ولكن الأمر ظاهر، أنه لم يترك جنديا واحدا لحماية الأطفال والنساء؛ على أن هذا كان لخيرهم، لأنه عندما سطا العمالقة على المدينة بغتة، لم يكن فيها أحد للوقوف فى وجوههم، ومقاومتهم، فيحسبون له حسابا. لم يكن فيها أحد لصدهم، ولم يخشوا من متابعة أحد لهم، أو الانتقام منهم، ثم إنهم كانوا متيقنين، أن داود ورجاله، لا يمكن أن يعودوا من الحرب قبل مضى بضعة أسابيع، أو شهور، ولذلك؛ لم يروا هنالك داعيا لاتخاذ الاحتياطات العادية، بل اعتقدوا أنهم يستطيعون أن ينتشروا فى كل الأرض، ويشربون، ويولمون الولائم.

فى تلك الساعة الرهيبة، ساعة الحزن والفزع، لم يكن ممكنا أن ينقذ حياة داود، سوى تدخل الله العجيب. عند وصول الجنود المدينة، منهوكى القوى، بعد مسيرة ثلاثة أيام، وجدوها أطلالا خربة، وعوضا عن ترحيب الزوجات والبنين، لم يسمعوا إلا أصوات البوم،

تنعق على خرائب المدينة؛ «فرفع داود، والشعب الذين معه، أصواتهم، وبكوا، حتى لم تبق قوة للبكاء»، على أنه كان هنالك عنصر آخر للحزن فى نفس داود، فإن أولئك الذين صرخوا قبل الآن بوقت وجيز، قائلين: «نحن معك يا ابن يسى، سلام سلام لك، لأن الله معينك» (٢ أى ١٢: ١٨) فكروا الآن فى رجمه. لقد تبدل الولاء، والإخلاص، والمحبة، التى تمتع بها على الدوام من تابعيه، إلى حنظل ومرارة، وتبدل لبن العواطف البشرية، والمحبة، إلى خل، وعلقم، فى تلك الثورة المروعة.

على أن هذه كانت، هى اللحظة التى رجع فيها إلى الله؛ فى تلك الساعة الرهيبة، التى فيها اكتوت قدماه من جمرات النار التى كان يطأها، والتى فيها اشتدت مخاوفه، وقلقه، من أجل زوجتيه، والتى كان يتجرع فيها، مرارة الخداع، والغش، والخيانة، التى ارتكبها، والتى قطعت علاقته بالله، حسب اعقاده، والتى طنت فى أذنيه، كلمات التهديد برجمه - فى تلك الساعة؛ قفز قلبه فجأة، ودفعه للعودة إلى موضع راحته السابق، فى الأحضان الإلهية؛ «فتضايق داود جدا، لأن الشعب قالوا برجمه، لأن أنفس جميع الشعب، كانت مرة، كل واحد على بنيه وبناته، وأما داود ، فتشدد بالرب إلهه».

من تلك الساعة استعاد داود نفسيته الأولى، القوية، البهجة النبيلة؛ ولأول مرة - بعد عدة شهور، أبطل فيها تلك العادة الجميلة - يأمر أبياثار بتقديم الأفود إليه، ليسأل الله؛ وبقوة عجيبة، يجدُّ فى أثر الغزاة، فيلحق بهم، بعد ذلك؛ نراه يكبح جماح رجاله حتى المساء، ثم يأذن لهم بالانتقام من أعدائهم، وتخليص بنيهم وزوجاتهم؛ فانقضوا عليهم، كما ينقض النسر على فريسته، حتى لم ينج سوى أربعمائة رجل، كانوا يركبون الجمال، وهربوا بسرعة خاطفة، وعندما أظهرتابعوه روح الجشع والطمع، واقترحوا أن لا يعطى شيئا من الغنيمة لزملائهم، الذين تخلفوا فى وادى البسور، بسبب إعيائهم، وقف داود أمامهم جميعا، بجرأة وشجاعة، وأصر على رفض طلبهم هذا، قائلا: «لا تفعلوا هكذا ياإخوتى.. ومن يسمع لكم فى هذا الأمر، لأنه كنصيب النازل إلى الحرب، نصيب الذى يقيم عند الأمتعة، فإنهم يقتسمون بالسوية»، وهكذا نرى؛ أن من يقوى على الوقوف أمام الله، يقوى كذلك، على الوقوف أمام الإنسان.

وعندما جاءه رسول - بعد ذلك بقليل - يلهث راكضا، لينقل إليه أخبار القتال العنيف فى جبل جلبوع (ص ٣١، ٢ صم١)، تجلد، ورثا شاول وأبناءه بتلك المرثاة، التى قد تكون

أبلغ مرثاة فى الوجود، ثم جازى ذلك الرسول العماليقى، بما يستحقه، رغم أن تلك الأخبار كان فيها إتمام آماله التى أبطئت.

كما كان داود قويا، فقد كان حلوا ومحبوبا، ومحتشما، ومؤدبا، وشجاعا؛ لأنه عندما عاد إلى صقلغ، كان أول ما عمله، أنه أرسل من الغنيمة إلتى ربحها من العمالقة، إلى شيوخ كل المدن الجنوبية المتاخمة، التى كان متعودا أن يلجأ إليها من وقت لآخر، اعترافا منه، بأنه مدين لهم، ووفاء لذلك الدين ،على قدر استطاعته.

وهكذا؛ أشرقت شمس محبة الله من جديد على نفسه، وأضاءتها. لقد أفلت من قلعة الشك، وشيطان اليأس، ووصل مرة أخرى إلى طريق الطاعة، والأمان. (راجع كتاب ساحة المسيحى). لقد أصعده الله من جب الهلاك، من طين الحمأة، وأقام على صخرة رجليه، وثبت خطواتهووضع فى فمه ترنيمة جديدة، (مز ٤٠:٢و ٣). فليصغ جميع المرتدين، وليتشجعوا، فإن هذه الأمور، سبق أن كتبت لتعليمنا، حتى بالصبر، والتعزية، بما فى الكتب، يكون لنا رجاء. (رو ١٥:٤).



الفصل التاسع عشر

يتوج ثلاث مرات (٢ صم١-٤)

لأن الحياة بكل ما فيها من أفراح وأتراح
هي نصيبنا من جزاء المحبة
فلنمسك من الآن بكل حرص
بهذا الجزاء رغم حسد العالم

ر. برانفنج

انقضى يومان على نصرة داود على عماليق، وذبحهم، وعودته إلى صقلغ، التى أصبحت أطلالا دارسة. ولعل داود كان ينتظر طول هذين اليومين، علامة تحدد له طريقه فى المستقبل. ماذا يفعل بعد ذلك؟ هل يبدأ ببناء المدينة الخربة؟ أم هنالك خطوة أخرى لحياته فى برنامج العناية الإلهية؟ لقد كانت نفسه منتظرة. لم ينس بأنه عند ترك محلة أخيش، كانت الحرب توشك أن تدور رحاها بين الفلسطينيين وبلاده؛ هل تمت تلك الحرب؟ وماذا كانت نتيجتها؟ ماذا جد من أحداث فى ذلك اليوم الخطير؟ ماذا كانت أخبار شاول، ويوناثان، ورفاقه؟ يقينا أنه لم تكن لتمضى أيام كثيرة، حتى تأتيه الأخبار على جناح السرعة، للإجابة على ما كان يتردد فى ذهنه من أسئلة غامضة.

وفى اليوم الثالث، قدم إلى المحلة، شاب يلهث من سرعة الركض؛ ثيابه ممزقة، والتراب على رأسه، فشق الصفوف، وتقدم إلى داود مباشرة، وخر إلى الأرض، وسجد بين قدميه؛ وفى برهة قص كل ما لديه من أخبار، وكانت كل كلمة تمزق أحشاء داود، لأنه علم من هذه الأخبار، أن إسرائيل هربوا أمام العدو، وأن عددا عظيما منهم قتلوا فى ساحة الحرب، وأن شاول ويوناثان، قتلا أيضا. فى تلك اللحظة، أدرك داود، أن تلك الغمامة التى تلبد بها جوه طويلا، قد انقشعت، وأن آمال السنوات الطويلة أوشكت أن تتحقق، ولكنه لم يفكر فى نفسه، ولا فى التغيير العظيم الذى سوف يحل بحياته؛ فإن نفسه الكريمة، أنكرت ذاتها، وتناست شخصيتها، وسكبت ينبوعا من الدموع الكريمة، التى لم تسكب نظيرها عين بشرية «على شاول، وعلى يوناثان ابنه، وعلى شعب الرب، وعل بيت إسرائيل، لأنهم سقطوا بالسيف».

(١) تصرف داود بصدد ذكرى شاول :

لم يكن هنالك أى شك فى موت شاول؛ ولقد وصل إلى داود تاج الملك، وهو علامة السلطان الملكى، كما وصل إليه السوار الذى على ذراعه. ولكى يشعر العماليقى داود بفضله عليه، أكد له بأنه هو الذى قضى على الملك بنفسه، بناء على طلبه. «فقال لى قف علىّ واقتلنى، لأنه قد اعترانى الدور، لأن كل نفسى بعد فىّ. فوقفت عليه، وقتلته، لأنى علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه». وكان داود قد فقد رشده حتى المساء، ثم تنبه لكى يبدى احترامه لذكرى شاول.

(١) لقد استدرج العماليقى ليعترف بما فعل: إن ناقل هذه الأخبار المحزنة، قد أوقع نفسه بنفسه، إذ اعترف بأنه قتل مسيح الرب. وعند المساء، أحضر هذا المسكين مرة أخرى فى حضرة داود، ويظهر أن داود، خامرته بعض الشكوك فى صحة هذه الرواية، وقد اتضح كذبها فيما بعد. [١] ومع ذلك؛ فكان يجب أن ينال قاتل الملك، أقصى العقوبة، من أجل الجريمة التى اعترف بها بلسانه.

وامتلأ قلب داود، بنفس ذلك الولاء الذى سبق أن ملك مشاعره، يوم ضربه قلبه، من أجل قطع طرف جبة مسيح الرب، وسأل ذلك السؤال الذى تنم لهجته على الرعب والفزع، «كيف لم تخف أن تمد يدك لتهلك مسيح الرب». بعد ذلك استدعى واحدا من الغلمان، وقال: تقدم، أوقع به. فضربه، فمات.

(٢) ثم سكب حزنه فى«نشيد القوس» الذى أمر بأن يتعلمه بنو يهوذا وينشدوه، والذى صار فيما بعد، قطعة فنية رائعة فى الرثاء، لا تبارى بين أدبيات العالم، ولقد أطلق على هذه المرثاة «نشيد القوس» (ع١٨) بسبب الإشارة إلى «القوس» فيها.

ويتبين عظم خسارة إسرائيل، فى الهتاف العظيم، الذى تخيل داود، أن بنات فلسطين رحبن به أبطالهن لدى عودتهم من الحرب (ع٢٠)، فى اللعنة الدائمة، التى صبها داود على الجبال التى تلوثت فيها مجن الجبابرة بالدماء، والتراب (ع٢١)، وفى الأعمال العظيمة، التى قام بها البطلان، بالقوس والسيف، قبل سقوطهما (ع٢٢). بعد ذلك؛ تنبعث من القلب المرنم فجأة، تلك الكلمات القوية، التى يعبر بها عن ذكرياته للصداقة القديمة التى

---

(١) فلم يكن هو الذى قتل كما يتضح من مراجعة ١ صم ٣١: ٣-٥.

ارتبط بها من الراحلين.

لقد نسى كل ما قاساه من شاول، ولم يذكرسوى رجولته الكاملة فى أيام شبابه، وقد أبت عليه محبته النبيلة، أن يذكر عن سيده شيئا، إلا كل ماهو جليل، وجميل، ونبيل؛ تلك الصفات التى تحلى بها، قبل أن يهبط به عناده، إلى الهاوية السحيقة، المظلمة، التى ظل فيها طول السنوات الأخيرة القليل، كأنه فى قبور الأحياء. «محبوب وحلو»؛ هاتان هما الكلمتان اللتان نقشهما على قبره التذكارى.

أما يوناثان، فلا بد من أن يخصص له فقرة خاصة، لقد كان مقتدرا كشاول؛ ألم يهجم وحده على جيش، ويصنع خلاصا عظيما؟ ولكنه مع كل قوته، كان جميلا وحلوا. لقد كان أخا له، كانت كل ذكرياته، جميلة، ومحبوبة، كنغمات الموسيقى الشجية، أو كرائحة نسيم الربيع العطرية؛ كان رقيقا، لطيفا، محبا كالنساء، شهما فى طبيعته، يخشى العدو بطشه، ويستميت فى حبه للصديق، مروع فى الحرب، ولكنه قوى جذاب فى محبته، كمحبة النساء وأكثر.

محبتك لى عجيبة

أعجب من محبة النساء

(٣) وفوق ذلك، فإنه بعث برسالة شكر وتهنئة، لرجال يابيش جلعاد: إن الإهانة التى عامل بها الفلسطينيون جثث الملك وبنيه، كفَّر عنها رجال يابيش جلعاد الصالحون، فهم لم ينسوا، أن أول ما عمله شاول كملك، أنه أنقذهم من عار شنيع، وخطر محقق (١ صم ١١)، ولذلك فإنهم دبروا خطة، أمكنهم بها أن يأخذوا جسد شاول، وأجساد بنيه الثلاثة، عن سور بيت شان، الذى سمرت عليه هذه الأجساد، بعد فصل رؤوسها عنها، ثم حملوها إلى مدينتهم ليلا، وأحرقوها، لكى لا يعود الفلسطينيون ليمثلوا بها شر تمثيل، ودفنوا الرماد ،بكل وقار وإجلال، تحت الأثلة، فى جلعاد.

وحالما وصلت أخبار هذا الصنيع إلى مسامع داود، أرسل رسلا إلى أهل يابيش جلعاد، شاكرا لم جميلهم الذى صنعوه لذكرى الملك الراحل، وواعدا إياهم برد هذا الجميل، كأنهم قد صنعوه بالأمة كلها، وبنفسه.

فى كل هذا، أظهر داود منتهى الشهامة، وعظمة النفس، فإنه لم يفكر فى نفسه، أو

فى مصالحه، لأنه تعلم سر إنكار الذات، إذ حصر كل تفكيره فى العناية بشئون الآخرين. هذا هو سر إنكار الذات، فتعلم إذن أيها القارئ العزيز، كيف تحيا حياة غيرك، سيما فى مصالح سيدك المسيح، تجد نفسك قد تحررت من تطفل النفس، وظلمها.

(٢) وجهة نظر داود نحو الملكة :

فى كل تصرفاته وحركاته فى هذه المناسبة، نجد جمالا رائعا، يدل على أن نفسه قد عادت تماما إلى علاقتها بالله، واستأنفت وجهة نظرها السابقة نحو انتظار الله وحده، ووضع كل ثقتها فيه، لا سواه، وتوجيه كل آمالها نحوه. لقد وثق بأن الله وحده الذى يمنحه الملك، ولذلك رفض أن يتخذ خطوة واحدة نحو العرش، دون إرشاد الله المباشر.

ومما يجدر بنا ملاحظته بكل اهتمام، موقفه فى الوقت الذى كانت توجد هنالك عدة بواعث تلزمه بسرعة التصرف، فإن الفلسطينيين كانوا قد خربوا المملكة، ولعله لم تكن هنالك حكومة مستقرة فى الأسباط الشمالية، فى السنوات الخمس التالية، ثم إنه لم يكن هينا على نفسه - وقد كان قلبه يفيض محبة لبلاده - أن يقف مكتوف الأيدى، دون أن يجمع شتات إسرائيل، ويبطش بالعدو. وفوق ذلك، فإنه كان يدرك، أنه هو الملك المعين من قبل الله، وكان أمرا طبيعيا، أن يعتلى العرش فورا، ويمسك صولجان الملك، كحقه الشرعى، ولعله لم يكن ممكنا لأحد، أن يعترض على خطة حازمة كهذه. وربما كان أبنير قد أعيته الحيل، فأحجم عن تنصيب ريشبوشت فى محنايم، وهكذا، نرى أن داود قد تنازعته عدة عوامل، وأفكار بشرية، ولكنه لم يسلك حسب مشورة الجسد، بل حسب مشورة أسمى. لم يحكم حسب نظرة العين البشرية، بل سأل الرب قائلا: «أأصعد إلى إحدى مدائن يهوذا؟»، ويظهر أنه عندما أرشده الله للصعود إلى حبرون، لم يذهب إليها كملك، أو قائد، بل أقام بكل هدوء وسكون، مع أتباعه، وسط المدن والقرى المجاورة، منتظرا حتى أتى رجال يهوذا، واعترفوا به ملكا بكامل الرضى والارتياح، ثم مُسح بالزيت للمرة الثانية.

لقد مسح أولا، على يد صموئيل، فى بيت أبيه، خفية، ومسح الآن، ملكا على شعبه، كما أن الرب يسوع - الذى كان داود ممثله ورمزه الأعظم - مسح أولا على شاطئ الأردن، ثم مسح ثانية، كممثل لشعبه ،حين صعوده إلى السماء، فى حضرة أبيه، وأقيم ملكا على صهيون، جبل قدسه.

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه المسحة الثانية، لابد من الإشارة إلى هذا الدرس الثمين، الذى يجب أن نتعلمه، وهو: أننا قبل كل أزمة خطيرة في حياتنا، وخصوصا؛ عندما نكون على وشك الدخول إلى دائرة خدمة جديدة أوسع، يجب أن نطلب، وأن ننال مسحة جديدة، لتعدنا لإتمام مطالبها الجديدة. يجب أن تكون هنالك مسحات متكررة فى حياتنا كلما اتسعت دائرة الخدمة. من الخطأ أن نعتمد دواما على مسحة سابقة قد حصلنا عليها فى الماضى، بل يجب أن نمسح بزيت جديد؛ عند ترك المدرسة إلى الكلية، عند ترك الكلية إلى الخطوة الأولى فى خدمة ربح النفوس، عند بدء الحياة الزوجية، ثم عند بدء حياة الأبوة، أو الأمومة، عند الدعوة للخدمة العامة فى الكنيسة أو فى الدولة - كل خطوة جديدة يجب الاستعداد لها، بانتظار الله، وطلب قوة جديدة من الأعالى، امتلاء من قوة الروح القدس.

(٣) مميزات حكم داود فى حبرون :

ملك داود على بيت يهوذا فى حبرون، سبع سنوات وستة أشهر، كان فى عنفوان القوة،إذ كان يبلغ من العمر ثلاثين سنة، ويظهر أنه حصر كل همه فى الاستمتاع بحياة التقوى، والقداسة الكاملة، فى بيته. وفى بدء الإصحاح الثالث، نرى إشارتين إلى الحروب الطويلة، التى قامت بين شاول وداود؛ وبين هاتين الإشارتين، دونت أسماء زوجاته (٢ صم ٣:٢-٥).

فى كل تلك السنوات، ظل داود محتفظا بروح الانتظار، والرجاء فى الله، التى كانت قد امتازت بها حياته بصفة مستمرة، والتى لم تفارقه إلا نادرا جدا. ونحن إذ نذكر أن الرب يسوع، يجلس عن يمين أبيه، حتى يوضع أعداؤه موطئا لقدميه، نذكر أيضا - نفس هذا المعنى - أن داود جلس على عرش يهوذا فى مدينة حبرون، (ومعناها شركة أو صحبة)، منتظرا، حتى ذلل الله كل الصعوبات، وأزال كل العثرات، ومهد الطريق إلى المجد الأسمى الذى وعده به، لم يشذ عن هذه القاعدة، إلا حين طلب رد ميكال إليه، ولعله كان من الحكمة لكليهما، لو أنها تُركت لزوجها، الذى يبدو أنه كان يحبها محبة صادقة، ولكن؛ يظهر أن داود، وجد أن من واجبه، الإصرار على حقه الشرعى،كصهر الملك السابق، سيما وكان قد عرف عنه أنه صاهر البيت الملكى.

إذا استثنينا هذه الحادثة، نستطيع القول، أنه كان على الدوام، يسلك سياسة إيجابية، وعندما كان الأمر يستلزم الحرب، كان يترك ذلك إلى يوآب. أما طلب نقل مملكة

إسرائيل إليه؛ فقد قدم إليه بواسطة أبنير نفسه، الذى كان يعتقد لسنوات طويلة، أنه يحارب الله، والذى قال أخيرا للملك (إيشوبشت)، الذى أقامه وعضده، وسنده، بأن ما حلف الله لداود، لابد أن يتممه، أى؛ لنقل المملكة من دان إلى بئر سبع، ومن بيت شاول، إلى بيت داود (٢ صم ٣:٩ و١٠). وتمت المفاوضات مع إسرائيل وبنيامين، بواسطة أبنير، بدون تدخل من داود مطلقا. فإن أبنير هو الذى فاوض شيوخ إسرائيل، وتحدث فى آذان بنيامين، وذهب أخيرا، ليتحدث فى أذنى داود، فى حبرون، بكل ما حسن فى أعين إسرائيل، وفى أعين جميع بيت بنيامين. وأبنير هو الذى اقترح لداود أن يذهب ويجمع إليه (إلى داود) كل إسرائيل، وخاطبه على أساس أنه هو سيده، الملك، قائلا له؛ أن يستعد ليملك، حسب كل ما تشتهى نفسه (ص ٣:١٧-٢١).

وسط كل هذه الإجراءات، لم يفعل داود شيئا، سوى أن يتقبل بهدوء، ما عرض عليه، ولم يحتد إلا فى مناسبتين، عندما كان من الضرورى أن يبرئ نفسه من جريمتين، ويظهر سخطه الشديد على من ارتكبهما.

كان مظهرا نبيلا جدا، عندما سار الملك وراء نعش أبنير، وبكى على قبره، لقد نسى أن هذا الرجل كان عدوه الألد، وذكر فقط أنه قائد كبير، ورجل عظيم، ونظم مرثاة بليغة، لتوضع على قبره، كما فعل عند موت شاول. ولا عجب إن كان كل الشعب يهتمون بهذا المنظر، الذى «حسن فى أعينهم، كما أن كل ما صنع الملك، كان حسنا فى أعين جميع الشعب».

بعد ذلك، تمت المأساة الدنيئة، وهى قتل إيشوبشت، الذى لم يكن إلا ملكا صوريا. كان هذا الملك ضعيفا، وكان ملكا هزيلا، كان مقره فى محنايم، على شاطئ الأردن الشرقى، ولم يكن إلا ملكا اسميا، وكانت تعزى كل قوته إلى أبنير، ولما قتل أبنير، انهار سلطانه، ثم قتله جماعة الخونة، وحالما وصلت الأخبار إلى داود، وحملت رأسه، علامة على قتله، والتمثيل به، حول داود وجهه إلى الرب الذى فدى نفسه من كل ضيقة، وحلف بأن ينتقم لدمائه. كان جزاء العماليقى، الذى حمل خبر موت شاول، والذى أكد، بأنه هو الذى قتله، أن حكم عليه بالموت. ولذلك؛ لم يكن ممكنا أن يلقى جزاء، أقل مما لقيه هذان الشريران، اللذان قتلا صديقا فى بيته، وعلى سريره (٢ صم ٤:٥-١١).

من ثم، جاء جميع أسباط إسرائيل إلى حبرون، وقدموا إليه تاج المملكة كلها، وتذكروا قرابته لهم، باعتبارهم عظمه ولحمه، وذكروا خدماته السابقة، عندما كان يخرج ويدخل جيوشهم، حتى حين كان شاول ملكا عليهم، وذكروه بالوعد الإلهى؛ أنه لابد أن يكون راعيا ورئيسا. حينئذ قطع معهم داود عهدا، وصار ملكهم الشرعي ومُسح – للمرة الثالثة – ملكا على كل الشعب، كما أن ابن الإنسان سوف يُعترف به – يوما من الأيام – ملكا على كل عالم البشر، ويملك بلا منازع.

لا شك فى أن المزمور الذى يشير إلى هذه الحقبة، هو(مز ١٨)، الذى دون فيه أعمق عبارات الشكر والولاء، تحت كل اسم من أسماء الله الكريمة، تنطوى بركة خاصة به؛ ويا له من تعبير سام، كل السمو، إذ يصور الله آتيا مطأطئ السموات لتخليص عبده. إننا نستطيع أن نستمع إلى صوت البركة، ونرى وميض البرق، وجمر النار، ولكننا، خلال كل ذلك، نستطيع أن نحس، برقة محبة الله، فى كل تصرفاته مع أولاده ، والتى تتبين فى تلك الكلمات الجديرة بذلك الرسول، الذى أحبه يسوع.

تجعل لى ترس خلاصك

ويمينك تعضدنى

ولطفك يعظمنى

مز ١٨:٣٥



الفصل العشرون

يا للمياه من بئر بيت لحم !!

لنتأس ، ولنصبر، لأنه إن كان الله قد حرمنا
من كنوزنا الأرضية التى جعلناها متكلنا
فلكى يفصل قلوبنا إلى الأبد
عن كل علاقة بالأشياء الزائلة

أنال وارنج

لابد أن يكون ذلك الجمع الذى احتشد لتتويج داود ملكا على كل إسرائيل؛ قد بلغ من الروعة منتهاه. يسجل لنا سفر أخبار الأيام الأول، (ص١٢:٢٣ الخ) أسماء، وعدد،قادة الشعب الذين حضروا فى هذه المناسبة العظيمة الشأن:

اجتمع عظماء، وأبطال، وذوو بأس، من يهوذا وشمعون، من بنى لاوى؛ تحت قيادة يهوياداع، وصادوق، رجال مبرزون من أفرايم، من بنى يساكر، الخبيرين فى الأوقات، من زبولون، الأشداء فى الحروب. هؤلاء، وغيرهم كثيرون؛ «أتوا بقلب تام إلى حبرون ليملكوا داود على إسرائيل، وكانوا هناك مع داود ثلاثة أيام». يأكلون ويشربون كل شئ ؛ وقد اشترك فى هذه الولائم، الأسباط البعيدة، مثل زبولون ونفتالى، كما اشترك فيها القريبون، وبذلك، ساهمت كل جماعة إسرائيل فى الفرح بهذه المناسبة السعيدة.

على أن القلسطينيين، كانوا يرقبون هذا المنظر باستياء شديد، لأنه طالما كان داود قانعا بدائرة ملكه الصغيرة فى حبرون، تاركا لهم الحرية للإغارة على القبائل الشمالية حسب إرادتهم، لم يشاءوا أن يتدخلوا، ولكن، عندما سمعوا أنه مسح ملكا على كل إسرائيل، نزلوا ليفتشوا عليه، ولعلهم انتظروا، حتى انتهى ذلك الاحتفال الرهيب، وتفرقت إسرائيل إلى أوطانها، وحينئذ؛ هجموا على يهوذا بعدد وفير جدا من رجالهم، وانبثوا فى وادى أفرايم، وقطعوا اتصال داود بالأسباط الشمالية، حتى اضطر إلى الالتجاء برجاله الأبناء، واتباعه

السنمائة، إلى الحصن الذى لابد أن يكون هو مغارة عدلام الشهيرة. (قارن ٢ صم ٥: ١٧ ب ص ٢٣: ١٣ و١٤).

(١) انقلاب فجائي :

كان يلتف حول داود، بالأمس، جماعة من أقوى المحاربين الذين شهدتهم البلاد فى أجيال كثيرة. لقد رفع إلى العرش بابتهاج شعبى، ليملك على كل الشعب، بعد أن أصبح كتلة واحدة. كان واثقا أنه متمتع بمحبة شعبه القلبية الخالصة، أما اليوم، فنراه يهجر حبرون – التى أقام فيها أكثر من سبع سنوات، فى حياة هادئة، مطمئنة – ليعود إلى الجبال، والقفار، التى لجأ إليها من قبل؛ إذ هرب من وجه شاول. كان ذلك انقلاباً فجائيا فى حياته؛ ظلمة داهمة فى رائعة النهار، سحابة قاتمة فى جو صحو. والأرجح أنه لجأ إلى الله. هذه أيام، لصق فيها بصديقه القدير، ولم يخامره أى شك، لحظة واحدة، فى أن الله لابد أن يتمم كل ما هو من ناحيته، ويثبته إلى النهاية؛ على عرش المملكة.

مثل هذه الانقلابات الفجائية، تأتى إلينا، لكى تهدم ثقتنا فى البشر، وفى كل شئ؛ لكى تمنعنا عن بناء العش، على أية شجرة أرضية، ولكن؛ تدفعنا إلى تثبيت كل رجائنا فى الله وحده. كان من النافع جدا، تذكير داود، فى هذه الأزمة الخطيرة فى حياته، بضرورة اعتماده على الله فى كل ظروف حياته، وبأن من يمنح البركات، يستطيع بسهولة أن يستردها. يجب أن تعلم يا من تعيش فى هذا العالم، عالم الفناء، بأن دروسا كهذه، سوف تقدم إليك حتما، لتتعلمها. فى ساعة الانتصار العظيم، يجب أن تذكر، ذاك الذى حسبك أمينا، بأن تكون وكيلا له. يجب أن تعلم، بأن ما وصلت إليه من مركز رفيع، وقوة ونفوذ، إنما هو عطية منه، ووكالة، اؤتمنت عليها لمجده؛ إذن، فلا تعجب، أن كان يزعزع عرشك بين الآونة والأخرى، لكى تتذكر، بأن ثباته لا يعزى لأية امتيازات موروثة، بل لمحض إرادته، وقوة اقتداره.

وهذه المفارقة بين مسحه فى حبرون، وحرب عدلام، تمثل لنا اختبار الرب يسوع، الذى بعد أن مسح فى الأردن، اقتيد بالروح، إلى برية يهوذا، ليجرب أربعين يوما من إبليس، وهذا هو ناموس الحياة الروحية. إن حياة الشهرة والازدهار، المزدوجة بالاختلاط بالجماهير، لا تمكّن من النمو والكمال فى الحياة الروحية؛ أما الوحدة والعزلة، والصراع العنيف،

والتجارب، فيها تشعل الحياة الروحية وتلهبها، وتعدنا لخدمة المساكين، والمنكسرى القلوب، والمساجين، والمأسورين، والعمْى.

(٢) بريق من النور :

وفى وسط ظلمة تلك الساعات القاتمة، انبثق بريق من النور، من ثنايا بعض الحوادث المشهورة، فإن عظماء إسرائيل، أظهروا مقدرة فائقة فى مبارزة أبطال الفلسطينيين، مبارزة فردية، ثم إن ابيشاى، ابن صروية، ضرب جبار الفلسطينيين، الذى خيل إليه، أنه قتل داود بسيفه الجديد، والحانان، ابن يعرى، قتل شقيق جليات، الجتى، ويوناثان، ابن شمعى، أخى داود، ضرب رجلا طويل القامة، أصابع كل من يديه ورجليه ست، إذ عير إسرائيل (٢ صم ١٧:٢١-٢١)، وألعازر وقف فى الثغرة - عندما هرب الباقون - وضرب الفلسطينيين، حتى كلت يده، وصنع الرب خلاصا عظيما على يديه، ورجع الشعب وراءه، للنهب فقط (٢ صم ١٠:٢٣). مثل هذه المعجزات، تمت حول شخص قائدهم، الذى سر تابعوه أن يدعوه، «سراج إسرائيل»، رغم الظلمة الحالكة التى كانت سائدة إذ ذاك (٢ صم ١٧:٢١).

يا للمعجزات التى يمكن إتمامها بإيحاء نفس واحدة. وفى هذه المناسبة، لا يسعنا إلا أن نعود بالذاكرة، إلى تلك الساعة الرهيبة الخطيرة، التى برز فيها شاب مجهول، من صفوف إسرائيل، المرتعدة، لمبارزة جليات، القوى الجبار. ورغم أنه كان وحيدا - من ناحية المعونة البشرية - فإنه انتصر على ذلك العدو الرهيب. أما الآن، وقد مضى على تلك الحادثة نحو أربعة عشر، أو خمسة عشر عاما، فإنه لا يقف بمفرده، بل كان معه عدد وفير من رجاله الذين تشبعوا بروحه، والتهبوا غيرة بإيمانه، والذين دفعوه برقة إلى المؤخرة، وأخبروه بأنهم يجب أن يكونوا هم، فى مقدمة الحرب، لكى يتحملوا كل خطر عن حياته الغالية، التى كانت مصدر كل نشاطهم وقوتهم، والتى يجب أن لا تتعرض للخطر، بلا مبرر.

وهكذا نرى أن حياة العظماء، والأبطال، تبعث الحياة فى نفوس الكثيرين، وخاصة من معاصريهم،وكم من أشخاص دفعوا إلى ميدان الخدمة، عن طريق القدوة الصالحة؛ والذين كانوا تلاميذ للمسيح، صاروا رسله وشهداءه. لقد صارت حياته التى عاشها على الأرض - حياة البذل والتضحية، من أجل الآخرين - منارة جذبت ربوات من البشر، من الأودية الواطئة، أودية محبة الذات، ودفعتهم إلى حياة التسليم، وإنكار الذات، وآلام الصليب، ولا زال تأثيرها هذا، باقيا لكل النفوس التى تتبع خطواته.

(٣) حادثة مؤثرة :

لم تكن عدلام بعيدة عن بيت لحم. لطالما كان داود، يرعى غنم أبيه فى أيام شبابه، فى نفس الأودية التى كان يلجأ إليها الآن، وكانت تلك المناظر التى ألفها، تعيد إليه ذكريات الماضى، وتذكره بأبيه يسى، وأمه، وبيت أبيه، فى صباه، كما تذكرنا رائحة معينة، أو نغمة مألوفة ،ببعض حوادث معينة.

وفى مساء أحد الأيام، مثلت أمامه هذه الذكريات بشكل واضح، كل الوضوح، مما لم يعهده من قبل، فشعر بانقباض فى نفسه. كان فى ذلك اليوم، يقيم فى الحصن كأنه سجين، ورأى عن بعد، أن جماعة من الفلسطينيين اقتحموا بيت لحم، وبغتة، أحس بشهوة ملحة للتنوق من مياه «بئر بيت لحم التى عند الباب»، وبغتة، خرجت من بين شفتيه – رغم إرادته – بضع كلمات، تعبر عن هذه الشهوة، لم يكن يتوقع، أن أحد أبطاله، سمع هذه الكلمات، أو أنه، إن وجد هنالك من سمعها، فلن تبلغ به الحماقة، إلى حد أنه يحاول أن يشبع هذه الشهوة؛ لو أن هذا الخاطر، جال فى ذهنه خاطئا، فإنه لم يكن قد سبر بعد، غور محبة أبطاله له.

سمع عَرَضا بهذه الرغبة، ثلاثة من أبطاله، فانسلوا خفية من المغارة، ونزلوا إلى الوادى، وشقوا طريقهم وسط جنود الفلسطينيين، استقوا ماء من البئر، وأتوا به بين يدى داود، قبل أن يشعر بغيابهم؛ وبهذا التصرف، عبر هؤلاء الأبطال عن محبتهم، التى كانت أقوى من الموت، أما داود؛ فإنه لم يستطع شرب الماء، وبدا فى عينيه، ذلك الإناء الذى يحمل الماء، كأنه يسطع بنور قرمزى، بانعكاس لون الدماء، التى كان ينتظر أن يكلفها الماء. بعد ذلك، نراه بروح الشهامة – التى لازمته أبدا، فى كل أطوار حياته المختلفة، والتى خشع أمامها كل تابعيه – ينهض، ويسكبه للرب، (كأن هذه الهدية النفيسة لا يليق إلا تقديمها للرب) قائلا وهو يسكبه؛ «حاشا لى يارب أن أفعل ذلك، (هل أشرب) دم الرجال الذين خاطروا بأنفسهم» (٢ صم ٢٣:١٧).

وهنا، نرى صورة لامعة أخرى فى هذه الحادثة الرائعة، التى تمثل قوة ضبط النفس العجيبة، التى نعم بها داود؛ فإنه إلى ذلك اليوم، كان فى كل أيام حياته، ممنطقا حقويه بشدة، إذ لم يسمح لأية رغبة من رغباته، أن تكون لها السيادة عليه. لقد تعلم أن يكبح كل

الشهوات الجامحة، وكل الأهواء المنحرفة، بعزم حديدى لا يلين، لكى يعيش حسب المثل العليا، للرجولة الكاملة، ومقدما نفسه قدوة، كملك كامل، وكان ينظر على الدوام ، لإشباع رغائبه ،كأمر ثانوى، بالنسبة إلى المبادى العليا النبيلة.

جميل جدا أن يتساءل كل الشبان والشابات، وغيرهم ممن يقرأون هذه الكلمات: هل إذا كانت الشهوات التى تعودوا الانغماس فيها مع أقرانهم، لا تكلف ثمنا غاليا، أيجرؤون أن يتجرعوا كأس الملذات، فى دار التمثيل، أو السينما، لو تحققوا أنها لم تقدم إلى شفاههم، إلا بدماء عشرات من النفوس، التى قد ضحت بأدبها، واحتشامها، وفضيلتها، وراء الستار؟ أيجرؤون أن يتجرعوا كأس الخمر، لو أنهم أدركوا، أن عادة تعاطى المسكرات، تكلف سنويا سعادة، وحياة ربوات من البشر، بل وسعادتهم الأبدية؟

كم مرة تأوهنا، لطلب المياه من بئر بيت لحم؟ كم مرة رجعنا بذاكرتنا إلى الماضى، وفكرنا طويلا فى تلك الذكريات، التى لن تمحى؟ كم مرة تشوقنا، بأن نرى ذلك الوجه مرة أخرى؟ أن نحس بلمسة تلك اليد الرحيمة، وأن نسمع ذلك الصوت. كم مرة تمنينا العودة لتلك السنوات السعيدة، التى لم تمس فيها الشجرة المحرمة، ولم يشهر فيها لهيب السيف المتقلب ؟ كم مرة تمنينا رؤية جديدة، وتكريس حياتنا لخدمة السيد، والاستمتاع من جديد، ببهجة محبته!! ليت من يسقينا من مياه بئر بيت لحم التى عند الباب. هذه كلها تأسفات باطلة، فإنه لن توجد هنالك قوة كافية، بأن تنفذ فى طيات السنين السالفة، وتعيد إلينا الماضى. على أن طلبة النفس، يمكن تحقيقها فى ذلك الذى قال «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا، ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذى أعطيه، يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» إن النفس لن تروى ظمأها من بئر بيت لحم، ولكنها تجد ريها إلى الأبد، فى ذاك الذى ولد فى بيت لحم.

(٤) هزيمة الفلسطينيين: :

لم تغير حياة الرخاء من وجهة داود نحو انتظار الله والاتكال عليه؛ لقد ظل كما كان، حين أتى أولا إلى حبرون، وفى ساعة الحيرة هذه، سأل الرب قائلا:«أأصعد إلى الفلسطينيين؟ أتدفعهم ليدى؟» وأجابه الرب، مؤكدا له النصرة.

وعندما ابتدأت الحرب، خيل إليه، كأن الرب يكتسحهم أمامه، كطوفان الشتاء الذي

يكتسح كل ما يجده أمامه عند انحداره من سفح الجبل. وهذا ما قاله «قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه». ولم يجد العدو وقتا حتى لأخذ أصنامه التي وصلت لأيدي الغزاة.

«ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا لاسترداد سيادتهم القديمة» (٢صم٥:٢٢). وعاد داود أيضا لانتظار الرب، وطلب إرشاده وحسنا مافعل، لأن خطة الهجوم لم تكن كسابقتها؛ يجب على الذين يتكلون على معونة الله أن يحرصوا على أن يكونوا في صلة مستمرة معه، والمعونة التي أعطيت بالأمس بشكل معين، تعطى غدا بشكل آخر. في الموقعة السابقة، انتصر داود على الفلسطينيين، بالهجوم عليهم، وفي هذه الموقعة الثانية، دار من ورائهم، وصنع لهم كمينا؛ سواء عكس داود الخطة، أو اتبع خطة واحدة في كلتا الموقعتين، دون طلب إرشاد الله ومعونته، لكان قد خسر مؤازرة تلك الجيوش العلوية، التي كانت تعمل كحلفائه الأقوياء، الذين لا تقوى عليهم أية قوة من القوات.

وهذه الخطوة التي اتخذها داود «مقابل أشجار البكا» والتي كانت تشير، بأن الكمين يجب أن يتحرك، ويهجم على العدو -تبين ضمنا، سماع «صوت خطوات» جيوش الملائكة غير المنظورة، تتقدم إلى ساحة الحرب (٢ صم ٥:٢٣و ٢٤) «يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين»، حينئذ، اقتحم داود صفوفهم وضربهم، من جبع، إلى ساحل البحر.

قد يدعونا الله أحيانا إلى المسير، وأحيانا إلى الوقوف، أحيانا إلى العمل، وأحيانا أخرى إلى الألم، في هذه الموقعة إلى الهجوم كالسيل الجارف، وفي الموقعة التالية، أن ندور خلسة، ونصنع كمينا، وننتظر. يجب أن لا نصر على الجمود، والبقاء على حال واحدة؛ مايصلح في بيت غزالة المتواضع (أع ٩:٣٦)؛ لايصلح في قصر كرنيليوس الفاخر. ليكن لنا إيمان حي في الله، لننتظر بهدوء وسكينة في الصلاة على سطح المنزل، لننتظر أمر روح الله لنا بالرحيل، حسبما يدبره لنا. لنكن مستعدين بأن نتبعه، ولو كان في ذلك تضحية جبارة في حياتنا؛ وكيف أنه يستطيع أن يخترق صفوف أعدائنا، ويقدم لنا جيوشه العلوية، السريعة الخطى، لإغاثتنا.

الفصل الحادي والعشرون

أورشليم.. المدينة المقدسة (٢ صم ٥)

أورشـلـيـم الجـــــمـــــيـلـة
المدينة المقـدسـة.. رفـعت أبراجـهـا عـالـيـة

ملتون
فى «استرداد الفردوس»

كان ضمن المشروعات الأولى للملك الجديد، أن يؤسس عاصمة ملائمة لمُلكه. ولقد دل اختياره لأورشليم على بعد نظره، وحنكته السياسية، والإدارية؛ على أنه كان هنالك عامل آخر، فإن ذلك الاختيار، كان نتيجة إرشاد روح الله المباشر. كان هذا هو الوقت الذى تحدث عنه الله فى سفر حزقيال (ص ١٦:٨) «فمررت بك ورأيتك، وإذا زمنك زمن الحب... وحلفت لك، ودخلت معك فى عهد يقول السيد الرب فصرت لى».

كان هنالك رغبة ملحة، فى أن تكون العاصمة سهلة الاتصال بكل أطراف المملكة؛ وأن تتوفر فيها كل الشروط التى تؤهلها، بأن تكون قلب، وعقل البلاد؛ يجب أن تكون ممكنة التحصين بحصون منيعة، لحفظ مقادس المملكة النفيسة سليمة؛ يجب أن تتوفر فيها، صفتا الجمال والقوة، لكى تثير فى نفوس كل الشعب روح الفخر، مع الولاء والاعجاب. يجب أن تكون مقدسة، بجماعتها المقدسة، لكى تكون المركز الدينى، لحياة الشعب الروحية؛ كل هذه الصفات، توفرت فى أورشليم، ودفعت داود لاختيارها بإرشاد إلهى؛ وفى هذه الناحية، اختلف كل الاختلاف عن شاول، الذى جعل موطنه –جبعة – مقر ملكه، رغم أنها كانت مدينة غير معروفة قط، وفوق ذلك، فقد ارتكبت فيها جريمة لن يمحى عارها، ولو كان قد اتخذ حبرون مقرا لملكه، لأثار غيرة باقى إسرائيل وحسدهم، ولو اختار بيت لحم، موطنه ومسقط رأسه، لعد ذلك منه عملا وضيعا؛ لهذا لم يكن هنالك أليق من أورشليم، فقد كانت على الحدود، بين يهوذا وبنيامين، محاطة بالأودية من ثلاث جهات، ومحصنة تحصينا منيعا، من الجهة الرابعة الشمالية.

(١) تاريخها السابق :

كان اليهودى يفضلها على كل مدينة أخرى، فهى مدينة إلهه، واقعة فى جبل قدسه، «جميل الارتفاع، فرح كل الأرض جبل صهيون» (مز ٢:٤٨)، كان يذكر عن جبال باشان المرتفعة، بأنها تنظر إلى جبل صهيون - الأقل منها فى الارتفاع - نظرة الغيرة والحسد، لأن الله اختاره لسكناه (مز ١:٦٨)؛ وكانت الجبال التى تحيط بها، تبدو كأنها تمثل حلول الرب حولها، وكان الأسير فى سبيه، يفتح كواه نحو أورشليم، إذ يجثو فى الصلاة، ويود لو تنسى يمينه،إان لم يفضل قلبه أورشليم على أعظم فرحة. وكانت بهجة الحج السنوى إليها للاشتراك فى الأعياد المقدسة، تنحصر فى أن تقف أقدام الحاج فى أبوابها، وعند الاقتراب من أسوارها وقصورها، كان الأتقياء يصلون، بأن يحفظ السلام داخل أسوارها، من أجل الإخوة والأصحاب، الذين أسعدهم الحظ بالسكن فيها (مز ٧:١٢٢و٨)، وذلك القلب، الذى خفقت فيه أسمى العواطف البشرية، وهو أشرف القلوب التى حلت فى جسم بشرى، لتبعث منه أعمق التنهدات، إذ ذكر ما سيحل بها من خراب؛ فإن يسوع، إذ تطلع إليها، بكى قائلا «يا أورشليم كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا»٠[١]

على أنها لم تكن كذلك كل أيامها، فقد كان منشأها فى أرض الكنعانيين، وكان أبوها أموريا، وأمها حثية، وعندما ولدت، طرحت فى نفس يوم ميلادها، على وجه الحقل، كطفل مهجور، يتمرغ فى دمائه (حز ٣:١٦-٥). منذ عدة أجيال، حكمها ملكى صادق، الكاهن الملك، فترة وجيزة، ولابد أن مدة حكمه الوجيزة، كانت تنبئ بما ينتظر هذه المدينة، من مجد وسؤدد، كما كانت أعمدة الدخان التى تتصاعد من مذابحه، تنبئ بالعبادة الزهيبة، التى سوف تقدم فى الهيكل، وكما كان كهنوته ينبئ مقدما، بكهنوت متصل يبقى إلى الأبد. بعد ذلك، سادت المدينة ظلمة حالكة حقبة طويلة، وبعد أن احتل إسرائيل باقى البلاد، ظلت أورشليم خاضعة لليبوسيين سنوات عديدة. صحيح أن يشوع أخضع المدينة اسميا فى احتلاله الأول للبلاد، وقتل ملكها، ولكن سيادته عليها لم تطل، فإنها سرعان ما وقعت ثانية فى أيدى سكانها السابقين.

---

[١] مت ٣٧:٢٣ (مكتبة المحبة).

(٢) الاستيلاء عليها :

جمع داود كل جيوش إسرائيل، وصعد إلى أورشليم، ولأول مرة، بعد سبع سنوات، قاد جيشه بنفسه، وعلى قدر ماكان يصمت ويسكن إذا مادعى لانتظار إرشاد الله، كان فى غاية النشاط والحركة إذا ما تحقق الدعوة الإلهية للعمل .ولما ذهب داود ورجاله لطرد اليبوسيين منها، هزأوا به، لأنهم كانوا واثقين من مناعة الحصن، وقوة الأسوار، ولذلك؛ بلغت بهم درجة الاستهزاء بداود، أنهم وضعوا حول الأسوار جماعة من الكسيحين، مفتخرين بأن هؤلاء، كفاة لصد داود عن المدينة؛ ولكن، يتضح من وصف يوسيفوس، أن يوآب، إذ تأثر بنداء داود، المتضمن بأن يجعل من غزو المدينة قائده الأعلى، حفر خندقا تحت الأرض، ودخل إلى لب الحصن نفسه، وفتح الأبواب فى وجه كل الجيش.

وسواء صحت هذه الرواية أم لا، فإنه من المؤكد، أن داود استولى على المدينة بسرعة خاطفة، بسبب شجاعة يوآب، وأنه سكن الحصن الذى دعى فيما بعد «صهيون»، أو «مدينة داود»، ولم يكن هذا إلا جزءا من المدينة العظيمة، التى سميت فيما بعد؛ أورشليم. أما جبل المريا، الذى بنى عليه الهيكل فيما بعد، فإنه على الأرجح، لم يكن مأهولا بالسكان، وكان لأرونا اليبوسى، بيدر هناك.

كان أول عمل لداود، توسيع الحصون، «وبنى داود مستديرا من القلعة فداخلا»؛ أما يوآب، فيظهر انه رمم المبانى فى المدينة نفسها، وزادها جمالا وأناقة؛ وقد كان هذا التوفيق الأول، أساس عظمة داود، «وكان يتزايد معظما والرب إله الجنود معه». والواقع، أن الأمم المجاورة، تأثرت بتزايد مملكته فى القوة والعظمة، فأسرعت لطلب محالفته.(١ أى ١١:٧-٩، ٢ صم ٥:١١).

(٣) عصر مزدهر :

قيل إن المزمور ١٠١ يشير إلى هذه الساعة من حياة داود؛ فإنه وجد نفسه، قد دعى فجأة لتحمل عبء إدارة أمة عظيمة، ولدت فى يوم واحد، وبدأت تدب فيها روح الانتعاش، والحياة. وكانت المطالب الجديدة، تستدعى قوة جديدة. كان لابد له من التعجيل فى إنشاء إدارات للتشريع، والعدل، والمالية، والشئون الحربية، وتركيز هذه الإدارات فى العاصمة. وكان لابد من تعيين موظفين من كل طراز، فكان القصر الملكى، يكتظ كل يوم، بأولئك الذين يسعون للترقية إلى الوظائف الرئيسية. وقد حرص داود كل الحرص، لكى لا يرتكب أى خطأ فى هذه التعيينات الأولى، حتى تكون المملكة، واثقة من أخلاق أولئك الذين ائتمنهم على إدارة

شئونها؛ لأجل هذه الغاية، ربما يكون هذا المزمور قد نظم، وعلى أى حال، فإنه ينطبق كل الانطباق على مثل هذه الظروف.

يصرح الملك فى مزموره، أنه يتعقل فى طريق كامل، ويسلك فى كمال قلبه، فى وسط بيته، لا يضع قدام عينه أمرا رديئا، ويبغض عمل الزائغين، ثم يصف أولئك الذين سوف يختارهم، ليكونوا وزراءه ومستشاريه. سوف لا يصغى لمن يغتاب سرا كدُواغ، أو كوش، ولا يسمح بأن يترأس على مجلس أحكام الدولة، أمثال هامان، المستكبر العين، المنتفخ القلب، لئلا يظلموا مردخاى على الباب؛ وإن وجد هنالك غشا أو كذبا، فى أى واحد من أتباعه، أو أى نوع من الباطل؛ فإنه يتعهد بطرده فورا، وهو مستعد أن يبذل قصارى جهده، لإبادة جميع أشرار الأرض، وقطع كل فاعلى الإثم من مدينة الرب؛ على أنه من الناحية الأخرى، سوف تتفتح عيناه على أمناء الأرض؛ هؤلاء هم الذين يجلسون معه، ولا يمكن أن يخدمه إلا السالك طريقا كاملا.

هذا مثل أعلى للإدارة؛ لقد كان داود محقا، حين وصف هذا العصر المزدهر للمملكة الجديدة ، إذ تطلع إليها وهو واقف على عتبة الأبدية، وقال: إنها كصباح بلا غيوم، أو كعشب من الأرض فى صباح صحو مضئ غب المطر.

فى تلك الساعة، مثل أمامه المثل الأعلى للحاكم البار، الذى يتسلط على الناس بخوف الله، ويبيد الأشرار كشوك مطروح، فيحترقون بالنار فى مكانهم. دعاه هذا المثل الأعلى، ورفع إليه الصوت عاليا، ولو أنه سمع وأطاع، ولم يحد يمنة أو يسرة، لاستراح من متاعب كثيرة، وآلام وفيرة. وفى ساعة وفاته، تمثل أمامه ذلك المثل الأعلى، الذى كان قد انقضى عليه أكثر من ثلاثين عاما؛ وإذ قارنه بالأمر الواقع فعلا، امتلأ قلبه حزنا، فقد كان مؤلما لنفسه أن يقارن، بين ما كان، وبين ما كان يجب أن يكون؛ بين حياته، التى ترمرت فى الطين والوحل، وبين بدايتها، الصافية النَّقِيَّة (٢ صم ٢٣:١-٥).



الفصل الثاني والعشرون

نقل تابوت العهد إلى جبل صهيون (٢ صم ٦)

اصغ إلى ذلك الصوت الإلهي
الذي يزعزع الأرض ويطن الآذان
أهو صوت الرعد لظهور الرب؟
أهو صوت الموسيقى العذبة لصلوات شعبه؟
سوف يأتي يقينا
فيطلق ألف صوت للقديسين
سوف يأتي يقينا
فتبتهج الأرض مغتبطة بمجيئه
ذاك الذي حلف قائلا «أنا آتي سريعا»

ف. مايرز

حالما أعد داود عاقدة لملكه، أراد أن يجعلها ليس فقط، مركز الحياة السياسية، بل أيضا، مركز الحياة الدينية لشعبه؛ وإذ وضع هذه الغاية نصب عينه، عزم على أن يضع تابوت العهد – الذى كاد يُنسى من الجميع – في بناء مؤقت مجاور لقصره الملكي؛ كان ذلك التابوت، منذ إعادته من أرض الفلسطينيين، بصفة مؤقتة، فى بيت أبيناداب، وتحت رعايته، فى «الأكمة» التى تبعد عن أورشليم أحد عشر ميلا من الجهة الجنوبية الغربية.

والأرجح جدا، أن داود شعر بأنه لا يستطيع نقل خيمة الاجتماع، التى أقيمت على مرتفعة جبعون، بعد قتل شاول للكهنة؛ لأن صادوق الكاهن، وإخوته الكهنة، كانوا يخدمون فيها، يقدمون الذبائح باستمرار على المذبح، فى هذه الخيمة. لقد كان روح الحسد والغيرة، مستحكما بين عشيرتي صادوق وأبياثار؛ فكان من الحكمة عدم الجمع بينهما، أو التدخل فى الشعائر الدينية، التى كانت مستمرة طوال السنوات الأخيرة (١ أى ١٦: ٣٩ الخ). على أن نقل التابوت إلى قلب المدينة الجديدة، كان يحقق غرض داود، ولكنه لم يشأ أن يتخذ خطوة واحدة من تلقاء ذاته، بل استشار رؤساء الألوف، ورؤساء المئات، بل كل قائد؛ وبعد موافقتهم، أرسل

إلى كل أرض إسرائيل، ليجمع كهنة، ولاويين، وبعض الشعب، لنقل التابوت المقدس.

(١) خطية لمس العجلة :

كان مشهدا رائعا، ذلك الذى دخل القرية المتواضعة فى هذا اليوم؛ وفضلا عن العدد العظيم، من الكهنة، واللاويين، وجمهور الشعب؛ فقد كان هنالك أيضا ثلاثون ألفا من منتخبى الجنود، لضمان عدم اعتداء الأعداء على الجماعة.

ولعل مز ١٣٢ يشير إلى هذه المناسبة؛ فيه يسجل عزمه الذى وضعه فى قلبه أيام محنته؛ والذى يتضمن، بأنه حالما يخلصه الرب من هذه الأيام، ويثبته على مملكته، فإن أول عمل يقوم به، هو أن يجد مقاما للرب، مسكنا لعزيز يعقوب؛ وبعد هذا، نجد تلك العبارات الخالدة، التى تشير إلى هذه الحادثة مباشرة:

هو ذا قد سمعنا به فى أفراته
وجدناه فى حقول الوعر
لندخل إلى مساكنه
لنسجد عند موطئ قدميه
قم يا رب إلى راحتك
أنت وتابوت عزك

على أنه حدثت غلطة شنيعة، كدرت صفو ذلك اليوم، الرائع الجمال، وأرجأت إتمام رجاء الشعب وآماله. كان ضمن وصايا ناموس موسى المشددة، أن لا يحمل التابوت، إلا على أكتاف اللاويين المختصين بهذه الخدمة؛ على أن لا يمسوه بأيديهم، لئلا يموتوا (عد ٤:١٥، ٧ : ٩)؛ لم يكن هناك أوضح من هذه الوصية، الصريحة، للتشديد على قداسة كل مايتعلق بخدمة العلى؛ ولم يكن هنالك أوضح من التعليل الذى اقترنت به؛ على أن هذه الوصية أهملت مع غيرها. وعمل الترتيب على أن يحمل التابوت، على عجلة جديدة، يسوقها أبناء أبيناداب؛ لم يسمح الله بأن يتغاضى عن هذه الغلطة، وإن كان الفلسطينيون قد استخدموا عجلة كهذه، دون أن يقتص الله منهم؛ فتلك لأنهم تصرفوا بجهل؛ أما أن يتغاضى إسرائيل، عن هذه الوصية المكررة فى الناموس، ويتصرفوا بحسب هواهم، فذلك ما لا يسمح به الله، لئلا يهملوا سائر وصايا الناموس، فيصبح الناموس لا قيمة له.

سارت الثيران، وسط أصوات الغناء والهتاف، ولم يحدث شئ فى الميلين الأولين، حتى أتوا إلى طريق غير معبدة، فانشمصت الثيران،[١] وكاد التابوت يسقط على الأرض، حينئذ، تقدم عُزَّة أصغر أبناء أبيناداب، الذى ربما يكون قد أَلِفَ خدمة التابوت- ومد يده ليعدل التابوت، فوقع ميتا.

كان هذا المنظر رعبا لكل الجماعة؛ وللحال، وجم الجميع، وكفوا عن الغناء، وامتلأت قلوبهم رعبا وفزعا، إذ سرعان ما سرى الخبر إلى الصفوف الخلفية، واغتاظ داود جدا، وخاف من الرب فى ذلك اليوم، وقال: كيف يأتى إلى تابوت الرب، ثم أشار بأن يودع التابوت فى بيت عوبيد ادوم، وهو لاوى، وكان يسكن بالقرب من مكان الحادثة، وهناك بقى ثلاثة أشهر، وعادت الجماهير إلى أورشليم، وقد امتلأت قلوب الجميع، خوفا وذعرا.

يظن البعض أن موت عزيا، عمل قاس جدا من الله بلا مبرر، وقصاص مريع لخطية لم ترتكب، إلا عن طريق الجهل؛ ولكن، يجب أن لا يغيب عن البال، أن الطاعة الكاملة للناموس القديم، كانت أمرا محتما، فى ذلك الموقف الدقيق، فلو سمح للإنسان بالاستهانة بإحدى وصاياه، لجاء الوقت للاستهانة بكل وصاياه، وانعدمت غايته الرئيسية.

(٢) أكتاف الأحياء :

«وبارك الرب عوبيد أدوم وكل بيته»، يقرر يوسيفوس أنه منذ اللحظة التى استقر فيها التابوت تحت سقف عوبيد، غمره سيل جارف من البركات، حتى أنه انتقل من حالة الفقر والعدم، إلى حالة السعة والثراء؛ وهذه علامة واضحة، على أن الرب لا يغضب على الذين يطيعون النواميس والأحكام الموضوعية فى الناموس القديم.

وفى نفس الوقت، طلب داود الإرشاد من الله، لنقل التابوت، وقال: «ليس لأحد أن يحمل تابوت الله إلا اللاويين، لأن الرب إنما اختارهم لحمل تابوت الله ولخدمته إلى الأبد». (١ أى ١٥:٢).

وهنا، احتشد جمهور غفير مرة أخرى، وفى هذه المرة، روعى تنفيذ الوصية بكل دقة، «وحمل بنو اللاويين التابوت كما أمر موسى حسب كلام الرب بالعصى على أكتافهم» (١ أى ١٥:١٥)، وسار فى الموكب، اللاويون، والكهنة بملابسهم البيضاء، وكانت تسمع أصوات

---

[١] حرنت.. (مكتبة المحبة).

الهتاف، وأصوات الأصوار، والأبواق، والصنوج، والرباب، والعيدان، وسار أيضا، رؤساء الألوف، والشيوخ، وجمهور إسرائيل، حسبما يناسب المقام؛ وإذ رأى داود هذا المظهر الرائع، انتعشت روحه ، وامتلأ قلبه غبطة، كأن نفسه تردد صدى صوت نغمة موسيقية، شجية؛ وإذ كان لابسا أفودا من كتان، كان يطفر، ويرقص، أمام الرب.

وهكذا، أدخلوا تابوت الله، وأقاموه في موضعه، وسط الخيمة التي نصبها له داود، وقدم داود محرقات، وذبائح، سلامة أمام الرب، ثم التفت، وبارك الشعب، باسم رب الجنود، ووزع عليهم خبزا، وخمرا، وأقراص زبيب.

أما السحابة القاتمة الوحيدة، التي كدرت صفو ذلك اليوم الجميل؛ فكانت كلمات ميكال القارسة، التي لم تكن تعطف على ديانة زوجها. يا لها من امرأة تعسة؛ لعلها كانت لا تزال متحسرة على فلطيئيل، زوجها السابق (٢ صم ٣:١٥و ١٦)، ولعلها كانت تغار من استغناء داود عنها، وعن بيت أبيها؛ ولهذا، كان حديثها يقطر سما للرجل الذي أحبته، والذي أنقذت حياته يوما ما.

(٣) ثلاثة مزامير رائعة :

وفي هذه المناسبة، وضع داود ثلاثة من أسمى مزاميره، هي: مز ١٥، ٦٨، ٢٤.

أما مز ١٥، فإنه وضع ليشير مباشرة إلى موت عُزَّة، ثم إجابة لهذا السؤال:

من ينزل في مسكنك؟

من يسكن في جبل قدسك؟

أما مز ٦٨، فقد أنشد كتسبيحة احتفالية؛ إنه بالصيغة القديمة، التي كانت ترددها الجماعة في البرية، كلما نصبوا خيمة الاجتماع.

يقوم الله، يتبدد أعداؤه

ويهرب مبغضوه من أمام وجهه

وبينما كان التابوت يتقدم في موكبه الفخم، كانت تسمع نغمات الآلات الموسيقية، مُذكِّرة بالأيام السالفة التي كان الرب يسير فيها أمام شعبه ويتقدمهم في القفر، فارتعدت الأرض، وقطرت السموات أيضا أمام وجهه. (ع ٨).

وكلما ازداد اللاويون حاملو التابوت اقترابا في صعودهم إلى حصن صهيون، الذي

هو دونها في الارتفاع؛ وبينما كان المحفل يصعد على سفح الجبل، كان المغنون ينشدون الأغاني، والتسابيح المنقطعة النظير، الأمر الذي كان يرمز إلى صعود المسيح نفسه - الذي هو فوق كل رياسة وسلطان، إلى حضرة أبيه. (ع ١٥-١٨).

صعدت إلى العلاء، سبيت سبيا
قبلت عطايا بين الناس
وأيضا المتمردين للسكن أيها الرب الإله

بعد ذلك، يذكر المرنم تعداد الجمهور العظيم، الذي تكون منه هذا الموكب الحافل: (ع ١٧) «ومن قدام المغنون، من وراء ضاربو الأوتار، في الوسط، فتيات ضاربات الدفوف» ونساء كثيرات، يذعن الأخبار، «بنيامين الصغير، ورؤساء يهوذا، ورؤساء زبولون، رؤساء نفتالي». وأخيرا يتطلع المرنم من بعيد، فيسبق، ويرى مجئ الأمم البعيدة، إلى ذلك المكان المقدس:

يأتي شرفاء من مصر
كوش تسرع بيديها إلى الله

أما مز ٢٤، فهو تاج هذه المزامير الثلاثة؛ إنه يبدأ بفكرة سامية، وعقيدة عجيبة، بالنسبة لفكر اليهودي العادي، الضيق، المحصور:

للرب الأرض وملؤها
المسكونة وكل الساكنين فيها

في النصف الأول من هذا المزمور، نجد الإجابة على السؤال الذي فيه يتساءل المرنم، عمن يقوم في موضع قدس الله ع ٣-٦؛ هو: «الطاهر اليدين، والنقي القلب، الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل، ولا حلف كذبا». إن مجرد الاغتسالات، أو المراسيم الظاهرية، لا تكفي؛ ولكن ما يطلبه هذا الإله القدوس، هو البر، الذي يعطيه هو وحده للذين يطلبونه، ويلتمسون وجهه.

أما النصف الثاني، فيعلن رضا الله للسكن مع الإنسان على الأرض. إن الأبواب الواطية - التي ربما يكون قد خرج منها ملكي صادق، لتحية إبراهيم - بدت غير مرتفعة الارتفاع الكافي لدخول التابوت محمولا على أكتاف اللاويين؛ فيصدر إليها الأمر، بأن ترتفع، وتنفتح للملك الداخل؛ وبأصوات قاصفة كالرعد - مع الآلات الموسيقية - صرخ المغنون، وهم

وقوف أمام الأبواب المغلقة، قائلين:

ارفـــعن أيتــهــا الأرتاج رؤوسـكن

وارتفــعن أيتــهـا الأبـواب الدهريات

فـــــيــــــدخل مـلـك المجــــــد

فينبعث صوت وحيد من الداخل، كأنه صوت حارس مذهول:

مـن هـو هـذا مـلـك المجـــــــــد؟

فيسرع الواقفون من خارج، ويجيبون بقوة وتأكيد:

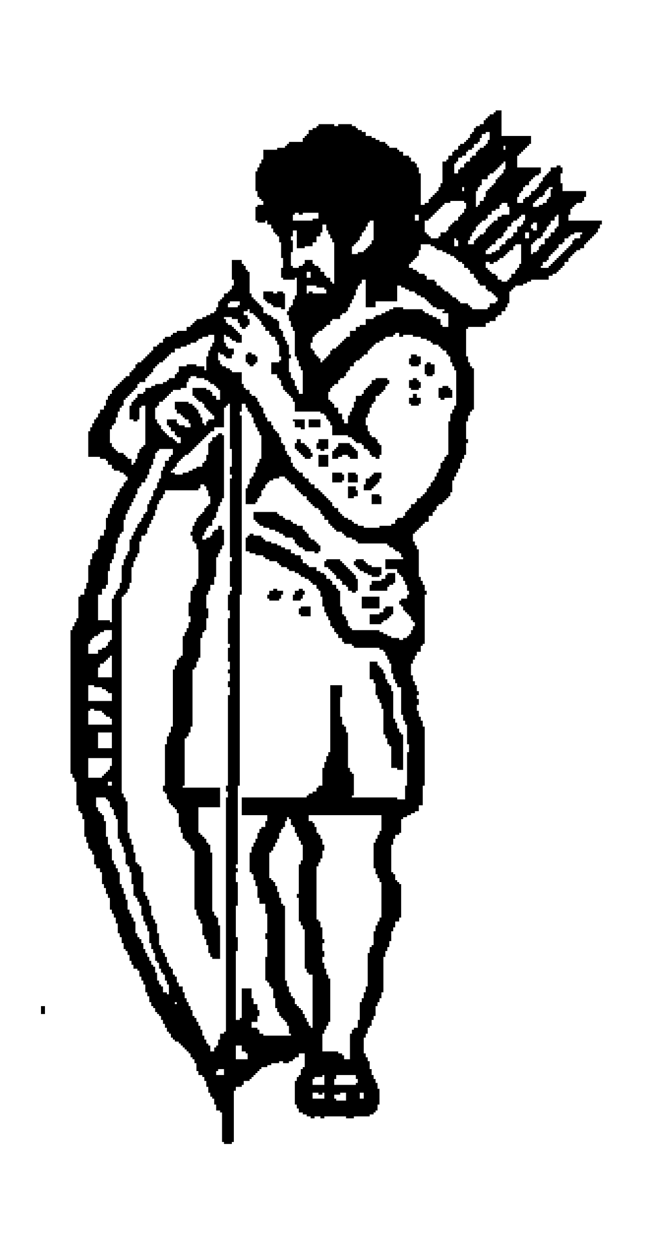
الـرب القـــــدير الجـــبـــــار

الرب الجـــبـــار فـى القـــتـــال

ثم يكرر طلب الفتح، كما يكرر السؤال.

وأخيرا، تكرر الإجابة الرائعة، بأن:«ملك المجد»، الجدير بدخول هذه المدينة القديمة التى سكنتها الشياطين، وكانت وكرا لكل طير نجس، هو«رب الجنود»، الذى تخضع له كل الملائكة والشياطين، وكل الكائنات الحية فى السماء، وعلى الأرض، وتحت الأرض.

وهكذا، استقر أخيرا فى موضع راحته.



الفصل الثالث والعشرون

«أحسنت بكون ذلك فى قلبك» (٢صم ٢،٧ أى ٦ :٨)

هنالك قـاض يعطى حسـبـما يستـحق الإنسـان
وهو بنظره الثـاقب ينظر إلى كل قـصـد نبـيل
بنفس النظرة التى ينظر بهـا إلى كل عـمل جليل
ويقـدر كل فضيلة ويجـزيهـا الجـزاء الجمـيل

وردز ورث

بمساعدة حيرام، ملك صور، شيد قصر من الأرز لداود، على جبل صهيون. لم تكن هنالك أية مقارنة بينه وبين مخبئه فى مغارة عدلام؛ بل بينه وبين أى منزل سكنه فى حبرون؛ ويا لها من هوة سحيقة أيضاً! بينه وبين المسكن المؤقت، الذى أقامه داود لتابوت العهد. وفى أحد الأيام، باغته شعور مفاجئ، بأن يعمل على تحقيق غرض طالما فكر فيه فى قلبه فى كل الأيام الماضية؛ وإذ دعا ناثان النبى - الذى يذكر اسمه هنا لأول مرة - أعلن إليه قصده فى بناء بيت الله.

رحب النبى - لأول وهلة - بهذه الفكرة، لكنه فى هدوء الليل،إذ كان أكثر اقتدارا على تفهم فكرة الله، جاءته كلمة الرب، آمرة إياه بإيقاف الملك عن اتخاذ أية خطوة فى هذا السبيل.

وفى اليوم التالى، تقدم بالخبر إلى داود بكل رقة ولطف؛ والواقع، أنه يتعذر علينا العثور على العبارة التى تتضمن الرفض المباشر فى كل حديثه مع الملك؛ ولكن الحديث، يلخص إجمالا فى رفض المشروع، ولكن الرفض كان مطويا فى تأكيدات كثيرة للبركة ومواعيد وفيرة وبركات كثيرة، حتى أن الملك لم يشعر بشئ من مرارة الرفض والفشل، بسبب السرور العظيم الذى غمرته به كلمات ناثان: «أأنت تبنى بيتا لله؟ هو يبنى لك بيتا».

(أ) فكرة سامية عن غرض نبيل:

كانت فكرة سامية، تلك التى خطرت ببال داود، لقد دعت إليها ضرورة الموقف؛ فإنه بعد

نقل التابوت إلى مقره الجديد، عين آساف وغيره «لأجل التذكير، والشكر، وتسبيح الرب» والخدمة أمامه» (١ أى ١٦:٤-٣٧). ويقال إنه فى ذلك الوقت، رتب نظام خدمة أربع وعشرين فرقة من الكهنة، وظل هذا النظام ساريا حتى مجئ الرب يسوع. ويقال أيضا إنه رتب نظام خدمة اللاويين: أربعة وعشرون ألفا لمساعدة الكهنة، أربعة آلاف كمغنين وموسيقيين، وأربعة آلاف كحراس ورقباء، بينما وزع الباقون فى كل أرجاء البلاد لتعليم الناموس، وإجراء العدل ، وإتمام بعض خدمات عامة أخرى. وهكذا التف جمهور غفير حول التابوت والقصر، فكان من اللازم إيجاد مركز مناسب لهم؛ وهذا بلا شك، كان من ضمن العوامل التى دفعت داود للتفكير فى إتمام غرضه، على أنه كان هنالك يقينا سبب أعمق، هو إظهار محبته لله، وإقامة شاهد ثابت على ولائه واحترامه وشكره الدائم لله.

هكذا، تجيش فى صدر كل مؤمن - خصوصا فى فجر الحياة - آمال كبار، وتتمثل أمامه المثل العليا، التى تنير المستقبل بنورها الكامل، وتقطع العهود الوثيقة لخدمة الله والإنسان، وتستنير كل نواحى الحياة، وتسمو إلى أعل عليين. قد يعتزم هذا الشاب - سرا - أن يكرس حياته لخدمة الله ككاهن أو واعظ أو فى أية ناحية أخرى، أو تفكر تلك الفتاة، أن تكون ملكة فى بيتها النموذجى، أو تكرس حياتها للخدمة العامة. كثيرا ما يقطع المرء فى بداية الحياة، أوثق العهود على نفسه بالقيام ببعض الخدمات الجليلة، غير حاسب حساب التضحيات والدموع والدماء. إن السماء تطلق الصوت عاليا، وتدعو كل نفس لأعمال مجيدة؛ وعندما تتطلع النفس بعين الرجاء إلى المستقبل المزدهر، ينجيها الرب من الانحدار إلى الأعمال الوضيعة، والغايات المتسفلة.

أيها الشباب، لا تتخلُّوا عن مثلكم العليا ولا تتصرفوا بما لا يتفق معها، وفوق كل شئ؛ عندما تأتون إلى بيت الأرز، ويريحكم الله، منطقوا احقائكم، باذلين كل جهد لتحقيق الغرض الذى فكرتم فيه إذ كنتم ترعون غنم أبيكم.

(٢) ليس محتما أن يتحقق المثل الأعلى على الدوام:

لم تخرج كلمة الرفض صراحة من شفتى الله الرقيقتين؛ فهو يغمرنا بمواعيده وبركاته، ويكشف لنا عن محبته التى تغطى الرفض؛ وما حدث مع داود، قد يحدث معنا أيضا، إذ لا نستطيع أن نتحقق ساعة الرفض أو كلمة الرفض، ولكننا نتتبع حديثه العذب، جملة بعد جملة، كل أيام حياتنا الطويلة، المغمورة بعنايته الإلهية، وخيراته العميمة؛ وفى

أوقات الهدوء، إذ نتأمل فى أعمال عنايته معنا، ندرك أن آمالنا لن تتحقق بالطريقة التى كنا نفكر فيها.

إن روح الحياة، تدب فى النبات؛ ومع ذلك، فقد تمر الأيام دون أن تزهر الزهور؛ والصورة التى ستبقى خالدة، لا تزال ترسم، والسِّفر الذى يحل مشكلة الدهور، لايزال يدون، وأغنية الدهور، لا تزال تنشد؛ والشاب لا يزال فى عمله العالمى، بدلا من اعتلاء المنبر، والفتاة تشيخ دون تحقيق آمال صباها، والمالك يترك لابنه بناء البيت.

(٣) والله يفسر الأسباب فيما بعد:

ما لا نعرفه، سوف ندركه فيما بعد. بعد هذه الحادثة بسنوات، قال داود لسليمان ابنه: «كان كلام الرب إلىَّ قائلا: «قد سفكت دما كثيرا، وعملت حروبا عظيمة، فلا تبنى بيتا لاسمى، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى» (١ أى ٢٢:٨). لا يليق باليد التى تلوثت بالدماء، أن تقيم هيكل السلام. لو أن هذا السبب كشف لداود فى وقته، لجرح إحساسه بلا مبرر؛ ولذا، فقد كان كافيا أن يستتر الرفض فى وعد بالبركة. على أن سبب الرفض، كان يزداد وضوحا أمامه بمرور السنين؛ وفى نفس الوقت كان داود يصبر نفسه قائلا: لابد أن يكون هنالك سبب فى نظر الله، إننى لا أستطيع إدراكه، لكنه لابد أن يكون للخير.

سوف يأتى حتما، ذلك اليوم الذى ندرك فيه، أسباب كل رفض قوبلنا به فى مجرى الحياة الطويلة؛ إنه لا يتأخر عن أن يكشفها لنا لو استطعنا أن نحتمل، ولكن، خير لنا أن لا نحاول فحص أسرار أعمال عنايته؛ هو يحصن أسئلتنا، قائلا: «إن كنت أشاء أنه يبقى فماذا لك» (يو ٢١:٢٢)؛ ولكن سوف يجئ الوقت، ربما فى هذه الحياة، ويقينا فى الحياة الأخرى، حينما تصير إلينا كلمة الرب، وإذ نتطلع من فوق قمة السنين، تتضح لنا مبررات أعماله معنا.

(٤) والغايات التى لم تحقق، قد تحمل بركات غزيرة:

يكمل لنا سليمان الرواية: «فقال الرب لداود أبى، من أجل أنه كان فى قلبك أن تبنى بيتا لاسمى، قد أحسنت بكون ذلك فى قلبك». لقد أحسن داود صنعا، لأنه عبر تلك الغاية السامية التى وضعها نصب عينيه. ولقد تركت هذه الغاية أثرا دائما فى حياته، وأنارتها بضيائها الوهاج. لا شك فى أن الشاب الذى يطلب الالتحاق بأى عمل تبشيرى، ويرفض

طلبه؛ أسمى من أولئك الذين لم تخطر ببالهم تلك الخدمة قط. والزهور التى تتطلع إلى الأيام السعيدة التى تتفتح فيها؛ تثبت بذلك أنها من فصيلة أمجد من الطحلب الذى ينمو بجوار المستنقعات. «قد أحسنت بكون ذلك فى قلبك».

وشهداء سفر الرؤيا، رأوا يوما سوف ينتقم فيه من المظالم التى وقعت عليهم، ولكنهم قيل لهم أن ينتظروا، لأن الوقت المحدد من قبل الله لم يحن بعد؛ وفى نفس الوقت، أعطيت لهم ثياب بيضاء (رؤ ٧:٩-١١)؛ وإن كانت غايتهم لم تتم، لكنها طهرتهم ، وزادتهم اتصالا بالمسيح.

إن الله سوف يجزينا بمقدار ماكان فى استطاعتنا فعله؛ لو أتيح لنا ذلك. فمن كانت فى قلبه فكرة الخدمة التبشيرية، عد فى نظر الله، ضمن جماعة المبشرين المباركين، ولو كان لا يزال جالسا على كرسى العمل العالمى. وامرأة صرفة، التى لم تفعل أكثر من إشراك النبى فى وجبتها الأخيرة؛ سوف تعطى أجر نبى؛ والنفس التى تجيش فى صدرها الآمال العظيمة التى تعوق إتمامها، كالعناية بالأرامل، أو الأقرباء، سوف تدهش يوما ما، إذ تجد أنه قد أضيف إلى حسابها نفس المحصول الذى كان ممكنا أن تحصده، لو أن تلك البذور ألقيت فى تربة أكثر مناسبة. وفى المجد، سوف يجد داود، أنه قد أضيف لحسابه جزاء بناء الهيكل على جبل صهيون.

(٥) تتم الخطوة التالية:

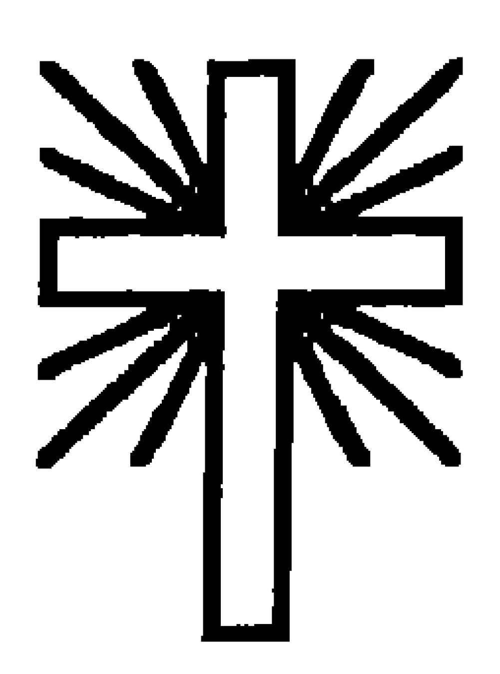
على أن المجهود الذى كان ينتظر بذله فى بناء الهيكل؛ تحول إلى جمع المواد اللازمة لبنائه؛ «وأنا بكل قوتى هيأت بيت الرب إلهى الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب الخ» (١ أى ٢:٢٩ الخ). إن كنت لا تستطيع إتمام كل ما كنت ترجو، فلا تجلس يائسا حائرا، ولا تدع نشاطك ومجهوداتك تتبدد؛ بل قم، وشد حقويك لمساعدة الآخرين فى إتمامه. إن كنت لا تستطيع البناء، فإنك تستطيع أن تجمع المواد لمن يقدر أن يبنى؛ إن كنت لا تستطيع النزول إلى قاع المنجم، فإنك تستطيع أن تمسك الحبال لمن ينزل.

هناك حقيقة فى عالم الطبيعة، تدعى ناموس حفظ القوة. إن قوة هبوط الحجر الساقط من أعلى، التى تتولد من تراكم سرعة انحدار الحجر، تتحول إلى حرارة، يستبقى الحجر جزءا منها، والباقى ينتقل إلى الجو. إن الآمال الحقيقية المخلصة، لن يمكن أن تكون

عديمة الثمر، ولكنها لابد أن تنتفع منها البشرية بأى حال من الأحوال؛ والدموع التى تسكب، لن تضيع هباء، والصلوات التى ترفع لن تخيب، والتفكير الطاهر النزيه، لن يذهب هباء منثورا.

إن الله لابد أن يجد أية طريقة يجمع بها أجرنا على نوايانا، إنه غمر حياة داود ببركاته. كان الوعد الذى أعطى على يد ناثان، مثلث الأركان: (١) أن يملك بيت داود إلى الأبد، (٢) أن نسل داود يبنى البيت، (٣) أن تتثبت مملكة إسرائيل (٢ صم ٧:١٢و١٣). ونحن إذ نقرأ هذه الكلمات الرائعة، نشعر بأنها لا يمكن أن تتحقق إلا فى ذاك الذى صرح عنه بطرس:أن داود سبق فرآه (أع ٢: ٣٠و٣١). لن يمكن أن يوجد بين البشر سوى واحد يدوم ملكه، وتثبت مملكته إلى الأبد، يمنح راحة للبشرية المتعبة، ويبنى هيكل الله الحقيقى؛ ويا له من شرف رفيع ناله داود، أن يكون المسيح «ابن داود».

حينئذٍ، «دخل الملك داود وجلس أمام الرب وقال من أنا ياسيدى الرب» (٢ صم ١٨:٧). نحن لا نستطيع أن نجد كلمات تعبر عن حالته النفسية فى تلك الساعة الرهيبة. إنه لم يتظلم من عدم إتمام رغبة قلبه؛ فقد كانت تغمر نفسه ينابيع متدفقة من المجد الأسمى؛ هل يمنح الله القليل دون أن يمنح الكثير؟ هل يرفض المشروع الذى نقدمه دون أن يمنح بركة سماوية تغنى حيانا إلى الأبد؟ احصر ثقتك فيه، اجلس أمامه، واجعل تعزيتك فى مواعيده، ثق بأنه لابد أن يفعل كما تكلم، وتأكد بأنه لا يمكن أن يسقط شئ واحد من الخير «عوضا عن النحاس آتى بالذهب، وعوضا عن الحديد آتى بالفضة، وعوضا عن الخشب بالنحاس، وعوضا عن الحجارة بالحديد، وأجعل وكلاءك سلاما، وولاتك برا، لا يُسمع بعدُ ظلم فى أرضك، لا تكون لك بعد الشمس نورا فى النهار، ولا القمر ينير لك مضيئا، بل الرب يكون لك نورا أبديا، وإلهك زينتك» (١ ش ٦٠:١٧-١٩).



الفصل الرابع والعشرون

«قد أقمت ملكى» (٢صم٨، ١ أى ١٨، ١٩، ٢٠)

توجــوه، فـــهـــو رب الســمـــاء
الـذى يملـك على العــوالم الســمـــاوية
توجـــوه، فـــهـــو الملـك الذى أطـلق عليـــه
ذلك الاسـم العـــجــيـب «مــحــبـــة»
تـوجـــوه بـأكـــاليـل كــثــيـــرة
بقـــدر الأكــاليـل الـتى تجــثـو أمــامـــه
توجــوه أيهـــا الملوك بـأكـــاليـل كــثــيــرة
فـــهـــو ملـك جـــمــيــع الملـوك

جودفرى ثرنج

إن وقت الراحة الذى جاء عقب نقل التابوت، قد داهمته كثير من السحب القاتمة بسبب نشوب حروب عنيفة؛ فقد انقضت الأمم المجاورة على داود، الواحدة تلو الأخرى، إما منفردة أو مجتمعة. «عجت الأمم، تزعزعت الممالك» (مز ٤٦:٦).

الفلسطينيون:

قاموا للمرة الأخيرة، أما داود، فقد «ضربهم وذللهم وأخذ زمام القصبة من يدهم» أى انتزع من يدهم زمام عاصمة بلادهم (٢ صم ٨:١).

الموآبيون:

إن المحالفة المتوارثة، بين ملك العبرانيين، وجيرانه الثائرين (الموآبيين)، التى بدأت منذ عصر راعوث، لم تكف لكبح جماح هؤلاء الموآبيين؛ وقد صدرت إلى بناياهو الأوامر ليجرد حملة ضدهم، فكانت موفقة، حتى وقعت جيوشهم فى يده، فأفناها كلها بحسب عادة ذلك الزمن، ولم ينج منهم إلا الثلث «قاس بحبلين للقتل وبحبل كامل للاستحياء» (٢ صم ٨:٢).

الآراميون:

انتصر داود انتصارا كليا على ملك صوبة والآراميين الذين فى دمشق، ووقعت فى يد داود غنائم كثيرة من الذهب والنحاس، وامتدت حدود إسرائيل حتى نهر الفرات (٢ صم ٨:٣-٨)، وبذلك، تم الوعد القديم الذى وعد الله به إبراهيم «لنسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تك ١٥:١٨).

الأدميون:

بينما كان داود منشغلا فى الشمال، أغار الأدميون على يهوذا فى الجنوب، فأوفد أبيشاى ليجرد حملة ضدهم، وهذا التقى بهم على الشاطئ الغربى للبحر الميت، وقتل منهم ثمانية عشر ألفا فى وادى الملح؛ وأخضعت البلاد كلها تدريجيا حتى «بترا» العاصمة الصخرية، وأبيدت كل العائلة الملكية، عدا «هَدَدَ» الذى شق طريقه إلى مصر.

العمونيون:

لما أرسل داود إلى «حانون» رسلا لتعزيته فى وفاة أبيه، أساء إليهم إساءة بالغة (١ أى ١٠:١-٤)، ولما أدرك حانون أن داود لابد أن ينتقم منه انتقاما مروعا، صنع تحالفا عظيما مع بعض الشعوب المجاورة للهجوم على داود؛ بلغت القوات المتحالفة، اثنين وثلاثين ألفا، عدا المركبات، والخيول؛ ولم يكن ممكنا لداود أن يقاومهم إلا برجاله المشاة، لأن التشريع الموسوى كان يحرم استعمال الخيل؛ كانت ساعة خطيرة فى حياة داود، استدعت أن يستجمع يوآب كل قواه. على أن يد الله تدخلت فى الأمر، وأحرز شعبه نصرة عظيمة، فقد اكتسح إسرائيل بلاد الأعداء، وسقطت «ربة»، وهى العاصمة،فى يد داود، واستعمل الغزاة المناشير، والسهام، والفؤوس؛ ربما لإعداد المواد اللازمة لإنشاء بعض الأعمال العامة، وربما لتهيئة ما يلزم لبناء الهيكل نفسه.

كانت سنوات الحروب هذه، باعثة على تأليف بعض من أسمى مزاميره التى منها. (مز ٢و ٢٠و ٢١و ٦٠و ١١٠.

(١) العدو :

«ارتجت الأمم، تفكر الشعوب فى الباطل، قام ملوك الأرض، وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه»؛ وفى الكلمات التالية، نسمع صدى مؤامرتهم من غرفة مشورتهم:

«لنقطع قيودهما، ولنطرح عنا ربطهما».

إنهم يتكلمون على المركبات والخيل، وملوكهم يتوهمون أنهم بكثرة جيوشهم ينتصرون؛ إنهم يبعثون رعبا فى قلوب إسرائيل، فتتزلزل الأرض، كأن الله قد مزقها، والشعب يشربون خمر الترنح والظلام؛ لقد كان هجومهم مخيفا، وعددهم مروعا، حتى بدا أنه «باطل خلاص الإنسان».

هذا ما حصل فى كل عصور تاريخ شعب الله؛ إن الشيطان الذى يحاول على الدوام سحق عقب نسل المرأة، «فى العالم سيكون لكم ضيق»، «هو ذا إبليس مزمع أن يلقى بعضا منكم فى السجن لكى تجربوا، ويكون لكم ضيق عشرة أيام» (رؤ ٢:١٠). «ولما رأى التنين أنه طرح إلى الأرض اضطهد المرأة» (رؤ ١٢:١٣).

(٢) وجهة نظر الإيمان :

وبينما كانت صفوف الأعداء المرعبة ماثلة أمام الأنظار، سمح للملك البطل أن يرى غير المنظور، الأبدى؛ فلم ير فى وجه الله أى أثر للخوف، ولم يجد أى تغيير فى مقاصده من وجهة إقامة ملكه على جبل قدسه؛ ويظهر أن يوم هجوم العدو، اليوم الذى يحصل فيه على تأكيد جديد لبنويته لله، والذى يؤمر فيه بأن يطلب، فيعطيه الأمم ميراثا، وأقاصى الأرض ملكا له؛ وإذ يسبق، فيرى الحرب، ويسمع نغمات الوعد الإلهى، يعلو فوق اضطراب مخاوفه:

تحطمهم بقضيب من حديد
مثل إناء خزاف تكسرهم

وعند ترك أورشليم، يتوسل شعبه بأن يستجيب له الرب فى يوم شدته، يذكر تقدماته، ويرسل له عونا من قدسه، فيجيب هو:

الآن، عرفت أن الرب مخلص مسيحه
يستجيبه من سماء قدسه
بجبروت خلاص يمينه

وهو يعلم، أنه بمحبة القدير، لا يتزعزع، وأن يمينه تحطم أعداءه، وفى قوة إيمانه، يؤكد – إذ ينظر شرقا عبر الأردن – أن جلعاد، سوف يعترف يقينا بحكمه كما فعل افرايم ومنسى؛ وفى وثوقه التام بولاء يهوذا وسائر الأسباط، يحسب أن النصر لابد مكفول؛ موآب مرحضته، وأدوم يحمل نعله كعبد ، وفلسطين، ترتعب أمام هتاف الحرب؛ بل إن بترا «المدينة المحصنة» نفسها، سوف تقتحمها جيوشه.

وفى اطمئنان كامل، يرى النتيجة عن بعد، وهى أن الرب سوف يرسل قضيب عزه من صهيون، ويحطم فى يوم رجزه ملوكا؛ ويضع أعداءه موطئا لقدميه، حتى يستطيع فى كل الأيام التالية، أن يجمع بين وظيفتي الكهنوت والملك، كما فعل ملكى صادق فى نفس ذلك المكان منذ عدة أجيال. (مز ١١٠).

(٣) جنود الملك الكاهن :

إذ سرت إليهم عدوى، يبتهجون بخلاص الله، وباسمه يرفعون رايتهم، ويثقون أن الله – كرجل حرب – يخرج مع جيوشهم، ويدوس أعداءهم.

إنهم يتميزون بأنهم «شعب منتدب»، لا يندس خائن وسط صفوفهم، يلتفون بابتهاج حول الراية، كمحاربى دبورة، الذين ترنمت من أجلهم قائلة:«لأجل قيادة القواد فى إسرائيل، لأجل انتداب الشعب، باركوا الرب».

إنهم لا يلبسون الدروع، بل ثياب الكهنة البيضاء «فى زينة مقدسة»؛ وهى عبارة تدل على أن قيادة الحرب تركت لرجال الدين كجزء من عبادة الله.

إنهم كثيرو العدد، كنقط الطل التى ترصع العشب فى الصباح، فتبدو أوراق العشب كأنها مرصعة بالجواهر، وتنعكس منها أشعة النور، بجمال يفوق الوصف (مز ١١٠).

يا له من مثل أعلى؛ ذلك الذى وضعه داود نصب عينيه لجنوده؛ إذ يجب أن تتوفر فيهم البطولة، والطهارة، والحق، والعدل؛ هذه التى يجب أن يتحلى بها كل جنود المسيح.

(٤) النصرة الكاملة :

لن تستطيع جيوش الأعداء الثبات أمام هؤلاء الجنود المتسلحين بالأسلحة السماوية؛ الذين تهرب من حضرتهم أقوى الملوك. ومهما قوى الأعداء، «فإنهم جثوا وسقطوا»، سقوطا لا قيام بعده، صاروا «مثل تَنُّور نار»، فى زمان غضب الله، «الرب بسخطه يبتلعهم، وتأكلهم النار»، جثثهم تناثرت فى كل أرجاء ساحة القتال، «ملأ جثثا»، والأودية غصت بالقتلى.

وعند رجوع الجيش المنتصر، تاركا وراءه الخراب، حيث احتشد أعداؤه، تراه فى أغنياته يعبر عن شكره للقدير، مخلصه؛ واشترك المغنون، وضاربو الآلات الموسيقية، بنيامين ويهوذا، زبولون ونفتالى، فى الترنم بذلك النشيد الرائع:

الله لـنـا إلـه خــــــــــلاص
وعند الـرب السـيـد للمـوت مـخـارج
مـخـوفٌ أنـت يا الله مِن مـقـادسك
إله إسـرائيل هو المعطى قـوة وشـدة للشـعب

(مز ٦٨: ٢٠و ٣٥)

كل هذا يشير إلى مدى أبعد، فإننا نرى فى داود رمزا للمسيح. لأنه قد تآمر على يسوع، مسيح الله، كل من الأمم وشعوب إسرائيل، وتجمعوا معا. لقد رفض البشر ملك، ولا يزالون يرفضون ؛ أما الله، فقد أقسم، ولن يندم، أنه ستجثو له كل ركبة، ويعترف به كل لسان، وليست هنالك ذرة من الشك مطلقا؛ فى أنه بعد قليل، سوف تسمع «أصوات عظيمة فى السماء قائلة: «فىّ صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الآبدين».



الفصل الخامس والعشرون

خطية حياته (٢صم ١١- ١٩)

أخطأت يا أبتاه، وارتكبت الشر
الذى كنت أظن أننى لن أسقط فيه
لقد كانت كل أيام حياتى الماضية، منيرة
ولكننى جعلتها اليوم، حالكة الظلام.
وأقمت سحبا قائمة بينى وبين شمس البر

سبتيمس ساتون

لم يذكر كاتب سفرى أخبار الأيام، أية إشارة عن هذه اللوثة التى لطخت حياة داود؛ أما السفر الأقدم عهدا، (صموئيل الثانى)، فإنه يبسط هذه الحادثة بكل تفاصيلها ، دون أن يحاول تلطيفها، أو التماس المعاذير لداود فى ارتكابها؛ ولا شك فى أن الربح الذى يجنيه كل الخطاة التائبين من ذكر الحادثة؛ يفوق جدا، الخسارة التى لحقت بسمعة ذلك الرجل الذى شهد له بأنه وجد حسب قلب الله. هذه الإصحاحات، قد اطلع عليها ربوات، كادوا يبتلعون من يأس ظلمة الخطية، وجدوا ضياء النور الكامل، الذى يستطيع أن يرد النفس من ظلمتها القاتمة؛ «مغفورة لك خطاياك الكثيرة، اذهب بسلام».

(١) الظروف التى أدت إلى خطية داود :

إن طبع الملك الحاد الخيالى، هو الذى عرضه بصفة خاصة، إلى مثل هذه التجربة؛ ولكن، كان ممكنا لقوة كبح جماح النفس، التى تمتع بها فى كل أيامه الماضية، أن تتغلب – ولو لم يكن قد انتابه بعض التراخى، فى الاحتفاظ بأحقائه، والاحتفاظ بالزيت فى مصباحه.

لقد ظل سبعة عشر عاما، متمتعا بالنجاح الدائم الذى لا تشوبه آثار الفشل؛ موفقا فى كل موقعة حربية، يزداد إعجاب رعيته به، ومدحهم إياه فى كل المناسبات الخطيرة؛ولكن هذا النجاح، كان محفوفا بالخطر، فالمرء يخشى برودة الجبال الشامخة، أقل مما يخشى حرارة السهول المنبسطة.

يخبرنا الكتاب المقدس، صراحة، أن داود بعد أن استقر كرسيه فى أورشليم؛ اتخذ لنفسه نساء وسرارى كثيرات، متعديا بذلك شريعة موسى الصريحة، التى كانت تحذر ملوك العبرانيين من تعدد الزوجات؛ لئلا «يحولن قلوبهم». وبذلك حصد داود ما لابد أن يحصده من مرارة الغيرة، والحسد، والمنازعات، والجرائم، التى لابد أن تسببها النساء؛ وفضلا عن ذلك، فقد أدت كثرة النساء، إلى أن تغرس فيه عادة الانغماس فى الشهوات الجسدية؛ التى هيأت لسقطته الشنيعة، فى مساء ذلك اليوم الأسود.

ثم إنه سمح لنفسه بفترة من التراخي والكسل؛ الأمر الذى لا يتناسب مع روح أسد يهوذا الحربية؛إذ أوكل ليوآب وجنوده الأبطال، أمر الحرب حول أسوار ربة،أما هو، فقد لبث بلا عمل فى أورشليم. وعندما رفض أوريا الذهاب إلى بيته، بينما كان زملاؤه وتابوت الله فى ساحة الحرب؛ كان فى هذا توبيخ لداود فى حالته هذه.

وفى مساء يوم مشئوم، استيقظ الملك من قيلولته، وكان مستلقيا على سطح قصره؛ فى تلك الساعة؛ ساعة الراحة، والكسل، والخمول؛ جاءه ضيف، على حد تعبير ناثان، جاءته فكرة عاطلة؛ ولإشباع جوع ذلك الضيف، نزل إلى بيت رجل مسكين، وأخذ نعجته الوحيدة، بينما كانت حظائره مكتظة بالغنم. إننا لن نحاول التخفيف من خطية داود، بالتأمل فى اشتراك «بثشبع» فى الجريمة، بمطلق حريتها، أو فى حرصها على عدم الاضطجاع معه، إلا بعد أن تتطهر من طمثها؛ أو فى استهانتها بعهد الزوجية مع زوجها المتغيب. ومما هو جدير بالملاحظة، أن راية الكتاب المقدس تلقى كل مسئولية هذه الخطية على الملك وحده؛ لأن «بثشبع»، ربما تكون قد اضطرت للخضوع أمام سلطانه المطلق.

انغمس داود فى الشهوة برهة وجيزة؛ وماذا كانت النتيجة؟ ثلمت أخلاقه، ولم يعد فى الاستطاعة اصلاحها، زال عنه سلامه، تزعزعت أسس مملكته، غضب الله عليه، أعطيت فرصة عظيمة لأعدائه للتجديف والتعبير؛ فلنحذر كل الحذر من ساعات الراحة التى تقضى بلا ضابط حرص؛ ولحظات الفراغ، تُخشى عاقبتها أكثر من لحظات الكد والكفاح. إن سن الرجولة (لأن داود كان قد تجاوز الخمسين)، ليس محصنا ضد التجارب والأخطار التى تداهم الشباب. وإن خطوة واحدة خاطئة، تتخذ فى ركود الحياة الروحية، قد تتلف السمعة التى اكتسبت، بقضاء السنوات الطويلة فى الحياة الطاهرة، النقية.

وفى أحد الأيام، أتت إلى داود رسالة من شريكته فى الخطية؛ بأن النتائج لا يمكن إخفاؤها؛ وعندئذٍ، سرت فيه رعشة كالمحموم؛ كان ناموس موسى يقضى بموت الطرفين فى خطية الزنى. إذن؛ فكان لابد من اتخاذ إجراءات سريعة لإخفاء الجريمة؛ يجب أن يعود أوريا إلى بيته، وعاد فعلا، ولكن عودته لم يكن فيها علاج للأمر؛ فإنه رفض دخول بيته، رغم أن الملك أرسل إليه فى بيته طعاما شهيا من مائدته الخاصة فى تلك الليلة الأولى؛ وفى الليلة الثانية، أسكره؛ ولكن روحه العسكرية النبيلة، لم تسمح له الليلة، حتى بمجرد تحية زوجته، بينما كانت الحرب الشديدة قائمة.

لم يكن هنالك بديل من موته، (موت أوريا)، لأن الموتى لا يقصون الأخبار، فإذا ولد طفل، لا يبقى هنالك مجال بعد لأوريا ليتبرأ منه.

حمل أوريا رسالة إلى يوآب الذى ضحك فى داخل قلبه عندما فض هذه الرسالة، وقرأها؛ ولعله ناجى نفسه بهذه العبارة: «إن سيدى إذا ما أراد أن ينشد مزاميره، أطرب بها غيرى؛ أما إذا أراد أن يأتى عملا قذرا لجأ إلىّ؛ لست أدرى لماذا أراد أن يتخلص من أوريا!. وعلى أى حال، فإننى سأعينه على قضاء بغيته؛ وبعد ذلك، لن يستطيع أن يحدثنى مرة أخرى عن أبنير؛ ثم ستكون لى حرية التصرف، كما أشاء؛ لأنه سوف يكون فى قبضة يدى، من الآن فصاعدا».

وُضِعَ أوريا فى مقدمة المعركة الحامية؛ ليلقى حتفه. ومن ساحة القتال، أرسِلت رسالة إلى الملك، تحمل إليه البشرى بموت أوريا؛ وكان داود يظن أنه لم يعلم بالأمر أحد سواه، غير يوآب. ولعل «بثشبع» لم يدر بخلدها أن سقطتها؛ سوف تدارى بهذا الثمن الغالى«وندبت بعلها»، كما كانت عادة الزوجة العبرانية، وفى الوقت ذاته، هنأت نفسها بهذه المصادفة السعيدة، وبعد سبعة أيام، «أرسل داود وضمها إلى بيته».

توهم داود أنه بذلك، قد استراح وأمن كل العواقب؛ فالطفل، سوف يولد تحت ستار حالة زيجة شرعية. ولكن، يالها من كلمة مرعبة، نغصت على داود حياته، وأفسدت كل هذا الترتيب؛ «وأما الأمر الذى فعله داود، فقبح فى عينى الرب». لم تطو هذه الحادثة فى زوايا النسيان؛ بل كان لابد لداود أن يسمع عنها ثانية؛ ولابد للعالم من أن يطلع على تفاصيلها. ولكن، يا له من حزن مرير أن يسقط هذه السقطة، ذاك الذى طالما تحدث عن سلوكه فى بيته باستقامة قلب؛ والذى احتفظ بالعشرة الإلهية بكل قوته؛ والذى ترك وراءه حياة رائعة. كيف

سقط المرنم؟! الملك الإنسان، الذى اكتملت فيه كل صفات الرجولة؛ محب الله؟ كيف غاص فى الوحل، بانغماسه فى الرذيلة برهة وجيزة؟ آه! يا إلهى! هب لى أن أكمل طريقى فى الحياة، دون أن تتدنس بلوثة كهذه؛ هب لى أن أظل مرتديا الثوب الأبيض، وأن تظل حياتى بلا لوم، إلى النهاية.

(٢) توبة متأخرة :

كلما سمت حياة المرء، عظم الثمن الذى يدفعه للبرهة الوجيزة التى يقضيها فى الاستمتاع بالخطية. ظل ذلك الملك الخاطئ، محتضنا خطيته اثنى عشر شهرا، مغلقا شفتيه، رافضا الاعتراف بإثمه؛ ولكنه فى مز ٣٢، يبين لنا كيف كان شعوره خلال هذه المدة الطويلة. لقد بليت عظامه من زفيره اليوم كله، تحولت رطوبته إلى يبوسة القيظ، كما حصل فى إسرائيل؛ إذ لم يكن طل ولا مطر، ثلاث سنوات، استجابة لصلاة إيليا؛ وذبل كل أخضر من يبوسة القيظ، ويد الله ثقلت عليه نهارا وليلا.

وعندما استولى على «ربة»، عامل شعبها بمنتهى القسوة، كأنه مثقل بتوبيخ ضميره؛ يحاول أن يحول إلى الآخرين تلك القسوة، التى كان يجب أن يعامل بها نفسه. كثيرا ما نتخلص من الانتقام من أخطائنا الشخصية، بأن نعامل الآخرين وندينهم بمنتهى القسوة؛ نفس هذه الروح الشريرة، التى تلازم الضمير المتعب؛ هى التى دفعت داود ليصدر حكما قاسيا على ذلك الرحل الغنى، الذى أخذ نعجة جاره الفقير. كانت الشريعة الموسوية، تقضى برد أربعة أضعاف فى مثل تلك الحالة (خر ٢٢:١)؛ أما الملك، فقضى على الرجل بالموت.

ولا شك فى أن ظهور ناثان على مسرح هذه الرواية، هو الذى أصلح الموقف؛ فإنه بينما كان القصر الملكى مكتظا بالجنود، ورجال السياسة، شق النبى طريقه وسطهم بحق صداقته القديمة، وطلب مقابلة الملك مقابلة خاصة، ثم قص عليه رواية عن حادثة، كانت تبدو كأنها حقيقة تستحق العطف والإشفاق؛ لأن إساءة بالغة ارتكبت فيها؛ وللحال، اشتعل غضب داود على الرجل الذى ارتكب الإساءة؛ وحينئذ، فاجأه النبى بهذه الكلمات:«أنت هو الرجل»، فكشفت لداود نفسه فى مرآة الحكم الذى نطق به، ولم يستطع إلا أن يجثو على ركبته، وكانت هذه الكلمة كوميض البرق فى ليلة حالكة الظلام؛ تنير الطريق للمسافر فجأة، وتكشف له عن هوة سحيقة، كادت تسقط فيها قدمه. ذكَّره ناثان بالماضى، مؤكدا له بصفة خاصة، صلاح الله الذى لا يحد؛ وعندئذ، ازدادت خطيته قبحا وشناعة فى عينيه. إنك «قد احتقرت

كلام الرب، قد قتلت أوريا، أخذت امرأته؛ والآن، لا يفارق السيف بيتك، الابن المولود لك يموت،آخذ نساءك أمام عينيك لقريبك، فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس، أقيم عليك الشر من بيتك».

لم يستطع داود إلا أن يجيب بهذا الجواب الواحد: «أخطأت إلى الرب»، وتلا هذا الاعتراف ينبوع من الدموع السخينة؛ وللحال، هدأ قلبه الذى كان يحترق، ووجد راحة وعزاء. إيه أيتها الينابيع المباركة، التى تفتقدين النفوس الجافة، والأرض العطشة.

وحالما فارقه ناثان، أخرج اعترافه فى مز ٥١ «لإمام المغنين»، لكى يستعمله كل العالم، ويتغنى مع الآلات الموسيقية، إن أراد. فى هذا المزمور، نراه يعبر عما فى قرارة نفسه، من مرارة الخطية الواحدة، والمعاصى الكثيرة؛ الشر الذى صنعه قدام الله، بل ضد الله، كأنه لا يستطيع ذكر اسم أوريا فى نفس واحد؛ الاعتراف بالإثم الذى صور به، ألم العظام المنسحقة، شعوره بالقلب المدنس، خسارة بهجة النفس، خوفه من نزع الروح القدس منه، القلب المنكسر والمنسحق. من لنا بتلك الأنّات لطلب المزيد من مراحم الله، التى بدونها لن تمحى تلك الصحائف السوداء من سفر التذكرة، أو يطهر الثوب من أدناسه، أو يعاد جسد الأبرص إلى حالة الصحة والنقاء. أما الطلبات التى رفعها ذلك القلب الضعيف، المثقل بالخطية على مذبح الله، وكانت أفضل من المحرقات، والبخور العطر؛ فهى أن يصبح نقيا، إذ يطهر بالزوفا؛ أن يبيض أكثر من الثلج،إذ يغسل؛ أن يعود ويتغنى مرة أخرى، إذ ينجو من الدماء؛ أن يمتلئ بروح منتدبة بروحه القدس.

ولكن قبل أن ينطق بهذه الصلاة؛ وحالما اعترف بخطيته، قال له ناثان: «والرب نقل عنك خطيتك»، قبل مرور لحظة واحدة على اعترافه.

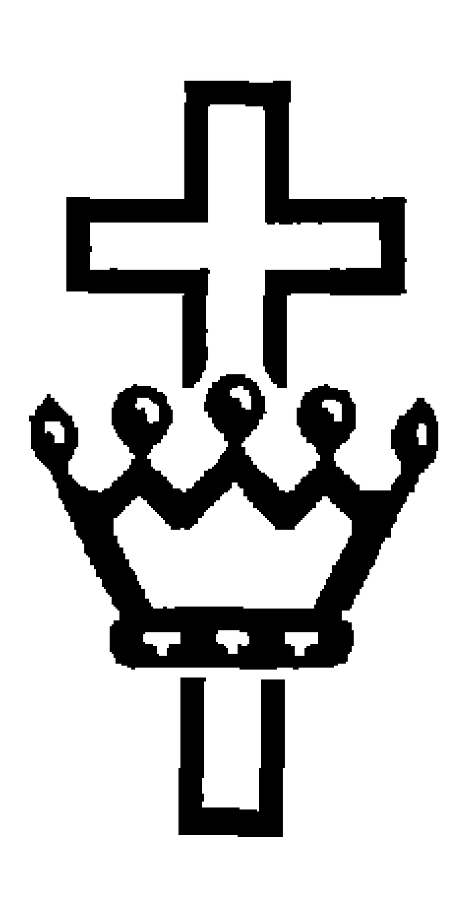
أعترف لك بخطيتى ولا أكتم إثمى
قلت أعترف للرب بذنبى
وأنت رفعت آثام خطيتى

مز ٣٢:٥

أيتها النفس التائبة: ثقى فى مغفرة الخطية بصفة مستمرة؛ ليس عليك إلا أن تعترفى بالخطية؛ وعندئذٍ، تجدين محبة الله قد أسرعت لضمك للأحضان الأبوية؛ وحالما تخرج كلمات

التوبة من شفتيك، تتلقاها مباشرة، تلك المحبة التى، وإن كانت تكره الخطية؛ إلا أنها لن تكف عن الحنين إلى الابن الضال.

الخطية مظلمة، خطرة، مهلكة؛ ولكنها لن تستطيع أن توقف تيار محبة الله؛ لن تستطيع أن تغير تلك المحبة، التى لا تبدأ بالأمس، بل تبدأ من الأزل؛ والأمر الوحيد الذى يستطيع أن يؤذى النفس؛ هو، كبت الاعتراف بالخطية داخل النفس؛ ولكنها، إن استطاعت الاعتراف بها، قائلة:« اللهم ارحمنى أنا الخاطئ من أجل الدم الذى سفك عنى»؛ فإنها تصبح مثل الثلج، نقية؛ مثل المياه وسط المحيط، التى لا تستطيع أن تلوثها أدناس أعظم مدينة؛ شفافة؛ مثل الأثير الأزرق، الذى هو ستر ظل القدير.



الفصل السادس والعشرون

ضربات بنى آدم[1] (٢صم ١٢- ١٩)

لا يمكن أن يتم عمل صالح أو طالح
دون أن يترك وراءه أثرا
مكتوبا بيد غير منظورة
ويخلف وراءه بركة أو لعنة

لونجفلو

قد تغفر الخطية، كما غفرت خطية داود؛ ورغم ذلك، تتبعها سلسلة من النتائج الأليمة؛ فإن الخطية لابد أن ينطبق عليها ناموس الأسباب، وتتلوها سلسلة الآلام المريرة، المتصلة الحلقات؛ على أن رحمة الله لأولاده الخطاة التائبين، لابد أن تظهر فى تحويل نتائج الخطية إلى نيران مطهرة، وفى تقديم سلامه الكامل إليهم، الذى يهون عليهم كل مصائبهم وآلامهم، وفى إيقاف مجرى الشر؛كل هذه الحقائق تتضح لنا جليا فى الصفحات التالية، التى تتحدث إلينا عن تأديبات الله؛ المسكنات، الإنقاذات.

أيتها النفس البشرية؛ هذه حقيقة خطيرة، يجب أن نستمع إليها؛ إنها تعلن لنا كيفية معاملة الله لأولاده، وكما عامل داود، سيعاملنا نحن أيضا. إنه سوف يغفر، ولكنه، قد يستعمل العصا؛ إنه سوف يشفق، ومع ذلك، قد يسمح لنا بشرب المياه المرة كالعلقم، التى دفقتها خطايانا. أيها العزيز؛ كن وديعا، صابرا، خاضعا؛ فإنك سوف تخرج من الامتحان نقيا، وسوف يتعلم الآخرون من اختباراتك الكثير عن لطف الله وصرامته، قد يحصد البشر مازرعوه، حتى ولو ظفروا بغفران خطاياهم.

(١) تاديبات الله:

مرض طفل «بثشبع» مرضا شديدا؛ وكان ابن الخطية والعار، ولكن الأبوين كانا متعلقين به. كانت الأم ترقبه سبعة أيام، والأب صام وافترش الأرض؛ إذ رأى مرض الولد، تألم

(١) ٢ صم ١٤:٧

أشد مما لو حل به هو شخصيا عشرة أضعاف هذا المرض؛ لأنه عندما يتألم الأبرياء من جرائمنا الشخصية، يشتد المصاب هولا، وفي اليوم السابع، مات الطفل.

وبعد سنتين، غدر أحد أولاده بأخته (ابنة داود)، كما غدر هو بامرأة أوريا. يقولون إن الإنسان لا يمكن أن يسمع صوته حتى ترديده آلة الفونوغراف؛ ويقينا، إن الإنسان لا يمكن أن يرى شرور نفسه، حتى تعود إلى الظهور في ابنه. لقد رأى داود شهوته الجامحة، في خطية أمنون؛ كما رأى جريمته (التي لوث بها يديه بالدماء) في قتل أبشالوم لأمنون بعد ذلك بسنتين. لم يكن ممكنا أن تحدث جريمة قتل أبشالوم لأخيه لو أن داود اتخذ إجراءات سريعة لقصاص أمنون؛ ولكن، كيف يستطيع أن يوقع القصاص لنجاسة ابنه، في الوقت الذي أعفى نفسه منه (لا ١٨:٩-٢٩)؛ كذلك لم يجرؤ أن يعاقب أبشالوم من أجل القتل، إذ تذكر أنه كقاتل، أعفى نفسه من قصاص هذه الجريمة.

وحالما تمرد عليه أبشالوم، سرعان ما قوبل هذا التمرد بالاستحسان من أخلص مستشارى داود، وهو، أخيتوفل، الذى لصق بأبشالوم، والذى كانت تعد مشورته كجزء من كلمة الله؛ وما الذى دفع بأخيتوفل إلى تيار هذه المؤامرة؟ الجواب تجده فى سلسلة الأنساب، التى تبين أنه كان جد «بثشبع»، وأن ابنه اليعام كان رفيق وصديق أوريا. [١]

يظن البعض، أن داود ضرب بمرض شديد فى ذلك الوقت؛ والمفروض أن المزمورين ٤١و ٥٥ يسجلان أنّاته وتوجعه، أثناء تلك السنوات المظلمة؛ فهما يصوران نفسه الذليلة، وقلبه الكسير، ويتحدثان عن أولئك الذين أحاطوا به، وهو «على فراش الضعف»، وينقلان إلينا حديثهم عن ذلك المريض.

أما أقسى التجارب التى عاناها وأخطرها؛ فكانت تمرد أبشالوم. لقد كانت طلعته البهية، وذكاؤه الفذ، وعطفه الظاهرى على متاعب الشعب، وآلامه التي يزيدها قسوة، بطء إجراءات الناموس، ومجده وأبهته - كل هذه؛ كانت تقوض أركان عرش داود، أربعة أعوام، وتستميل قلوب الشعب إليه، دون أبيه داود.

ولذلك، فإنه عندما بسط لواءه فى حبرون، ونودى به ملكا فى كل أرجاء البلاد، كان الشعب قد فقد ولاءه الأول لداود، ومحبته الأولى له - ولعل أخبار خطيته قد خيبت آمالهم فيه، وأبعدتهم عنه، فأسرعوا لتقديم ولائهم للملك الجديد.

---

(١) ٢ صم ١١:٣، ٣٤:٢٣

لا حاجة بنا للتأمل في الخطوات التالية: في تلك الأيام العاصفة؛ أي انزعاج الملك وهروبه «قوموا بنا نهرب لأنه ليس نجاة من وجه أبشالوم، أسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا» (٢ صم ١٥:١٤) وصعوده حافي القدمين على جبل الزيتون، وإجهاشه في البكاء، وسب شمعي إياه، بكل زراية واحتقار، وخيانة مفيبوشت الظاهرة، وإذلال زوجات داود، في عين الشمس، التي شهدت خطيته، والتفاف كل إسرائيل حول أبشالوم؛ متناسين العلاقات التي ربطتهم بداود، سنوات طويلة.

كانت هذه هي التأديبات التي أوقعها الآب السماوي بشدة، وبسرعة، على ابنه. كان يبدو للعين المجردة أن هذه التأديبات صادرة عن حقد الإنسان وغضبه؛ أما داود، فقد تطلع إلى أعماقها، وأدرك أن الكأس التي قدموها لشفتيه، كانت ممتزجة بواسطة السماء، وأنها لم تكن قصاصا من المنتقم الجبار؛ بل تأديبا من الآب.

بعد رواية المسيح، لا يوجد في الكتاب المقدس، أجمل من تصرف داود؛ إذ جاز وسط هذه الأشواك والمرائر.اسمعه يقول لصادق:أرجع تابوت الله إلى المدينة، فإن وجدت نعمة في عيني الرب، فإنه يرجعني ويريني إياه ومسكنه، وإن قال هكذا: إني لم أسر بك؛ فهأنذا، فليفعل بي حسبما يحسن في عينه». وعندما دعا شمعي «رجل الدماء»، بسبب تصرفاته مع بيت شاول؛ ولعله كان يشير إلى قتل أبناء رصفة حديثا، أو لعله كان يتهمه بجريمة قتل أيشبوشت؛ قال داود لأبيشاي: «دعوه يسب، لأن الرب قال له، سب داود، ومن يقول لماذا تفعل هكذا». وهكذا أيضا؛ عندما قدم يهوذا كأس العلقم إلى شفتي المسيح، قال: «الكأس التي أعطاني الآب لأشرب». فلنتذكر هذا الدرس، ولا ننسه قط؛ وهو، أن الآلام والأحزان قد تأتي إلينا عن طريق مؤامرات وخبث أختيوفل، أو شمعي،أو يهوذا؛ ولكن عندما يسمح الله بأن تصل، فإنها، إذ يصفيها بمصفاة دقيقة، تصبح إرادته لنا. وعندما نتطلع إلى وجهه، وندرك أننا لسنا هدفا للصدفة، أو سوء الحظ، أو هوى البشر؛ بل إن الله يعاملنا كبنين؛ وما لم تكن هذه التأديبات؛ فلنخش، لئلا نكون نغولا.

(٢) مسكنات الله:

لقد جاءته بطرق منوعة؛ فإن ساعة التجربة المرة، كشفت عن محبة أتباعه له، في الوقت الذي كان يخشى فيه، أن تكون قلوبهم قد ملأتها روح الجفاء، بسبب تقادم العهد به.

إن خيانة اخيتوفل مزقت أحشاءه. وفى المزامير السابق الإشارة إليها، يحدثنا عن شعوره فى هذا الصدد؛ لقد أبت عليه طبيعته الرقيقة الحساسة، أن يصدق بأن صديقه الذى وثق به، الذى أكل خبزه، رفع عليه عقبه؛ ولكن حوشاى الركى، جاءه إذ ذاك، وقد بدت عليه علامات الحزن، وارتضى – كصديق حميم له – أن يذهب إلى ابشالوم، لكى يكون له مشيرا، بذلك يبطل مشورة اخيتوفل (٢ صم ١٥:٣١-٣٧).

قد يسبه شمعى، أما أتاى، وهو رجل غريب، من جب، فإنه يحلف بالولاء له، هو وأولاده، سواء فى الحياة، أو فى الممات.

بقى صادوق وأبياثار مع التابوت، ونسيا حقدهما السابق، بسبب حزنهما العام من أجل سيدهما؛ وصيبا يقابله بفاكهة الصيف، مئة عنقود زبيب، ومئتا رغيف ... الخ (٢صم١٦:١). كذلك نرى شوبى، وماكير، وبرزلاى، يقدمون طعاما وافرا لشعبه الجوعان، والمتعب، والعطشان. (٢ صم ١٧:٢٧-٢٩)، كما نرى شعبه، يرجوه عدم النزول إلى الحرب هو شخصيا؛« لأن حياته ثمينة كعشرة آلاف منهم» (٢ صم ١٨:٣).

وكأن الله كان حالا حول عبده أثناء تأديبه، وعندما كانت الجلدات تمزق ظهره، كان بلسان جلعاد يسكب على الجروح الدامية؛ وكان صوت الله العذب، يهمس فى أذنيه، ويده الرحيمة، تمسك بيديه، برقة وعطف وإشفاق؛ وفى كل الطريق، كان يتلقى تأكيدا من الله برحمته، وأفضل الكل، كانت جيوش ملائكة الله الحارسة؛ تحيط به فى مسلكه، وفى مربضه. (مز ٣٤:٧، ١٣٩:٣).

كل هذا دعاه لإنشاد بعض من أعذب مزاميره، التى من ضمنها (مز ٣و٤، ٦١و٦٢ و٦٣ و١٤٣).

كان ينشد المزمورين الأولين، فى الصباح والمساء، عندما استبدل قصره، بقبة السماء الزرقاء. كان يعلم أن له أعداء كثيرين يقولون: «ليس له خلاص بإلهه»؛ أما هو، فكان يدرك، أنه محفوظ برعاية القدير.

أما أنت يارب فترسٌ لى
مجدى ورافع رأسى

لا يخاف من ربوات الشعب، يرقد فى سلام، ويستيقظ فى أمان، لأن الرب يعضده، وهو يدرك أن الرب قد أفرزه لنفسه، ويشعر أن نور وجهه، يضع سرورا فى قلبه، أعظم من كنوز المملكة، التى بدا له، أنه خسرها إلى الأبد.

ومن الأرض الناشفة اليابسة، التي كانوا مضطرين لعبورها، عطشت نفسه، لرؤية قوة ومجد الله، كما كان يراها في قدسه؛ والحال، يشعر بإرواء ظمأه تماما، فالتشوق إلى الله، مقدمة لوجوده، والتعطش إليه، هو الشعور بالماء البارد، ينسكب على الشفاه الجافة؛ ومع هذه الاختبارات، تتضح إليه مقدما، نتيجة تلك الحرب الطاحنة:

أمـــا الملك فـــيـــفـــرح بالله
يفـــتـــخـــر كل من يحلف به
لأن أفــواه المتكلمين بالكذب تسـد

(مز ٦٣:١١)

(٣) خلاص الله:

لم يستطع الجنود غير المتمرنين، الذين حشدهم أبشالوم بتعجل؛ أن يثبتوا أمام رجال داود المدربين، ولم يجدوا مفرا من الهروب. أما أبشالوم نفسه، فقد قضى عليه يوآب بلا رأفة؛ إذ كان معلقا في البطمة العظيمة، وحينئذٍ عاد الشعب إلى ولائهم الأول، وتنازعوا حول شرف إرجاع الملك؛ وحتى رجال يهوذا، الذين كانوا شاعرين بفقد ثقة داود فيهم، بسبب تعجلهم في اتباع أبشالوم؛ فإنهم تابوا، وحثوا الملك على الرجوع؛ وشمعي سجد بتذلل تحت قدميه، ومفيبوشت، أعلن ولاءه التام. وارتبط برزلاي بالبيت الملكي إلى الأبد، باعترافاته الكثيرة، بالعطايا الملكية التي منحت إلى ركمهام.(٢ صم ١٩:٣١-٣٩) وكانت النهاية حسنة، في جميع النواحي.

على أن حادثة أليمة، كدرت صفو الجميع؛ فإن الأسباط العشرة، اشتد غيظهم، لأن يهوذا انفرد بكل الترتيبات الخاصة بإرجاع الملك، وحنقوا على سبط يهوذا، وكلموه بكلمات قاسية. أما رجال يهوذا، فقد أجابوهم بكلمات مماثلة جارحة (٢ صم ١٩:٤٠-٤٣). وبغتة، ضرب شبع بالبوق، معلنا الثورة، ورفع الصوت عاليا، بذلك النداء الذي نودي به فيما بعد أيام رحبعام لانقسام المملكة، قائلا:«كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل»؛ (٢ صم ٢٠:١)، والحال، انشق الأسباط العشرة، وقامت ثانية ثورة خطيرة جدا، لم يمكن إخمادها، إلا بعد جهود بذلها يوآب؛ وكانت مأساة موت شبع، هي خاتمة هذه الثورة، التي لم تخمد إلا بالدماء، والتي تركت أثرا سيئا في حياة الأمة.


مكتبة المحبة
٣٠ شارع شبرا - القاهرة
ت: ٥٧٨٢٩٣٢ - ٥٧٥٩٢٤٤ فاكس: ٤٤٨
Bibliotheca Alexandrina
1099195